المجتمع المصري

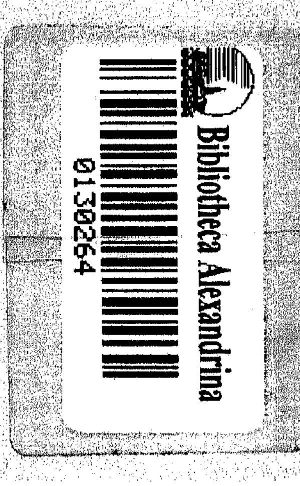
في

عصر سلاطين المماليك

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

طبعة جديدة مزيدة منقحة

١٩٩٢



دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

المجتمع المصري

في

عصر سلاطين المماليك

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٩٩٢

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة



مقدمة

لا تزال المؤلفات الحديثة الباحثة فى الجانب الاجتماعى لمختلف عصور التاريخ المصرى الطويل قليلة ونادرة • وربما كان من أسباب إعراض الباحثين عن هذه الناحية بالذات قلة المصادر المعاصرة المتوفرة على هذا الجانب الهام من جوانب التاريخ •

والواقع إن العلاقة بين التاريخ والاجتماع قوية وثيقة حتى أن جزءا كبيرا مما كتبه العلماء فى الاجتماع ليس إلا فلسفة للتاريخ فى صورة اجتماعية(١) • فإذا كانت تصرفات الأفراد — على اختلاف مراكزهم — تشغل ركنا هاما من أركان التاريخ ، فإن تصرفات الفرد بل إن آراءه وأفكاره ومشاعره تؤثر فيها وتوجهها النظم والتقاليد والعادات السائدة فى ذلك المجتمع ، والتى تحيط بالفرد كما يحيط الغلاف الهوائى بالأرض(٢) • وهكذا نجد أنه كلما تقدم منهج البحث التاريخى اتسعت دائرة أفقه وأخذ يقترب من علم الاجتماع لتزداد الرابطة بين العلمين(٣) •

ودراسة الحياة الاجتماعية تختلف إلى حد كبير عن دراسة الأحداث السياسية ، لأن الأحداث السياسية مزاجها التغيير والتبديل وعدم الاستقرار ، فى حين تظل الحياة الاجتماعية على شىء من الثبات وعدم التغيير السريع أو بطئه الشديد • مثال ذلك ما يحتويه ريف مصر اليوم

---

(١) Cilinn, Blackman : Outlines of Sociology; p. 33.

(٢) Idem : p. 3.

(٣) Idem : 38.

من عادات وتقاليد اجتماعية ترجع إلى أزمنة سالفة . وقد ظل أهل مصر حتى القرن العشرين يحتفلون بوفاء النيل احتفالا يشبه فى فكرته وصورته احتفال الفراعنة به . ثم إن الأمثال والتعبيرات العامية — وهى ظاهرة وصفية لروح الشعب — لا تزال تحتوى اليوم على كثير مما ردده أجدادنا فى عصر المماليك ، وقبل عصر المماليك[٤] .

وعلى ذلك فإن الباحث فى الحياة الاجتماعية كثيرا ما يجد نفسه فى حل من أن يلجأ إلى بعض المصادر المتقدمة قليلا أو المتأخرة قليلا عن العصر الذى يبحث فيه ، لاستكمال صورة ناقصة أو للعثور على حلقة مفقودة ، وإن كان الاقتراب من هذه المصادر يتطلب الحذر والحيطة فى البحث .

وقد اتفق علماء الاجتماع على أن المقصود بالحياة الاجتماعية جميع نواحى النشاط الانسانى فى ميادين العمل ، والدين ، والتعليم ، والنشاط الاقتصادى ، واللعب واللهو ، والأسرة وكيانها ، والأعياد والأفراح ، والمآتم والأحزان ، والأمراض الاجتماعية . ولذا يتعذر على الباحث أن يلم بجميع أطراف الحياة الاجتماعية لشعب معين فى عصر من العصور ، لأن أفق الحياة الاجتماعية نفسه غير محدد حتى يمكن الإلمام بجميع أطرافه . وكان أن تطلب منى التأريخ للحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر المماليكى دراسة كل ما وصلت إليه من مؤلفات

---

(٤) ابن دانيال : طيف الخيال ص ٤٨ . ومن هذه التعبيرات « وقع الفاس فى الراس » ، « فلان وفلان حجرين فى لباس » ، « يا فلان لا تقطع رجلك منا » ، « فلان أصبحت راسه فى السما » ، « فرجت عليه كلاب البلد » .. وغير ذلك من قائمة التعبيرات العامية الطويلة التى ذكرها السيوطى والتى ما زلنا نسمعها اليوم .

(السيوطى : الكنز المدفون ص ١٤٥) .

ومصادر معاصرة فى مختلف العلوم والفنون ، كالتاريخ والتراجم والخطط والجغرافيا والفقه والتصوف والأدب والعلوم والفلاحة والألعاب ، وغيرها من المعارف العامة . وثمة نوع من المصادر أوليته عناية خاصة ، هو الأدب الشعبى من قصص وبلاليق وأمثال وتمثيليات وأغان معاصرة . ويتصف هذا الأدب الشعبى بالسير على المذهب الواقعى لا المثالى ، فالبطل يرتكب أنواع الرذائل ولا بأس أن ينتهى أمره بالتعظم والإجلال ويعيش منعما مكرما ، مما يعطينا فكرة صادقة عن الحياة الواقعية فى العصر المراد بحثه . كذلك كثرت فى هذا النوع من المصادر الألفاظ البذيئة مما تستحى منه الأذن والعين ، كما يبدو ذلك جليا فى مسرحيات خيال الظل المعاصرة[٥] . على أن هذه العيوب كلها لا تقلل فى الواقع من أهمية ذلك التراث الضخم الذى تتراءى فيه شخصية الشعب[٦] .

وتتراءى أوصاف الشعب كذلك فى ملحوظات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر فى العصور الوسطى ، لأن كثيرا من العادات وألوان النشاط الاجتماعى التى بدت فى أعين المعاصرين من أهل البلاد شيئا مألوفا وعاديا ، ظهرت غريبة بالنسبة لأولئك الرحالة فتعرضوا لها بالوصف الممتع والنقد المفيد .

ولا يخفى على الباحث أن هناك عدة عوامل أدت الى طبع الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر المماليك بطابع خاص مميز ، وأول هذه العوامل طبقة المماليك بالذات ، وهى الطبقة التى دخلت على المجتمع

---

(٥) ابن دانيال الموصلى : طيف الخيال (النسخة المخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية) .

(٦) سهير القلماوى : الف ليلة وليلة ص ١٧٦ .

المصرى وحكمت المصريين حكما مستقلا مدة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان . والمعروف أن المماليك لم يحاولوا — عادة — الاختلاط بالمصريين ، ولم يتأثروا بنظمهم وعوائدهم إلا فى حالات قليلة وبقسط محدود . وقد ساعد على هذه العزلة وترتب عليها أن طبقة المماليك أكثرت من شراء الرقيق حتى تكون لهم عصبية يعتمدون عليها فى حكم البـلاد . ويرتبط بالمماليك الوافدية الذين هاجر معظمهم من بلاد المغول إلى مصر مستأمنين أحرارا لا أجلابا مملوكين . وهكذا حدث فى ذلك العصر « أن ملأ المغول مصر وانتشرت بها عاداتهم وطرقهم »[٧] . فظهر من الأطعمة فى مصر ما لم يكن معروفا قبلهم وسموها بأسماء من لغتهم[٨] وانتشر أكل لحـوم الخيـل فى المهـام والأعـراس والحفلات[٩] . وشغف الناس بألعاب الرياضة والفروسية واقتنـاء الخيول ، حتى اقتناها وسابق عليها بعض رجال الدين[١٠] . وكذلك

---

(٧) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٥٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ص ٥٢ .

(٩) ابن حبيب : درة الأسلاك جـ ٢ ص ٢٦٩ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣١٠ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٨٠٠ هـ ، ابن قاضى شهبة : الاعلام جـ ١ ص ٣٣ . والمشهور عند المالكية تحريم الخيل ، وقال الحنفية بكره أكل لحمه (كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ص ٧٣٣) ، ولكننا لم نسمع بظاهرة أكل لحوم الخيل فى احوال الرخاء فى عصور مصر الاسلامية السابقة . ومن الثابت أن هذه الظاهرة التى ادخلها المماليك وتمسكوا بها فى مصر انما اتوا من بلاد القفجاق بحوض نهر الفولجا — وهو موطن الغالبية العظمى منهم — حيث تؤكل لحوم الخيل فى المواسم والاعيـاد (المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٢٨٨ حاشية ٥ للدكتور محمد مصطفى زيادة) .

(١٠) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٤٦ ، جـ ٢ ص ٢٩٣ .

تغيرت بعض أزياء الملبس وفقا لما رأى الناس من أزياء المماليك[11] . وبلغ الأمر أن بعض القضاة والفقهاء تحدثوا إلى سلاطينهم باللغة التركية ، فاذا خاطب السلطان أحدهم بالعربية قبض لسانه ، وإذا تكلم معه بالتركية بالغ[12] .

أما العامل الثاني فى توجيه المجتمع المصرى فى عصر المماليك فهو الحروب الصليبية ، التى كان من أهم نتائجها نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب . وعلى الرغم من التعليمات المشددة التى أصدرها بابوات روما إلى الشعوب المسيحية لمنع التجارة مع المسلمين بعد استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ م ، فقد استمرت التجارة بين الطرفين فى نمو وازدياد لما حققته للفريقين من ثروة طائلة[13] واستغل سلاطين المماليك بمصر ذلك المورد الخصب فشغلوا أموالهم فى التجارة[14] ، واحتكروا بعض التوابل ليبيعونها للفرنج دون التجار المواطنين[15] . وهكذا جمعوا ثروات طائلة[16] ، أفاضت كتب التاريخ المعاصرة فى وصفها ووصف مظاهرها . ومن أمثلة ذلك أن السلطان برقوق ترك فى الخزانة عند وفاته ما يزيد عن ألف ألف دينار من الذهب العينى ، ومن الفراء ما قيمته أيضا ألف ألف دينار[17] . وظهر أثر

---

(١١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٥٢ .

(١٢) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ٨٩ (أ) .

(١٣) Heyd : Hist. du Commerce; Vol. 2, p. 26.

(١٤) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٦٢ ، ص ٢٥٠ (أ) .

(١٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٥٩٢ .

Reinaud : Traités de Commerce entre la Republique de Venise et les derniers Sultans Mameloucs d'Egypte; p. 22.

(١٦) Heyd : op. cit., : Vol. 2; p. 28.

(١٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ ٥ ص ٥٩٧ .

هذه الثروة واضحا جليا فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ، من احتفالات فخمة وأسمطة فاخرة ، وملابس ثمينة ، وحلى عديدة . كذلك تنافس عظماء الدولة من وزراء وأمراء وكتاب وتجار فى تشييد القصور والتفنن فى زخرفتها والتأنق فى تأثيثها حتى غدت مضرب الأمثال[١٨] . وهكذا اشتهرت مصر فى عصر سلاطين المماليك بثروتها الطائلة ، فقصدها كثير من أهالى البلاد الاسلامية فى المغرب والمشرق ، لما بلغهم « عن أحوال مصر والقاهرة من الترف والغنى » . ولا شك فى أن هؤلاء الوافدين الذين أتوا إلى مصر ليستقروا فيها تركوا أثرا ما فى أحوال البلاد بوجه عام ، وأوضاعها الاجتماعية بوجه خاص[١٩] .

وفى عصر سلاطين المماليك ظهرت كذلك آثار النظم الاقطاعية الغربية التى أتت من غـرب أوربا إلى الشرق عن طريق الحـروب الصليبية[٢٠] . حقيقة إن نظام الاقطاع الذى عرفته مصر فى عصر الأيوبيين ثم المماليك ترجع أصوله إلى السلاجقة والأتابكة ، وأن المماليك لم يستعملوا كثيرا من الاصطلاحات الخاصة بالاقطاع التى استعملها الصليبيون ، ولكنهم مع ذلك تأثروا إلى حد كبير بالقواعد والنظم اللاتينية التى اقتبسوها من جيرانهم الصليبيين[٢١] . ففى العصر المماليكى ظهرت وجهة النظر التى تقول بأن الاقطاع يصح أن يظل وراثيا بعد وفاة المقطع الأصلى ، بشرط ولاء الورثة للسلطان . وشجع تطبيق هذا المبدأ فى بعض الحالات السلطان الظاهر بيبرس ،

---

(١٨) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٥٥ .

(١٩) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥

Clerget : Le Caire, Tome I; p. 217

(٢٠) Poliak : Some Notes; p. 97.

(٢١) Idem : p. 98.

وإن كانت هذه الحالات قليلة ونادرة[٢٢] . وفى عصر المماليك ظهر أيضا المبدأ الذى يبيح للمقطع الخروج عن طاعة السلطان فى حالة الاخلال بشروط الاقطاع ، ولا حق للسلطان فى هذه الأحوال فى استرداد الأرض التى سبق منحها للمقطع[٢٣] . كذلك إذا تقرر حرمان مملوك من إقطاعه ، فالمملوك المحروم حر فى الدخول فى تبعية أى أمير آخر[٢٤] .

ثم كان إحياء الخلافة العباسية فى مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ ليضيف عاملا هاما من عوامل تطور المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، إذ ترتب على ذلك الإحياء أن فرض سلاطين المماليك بمصر لأنفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الاسلامى ، باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها[٢٥] . وهكذا أخذ يفد إلى مصر فى عصر سلاطين المماليك القصاد ورسل الحكام والملوك من مختلف أنحاء العالم الاسلامى يحملون الأموال والهدايا ويطلبون التقاليد من الخليفة[٢٦] . هذا عدا الصوفية والفقهاء والعلماء الذين قصدوا مصر من البلاد القريبة والبعيدة ، وبخاصة بلاد المغرب ، الأمر الذى ترتب عليه نشاط كبير فى مختلف ميادين الحياتين العلمية والدينية بمصر . فالبلوى الذى زار مصر سنة ٧٣٧ هـ أبدى إعجابه الشديد بالنشاط العلمى وقال إن

---

(٢٢) Idem : p. 97.

(٢٣) Ibid.

(٢٤) Idem : p. 99.

(٢٥) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ص ٧٩ .

(٢٦) ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ص ١٣٢ (أ) ، ابن حبيب : درة الأسلاك جـ ١ ص ٣٩ ، محيى الدين العيدروسى : النور السافر ص ٤٤ .

مصر منبع العلم[٢٧] . والسيوطى ينسب ذلك النشاط العلمى والدينى إلى إحياء الخلافة بمصر فيقول « اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رحال الفضلاء »[٢٨] . وهذا هو بعض السر فى كثرة المؤسسات العلمية والدينية على اختلاف أنواعها ، وما صحب كل ذلك من نشاط دينى وعلمى واسع ، ترك أكبر الأثر فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

* * *

ولا يخفى على باحث التاريخ أن علاج الحياة الاجتماعية فى عصر من العصور الوسطى — مثل عصر سلاطين المماليك — أمر ليس بالسهل اليسير . وكان أن لمست بنفسى صلابة البحث وصعوبته منذ بدأت التفكير فيه ، إذ كانت الصعوبة الأولى التى واجهتنى هى تحديد أفق الموضوع مع ارتباط الحياة الاجتماعية بجميع نواحى النشاط البشرى من قريب أو بعيد . وثمة صعوبة أخرى هى قلة المادة وتشتتها فى مطون المصادر المعاصرة . فإذا كان الباحث فى الأوضاع السياسية أو الاقتصادية مثلا يفتح المصدر المعاصر ليجد فيه عدة صفحات متتالية ترتبط بحرب أو فتنة أو هجرة أو أزمة أو مجاعة ، فاننى فى دراسة الحياة الاجتماعية كنت أدرس المصدر بجميع أجزائه عسى أن أصادف إشارة تمس الأوضاع الاجتماعية .

وأخيرا جمعت هذه الشذرات المتباينة المستخرجة من أعماق المصادر المتفاوتة فى موضوعاتها وأغراضها ، الأنسق بينها وأشيد من

---

(٢٧) رحلة البلوى ص ٥٤ (١) .

(٢٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٦ .

هذه الفئات بحثا مترابطا يقوم على أسس علمية متينة . ويبدو أن منشأ هذه الصعوبة جاء من أن بحث الحياة الاجتماعية فى عصر من العصور الاسلامية يرتبط الى حد كبير بالتقاليد الشرقية الاسلامية ، وما تتصف به هذه التقاليد من محافظة شديدة ، لا سيما فيما يتعلق بالأحوال العائلية والمنزلية ودور المرأة فى المجتمع . وربما نظر كتاب العصر إلى هذه النواحى على أنها أشياء عادية مألوفة للجميع ، فلا يصح أن يبذلوا جهدا أو يضيعوا وقتا فى تسجيلها . وأخيرا ينبغى أن نشير إلى أنه على الرغم مما هو معروف عن عصر سلاطين المماليك من كثرة فى الكتب والمؤلفات ، إلا أن التاريخ فى تلك العصور كان ربيب السلاطين والأمراء والقصور والمدن ، أما ما عدا ذلك من الفلاحين والعامة والريف والقرى فكان نصيبه الاهمال . وحسبنا ما يعترف به مؤرخ كبير — مثل أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى — عندما يقول عن أحد الأفراد « وقد أضربنا عن شرح ما حدث له لأنه لم يكن من أعيان الناس لتشكر أفعاله أو تذم ! »[٢٩] .

على أننى لم أقصد بتعديد هذه الصعاب التى واجهتنى أثناء البحث أن استدر عطف القارىء أو أعطيه فكرة مبالغ فيها عن الجهد الذى بذلته فى هذا الكتاب ، فهذا أمر متروك لأفقه وتقديره ، وإنما كل ما قصدته هو أن ألتمس منه سعة الصدر فيما عسى يظنه موضعا للنقد .

* * *

وبعد ، فإننى أرى من واجبى تقديم الشكر خالصا إلى كل من عاوننى على إتمام هذا الانتاج العلمى ، وبخاصة أستاذى المرحوم

---

(٢٩) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٤٤ .

الاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى لم يضن على طوال البحث بغزير علمه أو ضيق وقته .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه من كشف الستار عن جانب هام من جوانب الحياة فى عصر من أبرز عصــور التاريخ المصرى الحافل وأكثرها متعة ولذة للباحث .

سعيد عبد الفتاح عاشــور

الطبعة الثانية

جامعة القاهرة بالجيزة فى رمضان ١٤١٢

مــارس ١٩٩٢

الفصل الأول

بنـاء المجتمع فى مصر على عصر سـلاطين المماليك

عاش المماليك فى مصر طبقة منفصلة ممتازة عن سائر السـكان بالبلاد المصرية ، وساعد ذلك على قيام نظام طبقى وضحت فيه كل طبقة من طبقات المجتمع وضوحا أملاه مركزها ونوع نشاطها .

ولحظ المعاصرون هذه الفوارق بين الطبقات ، فحاول المقريزى تقسيم أهل مصر فى عصره إلى سبعة أقسام هم : أهل الدولة من المماليك ، وأهل اليسار من التجار ، ومتوسطو الحال من البـاعة والسوقة ، وأهل الفلح ، والفقهاء ويشملون طلاب العلم ، وأرباب الصنائع والمهن ، وذوو الحاجة والمسكنة[1] . ومن الواضح أن هذا التقسيم — رغم شموله — يغفل ذكر أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين والذميين ، كما يغفل الأعراب ، مع ما لهاتين الطائفتين من أهمية فى عصر المماليك . غير أن المقريزى جعل هذا التقسيم فى معرض موضوع اقتصادى ، ولعله أدمج الأعراب فى أهل الفلح ، كما أدمج أرباب الوظائف الديوانية فى مختلف الطبقات التى عاشوا فيها .

أما بيلوتى الكريتى الذى عاش بمصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادى — بمعنى أنه كان معاصرا للمقريزى — فقد قسم المجتمع فى مصر إلى ثلاث طوائف كبرى : هى الشعب المصرى بمختلف فئـاته الخاضعة لحكومة السلطان سياسيا ولنفوذ الخليفة دينيا ، وطائفة المماليك وهى عسكرية شعارها الأطماع والدسائس والانقلابات ،

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٨٢ .

ثم طائفة البدو أو الأعراب الذين لا يتركون فرصة تمر دون أن يخلقوا للحكومة والأهالى متاعب متنوعة[٢] .

ولابن خلدون تقسيم معروف ، نصه أن ملك مصر فى عصر المماليك « إنما هو سلطان ورعية » ، أى أن هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل السادة من المماليك ، وطبقة من المحكومين المغلوبين على أمرهم يمثلون فئات أهل مصر جميعا[٣] . واتفق مع ابن خلدون فى رأيه من المؤرخين المحدثين لين بول ، الذى قسم سكان مصر فى عصر المماليك إلى طبقتين كبيرتين تفصل بينهما حواجز وسدود معينة ، الأولى طبقة المماليك — وعرفها بأنه أقلية عسكرية ممتازة Military Oligarchy — والثانية بقية فئات الشعب الخاضعة ، وعليها فلاحة الأرض ودفع الضرائب . وقال إن الطبقة الثانية عاشت محرومة من كل نفوذ فى شئون الحكم ، سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية[٤] .

ومن الملحوظات السابقة وغيرها يستطيع الباحث تقسيم سكان مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى فئات ثمان هى : المماليك ، والمعممون ، والتجار ، وطوائف السكان وأرباب المهن فى المدن ، وأهل الذمة ، والفلاحون ، والأعراب ، والأقليات الأجنبية .

المماليك :

أما المماليك فكانوا الطبقة العسكرية الممتازة التى سيطرت على البلاد وأهلها ، ولهم فى أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص فى الحياة وعدم اختلاطهم بأهالى البلاد ، سياج يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذى تعيش

---

(٢) Dopp : L'Egypte au Commencement du Ouinzieme Siecle d'apres le traitè d'Emmanuel Piloti de Crete, p. IX.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٣ .

(٤) Lane — Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. p. 252 — 253.

وسطه . وتثبت الشواهد التاريخية أن المماليك لم يكونوا جميعا من أصل واحد . فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك خوارزم جلال الدين مانجوبرتى الذى قضت عليه جيوش جنكيزخان(٥) ، والسلطان قلاوون قفجاقى من قبيلة برج أغلى ببلاد القفجاق(٦) ، والسلطان كتبغا مغولى الأصل جاء الى مصر أسيرا فى موقعة حمص سنة ٦٥٨ هـ ، والسلطان لاجين أصله من إحدى البلاد الواقعة على شاطىء بحر البلطيق(٧) . وقد ذكر أرنولد هارف الألمانى فى رحلته أنه تعرف فى القاهرة على اثنين من المماليك أحدهما أصله من مدينـــة بال والثانى من مدينـــة دانزج(٨) . أما الرحالة بيرو تافور فظهر له أن مندوب السلطان الذى استقبله بالقاهرة مواطن له من قشتالة ، ومن موالد أشبيليه(٩) .

وهؤلاء المماليك وإخوانهم جاءوا إلى مصر من مختلف البـــلاد مع تجار الرقيق . وشجع هؤلاء التجار على جلب الرقيق من الجنسين سعة الأموال التى بذلها لهم السلاطين والأمراء رغبة فى الإكثار من مماليكهم حتى يكونوا لهم سندا يعتمدون عليه ، فضلا عن الرغبة فى أبهة التملك على أعداد عظيمة من الجند والحاشية(١٠) . وخير ما يوضح إقبال السلاطين على شراء المماليك وتشجيعهم للتجار على جلبهم ، قول المقريزى عن السلطان الناصر محمد أنه : « أكثر من جلب المماليك والجوارى ، وطلب التجار إليه وبذل لهم المال ، ووصف لهم حلى المماليك والجوارى ، وسيرهم إلى بلاد أزبك وتوريز والروم وبغداد

---

(٥) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٤١ .

(٧) Wiet : L'Egypte Arabe : p. 300.

(٨) Schefer : Le Voyage d'outremer de Jean Thenaud; p. XXXV.

(٩) Tafur : Travels : p. 72.

(١٠) العينى : عقد الجمان — حوادث سنة ٦٨٨ هـ .

وغير ذلك من البلاد . فكان التاجر إذا أتاه بالجلبة من المماليك بذل له فيها أغلى القيم ، وأنعم على تلك المماليك فى يومهم بالملابس الفاخرة والحوائص الذهب والخيول والعطايا حتى يدهشهم .. »[١١] .

وهكذا يقال إن عدد المماليك السلطانية بلغ أيام السلطان منصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة « فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك »[١٢] . أما السلطان برقوق فيقال أنه أشترى مدة سلطنته خمسة آلاف مملوك[١٣] . وانتسب هؤلاء المماليك غالبا إلى أساتذتهم ، أى سادتهم الذين اشتروهم من التجار ، أو انتقلوا إليهم بطريقة أو أخرى . فالأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل والأشرفية برسباى نسبة إلى الأشرف برسباى والأشرفية الاينالية نسبة إلى الأشرف إينال ، والظاهرية بيبرس نسبة الى الظاهر بيبرس والظاهرية جقمق نسبة الى الظاهر جقمق .. وهكذا . وربما انتسب المملوك الى تاجره الذى جلبه ، ولصقت به هذه التسمية طول حياته ، مثل يلبغا السالمى نسبة الى التاجر جلبه واسمه سالم[١٤] والمماليك العثمانية نسبة الى الخواجا عثمان فخر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيرا من المماليك والجوارى الى سلاطين المماليك بمصر[١٥] . وأحيانا نسب المماليك إلى أصولهم وقبائلهم مثل المماليك العثمانية الذين أسرهم أزبك سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٨ م) عندما انتصر على الأتراك

---

(١١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٢٤ — حوادث سنة ٧٤١ هـ .

(١٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨ .

(١٣) ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٩٧ .

(١٤) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٧٨ .

(١٥) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٤ ص ٢٧٣ .
وقد جاء فى هذا المصدر أن التاجر عثمان هذا هو الذى جلب الأمير برقوق « وكان له جاه عظيم واسم فى البلاد كبير والمماليك العثمانية منسوبون اليه » . كذلك ورد فى السلوك للمقريزى (حوادث سنة ٧١٧) ، اسم بدر الدين بيليك العثمانى ، ولعله منسوب الى الخواجا عثمان هذا .

العثمانيين ، فأنزلهم قايتباى فى ديوانه وقدر لهم الجوامك[١٦] • وربما انتسب المملوك إلى قيمته التى اشترى بها إذا كانت مبلغا كبيرا يستحق التفاخر ويدل على ما فى المملوك من صفات طيبة ومواهب ، مثل قلاون الذى اشتراه أستاذه الأمير علاء الدين آقسنقر بألف دينار « وغالى فى قيمته لحسنه وصورته فعرف بالألفى »[١٧] •

وكان السلطان اذا اشترى عددا من المماليك ، فانه يرسلهم أولا الى الأطباء لفحصهم[١٨] ، ثم ينزلهم فى طبقة جنسـهم فيتسلمهم الطواشى المقدم على الطبقة[١٩] • وقد خصص لكل من هذه الطباق فقيه يحضر إليها لتعليم المماليك القرآن والخط وأحكام الدين وآداب الشريعة • فإذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من « الرمى بالنشـاب واللعب بالرمح وركوب الخيـل وأنـواع الفروسية »[٢٠] • وشهد برنارد دى بريدنباخ المماليك السلطانية وهم يقومون بتمريناتهم الحربية عند سفح المقطم[٢١] • وعندما ينتهى المملوك من هذه المرحلة التعليمية ينتقل إلى الخدمة ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء[٢٢] •

---

(١٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٥٧ ، ٤٨١ ، المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٥٢ •

(١٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٤١ ، ابو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٧ ب •

(١٨) Tafur : Travels : p. 74.

(١٩) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢١٨ •

(٢٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٢٤ •

(٢١) Larrivaz : Les Saintes Peregrination de Bernard de Breydenbach. p. 55.

(٢٢) المقريزى : الخطـط جـ ٣ ص ٣٤٧ ، السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٥٢٤ •

واهتم السلاطين اهتماما بالغا بتربية مماليكهم ، فعينـوا لهم مؤدبين من أكابر الأمراء بالاضافة الى الفقهاء ومعلمى الفروسية . وقام هؤلاء الأمراء بفحص أحوال المماليك ومراقبة حركاتهم وسكناتهم وعقاب الخارج على آداب الدين أو الدنيا عقـوبة صارمة بمعـرفة الطواشية[٢٣] . وذكر المقريزى أن هؤلاء الطواشية كانوا فى عصره ذوى حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس[٢٤] . كذلك ذكر أبو المحاسن أن الطواشى « كانت له سطوة ومهابة على المماليك السلطانية ، بحيث أنه كان لا يستجرىء أحد أن يمر من بين يديه كائنا من كان ، بحاجة أو بغير حاجة ، وحيثما وقع بصره عليـه أمر بضربه ! »[٢٥] . والواقع أن الطواشية كانوا مسئولين — إلى حد كبير — عن تربية المماليك ، كما يفهم من قصة تواترت فى المصـادر المعاصرة وفحواها أن السلطان الناصر محمد سمع بأن أحد مماليكه شرب خمرا فأمر بضربه بالمقارع حتى مات ، ثم قطع حوامك مقدمى الطباق من الطواشية وأنزلهم من القلعـة لأنهم فرطوا فى تربيـة المماليك[٢٦] . وبلغ من اهتمام بعض السلاطين بتربية مماليكم أنهم أشرفوا عليهم اشرافا مباشرا ، فأحضروهم الى حضرتهم بين حين وآخر ليقرؤوا أمامهم وليمتحنوهم بأنفسهم[٢٧] . وكثيرا ما ذهب السلطان — ومعه كبار أمرائه — الى طباق المماليك ليفاجئهم بزيارته ويتفقـد أحوالهم[٢٨] .

على أنه فى الوقت الذى فرض السلاطين هذه الرقابة الصارمة على

---

(٢٣) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٧ .

(٢٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢١٩ .

(٢٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٣٨ .

(٢٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٢٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٧٣ ، ٧٨ .

(٢٧) الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ص ٢٢٥ .

(٢٨) Dopp : L' Egypte au Commencement : p. 17.

مماليكهم لم يضنوا عليهم بالأرزاق والأموال ، بل نظرا اليهم نظرة الأبوة الصادقة[٢٩] • وقد ذكر ابن فضل الله العمرى « وصية مقــدم المماليك » ، وهى توضح كيف كان مقدمو المماليك يوصــون بحسن معاملتهم ويوجهون الى رعايتهم ، فطلب من المقدم أن يكرمهم « وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم ، وليأخذ بقلوبهم مع اقامة المهابة التى يخيل اليهم أنه معهم وخلفهم وبين أيديهم ••• وليكن لأحوالهم متعهدا ولأمورهم متفقدا ، وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ، ويتعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه ، فإنهم إن لم يكونوا أهلا فهم جيرة •• »[٣٠] وهكذا خصص السلاطين لمماليكهم الأطعمة المختلفة من لحوم وحلوى وفواكه[٣١] ، كما عينوا لهم الكســوات الفاخرة « من القطن البعلبكى والكتان الخام المتوسط »[٣٢] • وقيل إن السلطان قلاون عكف على الخروج الى رحبة القلعة لمعرفة أحوال الطعام الذى يقدم لمماليكه ، فيتفقد اللحم ويختبر الخضر •• فإذا رأى به عيبا اشتد على المشرف والاستادار ، وربما أنزل العقوبة بالمسئول عن مخالفة الأوامر السلطانية[٣٣] •

وعندما يشب المملوك ويخرج من الطباق تقرر له جامكية تتدرج من ثلاثة دنانير الى خمسة الى سبعة الى عشرة[٣٤] • وقد جاء فى مذكرات بطرس مارتير الذى بعثته الملكة إيزابلا والملك فردناند الى السلطان الغورى سنة ١٥٠٢ م أن متوسط جامكية كل مملــوك من المماليك السلطانية بلغت ستة دنانير[٣٥] أما مجموع نفقات الرواتب

---

(٢٩) العينى : عقد الجمان — حوادث سنة ٦٨٨ هـ •

(٣٠) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٨ — ٩٩ •

(٣١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ، ص ٣٤٧ •

(٣٢) المقريزى : السلوك ٢ ص ٥٢٤ (حوادث سنة ٧٤١) •

(٣٣) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٦ •

(٣٤) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ •

(٣٥) Schefer : op. cit. : p. 49.

والجوامك للمماليك السلطانية فقد تفاوتت من عهد سلطان الى عهد آخر ، وقد ذكر المقريزى أنها بلغت سنة ٧٤٨ هـ — أى فى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون — مائتين وعشرين ألف درهم شهريا[٣٦] .

ولم تكن هذه النفقة على المماليك السلطانية كل ما هنالك ، إذ ينتقل المملوك بعد ذلك من الجامكيات الى الاقطاعات والى إمـرة العشرات ثم الى الطبلخانات ، ومنهم من ينتقل الى تقدمة الألوف وإمرة المئين ، ولكل من هذه المراتب نفقات معلومة كذلك[٣٧] ، « فإذا وصل الى منزلة كبيرة ورتبة عالية عرف مقدارها ، وما كان فيه من الشقاء وما صار إليه من النعيم »[٣٨] . وقد أورد المقريزى وصفا لما جرت به العادة من الاحتفال عند تأمير السلطان مملوكا من المماليك ، وأشار الى اليمين الذى يقسمه المملوك عندئذ للدلالة على إمرته ، وهو فيما يبدو يمين الإخلاص والتبعية للسلطان[٣٩] . على أنه يلاحظ أن فرص الترقى لم تكن مهيأة لجميع المماليك على قدم المساواة ،

---

(٣٦) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨ .

(٣٧) العينى : عقد الجمان (حوادث سنة ٦٨٨ هـ) .

(٣٨) المقريزى السلوك جـ ٢ ص ٥٢٥ .

(٣٩) وهذا نص ما أورده المقريزى (المواعظ جـ ٢ ص ٣٨٠ بولاق) :
« وكانت العادة اذا أمر السلطان أحدا من أمراء مصر والشام ، فانه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له القاهرة ، فيمر الى المدرسة الصالحية بين القصرين . وعمل ذلك من عهد المعز أيبك ومن بعده ، فنقل ذلك الى القبة المنصورية قلاون ، وصار الامير يحلف عند القبر المذكور ، ويحضر تحليفه حاجب الحجاب ، وتمد أسمطة جليلة بهذه القبة . ثم ينصرف الأمير ويجلس له فى طول شوارع القاهرة الى القلعة أهل المغانى ، لتزفه فى نزوله وصعوده ، وكان هذا من جملة متنزهات القاهرة ، وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاوون » .

انظر كذلك المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٣٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٢١٦ — ٢٢١ ، والعمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٤٦ — ١٥١ حيث ورد نص يمين عامة لتحليف الأمراء المماليك فى مختلف المناسبات

إذ يبدو أن الأمل فى التحرر والحصول على لقب الإمارة كان مهيئـا للمماليك السلطانية بنسبة أكبر بكثير منها لمماليك الأمراء . وفى ذلك يقول القلقشندى عن المماليك السلطانية « وهم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة »(٤٠) ومهما يكن الأمر ، فإن المملوك اذا وصل الى مرتبة الإمارة أصبح سلطانا صغيرا أو على قـول القلقشندى « سـلطانا مختصرا »(٤١) ، له إسطبل أى مجموعة من المبانى تشمل مسكنه وبيوت مماليكه وموضع خيوله ومخازن مؤنتها وسروجها(٤٢). ولكل أمير منهم موظفون من الطشت خاناه والفراش خاناه ... وله من أجنـاده استادار ورأس نوبة ودوادار ... كأنه سلطان . وأطلق المصطلح المماليكى اسم البيوت الكريمة على بيوت الأمراء كما أطلق البيوت الشريفة على بيوت السلطان(٤٣) . ويلاحظ دائما أن المملوك عندما يتحرر ويصبح أميرا ويقتنى بدوره عددا من المماليك ، فإنه كان يوليهم حظا من العطف والرعاية مثلما نال هو من أستاذه فيما قبل ، فكان الأمير « لا يمكن أن يأكل إلا وجميع أجناده معه ويأخذ غلمان أجناده الطعام كل يوم من مطبخه ، وإذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقـال له إن فلانا اشتهى كذا فيغضب ممن لا يأكل عنده »(٤٤) .

وأعلى درجات الأمراء أمير مائة مقدم ألف ، وتدق على بابه ثمانية أحمال من الطبل وزمران وأربعة أنفرة ، ويليه فى المرتبة أمـير طبلخاناه وتدق على بابه ثلاثة أحمال طبل ونفيران ثم تطورت وأصبحت طبلان وزمران ، ثم أمير عشرة فأمير خمسة(٤٥) . وشغل بعض هؤلاء

---

(٤٠) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ — ١٦ .

(٤١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٤٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١١١ حاشية ٤ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٤٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ (بولاق) .

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ .

الأمراء وظائف فى الدولة ، على أن بعضهم عاش دون أن تكون له وظيفة سوى رتبته العسكرية فى جيش السلطان . وقد ارتبطت هذه الوظائف بعدد من التقاليد المماليكية ، فوظيفة أمير كبير أو أمير سلاح أو أمير مجلس يجب أن يكون صاحبها من مقدمى الألوف ، ووظائف شـاد الشرابخاناه والدوادار الثانى يكون صاحبها من أمـراء الطبلخاناه وهكذا[٤٦] . وهنا نلاحظ أن الإنعام برتبة الامارة لم يقتصر على المماليك وحدهم ، وإنما وجدت حالات أنعم فيها السلاطين بهذه الرتبة على أفراد لا ينتمون — بحكم أصلهم — الى طبقة المماليك . من ذلك ما يرويه المقريزى من أنه « قدم فى أيام الناصرية محمد بن قلاون تاجر فرنجى بهدية الى ملكتمر الحجازى ، فأعجبته مصر وأسلم وعزف بآقسنقر الرومى . وأنعم عليه السـلطان الناصر محمـد بن قلاون بإمـرة عشرة[٤٧] ... » كذلك أنعم السلاطين على أبناء الأمراء المتوفين بإمرة خمسة أو عشرة ، وذلك « رعاية لسلفهم » وليس بموجب أى حـق إقطاعى[٤٨] .

وشهد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك — مثل فرسكو بالدى Frescobaldi الذى جاء الى مصر سنة ١٣٨٤ م — بضخامة الثروة التى تمتع بها أمراء المماليك ، ومظاهر الترف والنعيم التى نطقت بها قصورهم[٤٩] . وأفاض المقريزى فى شرح هذه الناحية ، فوصف قصور الأمراء وما احتوت عليه من ثروة وتحف ، حتى أن سعر الذهب هبط فى الديار المصرية بعد نهب قصر الأمير قوصون سـنة ٧٤٢ هـ لكثرة ما وصل من الأنهاب الذهبية الى أيدى الناس[٥٠] .

---

(٤٦) فرس الدين خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٤ — ١١٥ .

(٤٧) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧١٦ (حوادث سنة ٧٤٧ هـ) .

(٤٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥ ، المقـريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٤٩) Schefer : op. cit.; p. X.

(٥٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١١٧ — ١١٨ .

كذلك ذكر المقريزى عن الأمير شمس الدين بيسرى أن عليق خيله وخيل مماليكه بلغ فى اليوم الواحد ثلاثة آلاف عليقة ، وأن راتب كل واحد من مماليكه بلغ فى اليوم مائة رطل لحم ، وأنه اعتاد أن ينعم بالألف دينار مرة واحدة[٥١] .

أما مصدر هذه الثروة فهى الاقطاعات السخية التى أجراها السلطان على الأمراء والجند كل حسب درجته ورتبته . فبلغ متوسط إقطاع الأمير مساحة تتراوح بين زمام قرية وعشر قرى ، أما المملوك السلطانى فتراوح إقطاعه بين زمام قرية ونصف قرية ، فى حين لم يقل إقطاع جندى الحلقة عن نصف زمام قرية[٥٢] . وقد قدر القلقشندى إقطاع الأمير الكبير بمائتى ألف دينار[٥٣] ، وإقطاع أمير الطبلخاناه بين ثلاثة ألف دينار وثلاثة وعشرين ألف دينار ، فى حين أن العشراوات كان أعلاها سبعة آلاف دينار ، وأجناد الحلقة أعلاها ألف وخمسمائة دينار[٥٤] .

وكان السلطان يتولى بنفسه — عادة — توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم اليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه الى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب فى الطباق الى ميدان الفروسية ...[٥٥] فإذا وقع اختياره عليه ليمنحه إقطاعا أمر ناظر الجيش بأن يكتب ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حيز فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها السطان . وبعد أن يوقع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال الى ديوان الجيش فيحفظ فيه[٥٦] . وقد

---

(٥١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ١١٢ .

(٥٢) Poliak : Feudalism in Egypt, Syria, Some Notes, p. 99.

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ .

(٥٤) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٥٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥١ — ٥٢ .

(٥٦) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

اختص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أمرائهم • كذلك روعى أن يعين فى منشور الأمير ثلث الإقطاع للامير نفسه ، والأجناده الثلثان[٥٧] •

وظلت القاعدة العامة أن يكون الاقطاع شخصيا بحتا ، لا دخل لحقوق الملكية أو الأحكام الوراثة فيه ، بل يستغله المقطع بدل السلطان ، ثم يؤول كله الى السلطان بمجرد انتهاء مدة الاقطاع المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع ، أو بسبب عزله أو إخلاله بشروط العقد القائم[٥٨] • واقتصرت الإقطاعات على نوعين : أولها أن يكون للمقطع الحق المطلق فى استغلاله ، وثانيها يكون فيها المقطع مقيدا بشروط خاصة يلتزمها أثناء التمتع باقطاعه[٥٩] •

أما الأمراء والمماليك المسنون الذين لا يتحملون تبعات الإقطاع ، فأعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها • ويذكر المقريزى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر « عليها إقطاعات الأمراء والأجناد[٦٠] » • فلما راك الناصر محمد البلاد سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) أبطل هذا النوع من الرواتب التى تحمل صفة الاقطاع « وصارت الاقطاعات كلها أراضى وبلادا »[٦١] • كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة • وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة

---

(٥٧) نفس المصدر والجزء ص ٣٥٠ •

(٥٨) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٩ حاشية ٣ •

(٥٩) Belin : Du Regime des Fiefs, p. 208.

(٦٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٣ — ١١١ (بولاق) •

(٦١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٥٢ ، وخطط المقريزى جـ ٣ ص ٣٥٣ . والمقصود بالروك عملية مسح الأراضى الزراعية لحصرها وتقدير درجة خصوبتها وربط الخراج المناسب عليها ، واعادة اقطاعها •

مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمندوبه المسمى « القاصد »(٦٢) • وفى جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز للمظلوم أن يرفع أمره الى الديـوان السلطانى أو الى السلطان فى دار العدل(٦٣) •

والملحوظ أن النظام الإقطاعى فى مصر على عصر سلاطين المماليك لم يحدث من الآثار مثلما أحدث فى الغرب الأوربى فى عصر النضـج الإقطاعى • ففى الغرب تطور الاقطاع الى نظام التوريث ، ومن ثم وجدت بيوت وأسرات اقترنت أسماؤها بالاقطاع الواحد مئات السنين ، مما ترك أثرا بالغا فى الحياة الاجتماعية الغربية • أما فى مصر فترتب على عدم توريث الاقطاع خلو الحياة الاجتماعية من ذلك الأثـر الخطير •

ولم تكن الاقطاعات المصدر الوحيد لثروة الأمراء وأرزاقهم ، بل رتب السلطان للامراء الرواتب الجارية من اللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت والشمع ، هذا عدا الكسوة السنوية ، مع تفاوت مقادير كل ذلك بحسب المراتب • وإذا ولد لأحد الأمراء ولد خصص السلطان له زيادة فى المال واللحم والخبز ، حتى يكبر عندئذ يدخل ضمن الحلقة ويمنح إقطاعا مستقلا(٦٤) •

وقد تمتع أمراء المماليك بمكانة كبيرة فى المجتمع ، ومنزلة رفيعة عند السلاطين ، كما يبدو ذلك جليا فى العهد الصادر عن السلطان المنصور قلاون الى ولده الأشرف خليل ، وفيه يوصيه برعاية الأمراء « فهم السور الواقى ••• وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك •••

---

(٦٢) Poliak : Feudalism in Egypt & Some Notes : p. 104.

(٦٣) الأسدى : التيسير والاعتبار ص ١٧ •

(٦٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥١ ،
Belin op. cit; p. 205.

فكن لجنودهم متحببا ، ولمصالحهم وآرائهم مستصوبا ، وفى شكرهم مسـهبا »[٦٥] وقد بعث السلطان الظاهر بيبرس — وهو فى أوج مجده وقوته — برسالة من دمشق الى أمرائه بمصر ، فقال لكبار الأمراء « ولدكم » وليقيتهم « أخوكم ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق إليكم ، وإيثاره ألا يفارقكم . وانما قدمنا راحتكم على راحتنا ... »[٦٦] . وكثيرا ما نزل السلطان من قصره ليعود أميرا مريضا[٦٧] ، فإذا دخل عليه أثناء زيارته بعض كبار الأمراء قام لهم[٦٨] . وإذا مات أحد الأمراء مشى السلطان فى جنازته . ولذلك ليس غريبا أن نسمع أن نفـوذ الأمراء طغى أحيانا على نفوذ سلطان المماليك فى الشئون العامة ، فضلا عن الشئون السلطانية الخاصة المتعلقة برغباته وطعامه وأفراحه . ومن الواضح أن نفوذ كبار الأمراء وتحكمهم فى السلاطين ازداد وضوحا فى حالة قيام سلطان صغير السن فى منصب السلطنة ، مثلما حدث للسلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٠٣ وسنة ٧٠٨ من تحـكم الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار ، إذ كان السلطان يطلب بعـض ما اشتهاه من حلوى وأوز فيرد الأمير سلار على حامل الطلب « وايش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الأكل عشرون مرة بالنهار ؟ »[٦٩] .

والمعروف أن الأمراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد من المصريين ، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائى جلبهن التجار[٧٠] . كذلك رسم السلاطين للقضاة والشهود أن لا يعقد

---

(٦٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ .

(٦٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٩ حوادث سنة ٦٧٠ هـ .

(٦٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ (طبعة كاليفورنيا) .

(٦٨) المصدر السابق : جـ ٩ ص ٥٧ .

(٦٩) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٠٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ١٧٥ ، ٢٧٥ .

(٧٠) Muir : The Mamluke or Slave Dynasty; p. 225.

أحد منهم قران مملوك من مماليك السلطان إلا بإذنه[٧١] . ويستثنى من ذلك بعض الحالات — التى تتخذ دليلا على اختلال نظام المماليك — كما حدث فى أيام الظاهر برقوق عندما رخص للمماليك فى سكنى القاهرة والاختلاط بأهلها « فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا الى البطالة ... »[٧٢] . ومن أمثلة البعد الفاصل بين طبقة المماليك وسائر أهالى مصر أن الوظائف الادارية الهامة — سواء بالقاهرة وغيرها من المدن والأقاليم — ظلت وقفا على المماليك[٧٣] . ودأبت الحكومة المالكية على تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع الى كاتب أو عامى ، أى الى أحد من غير المماليك ، « ومن كان عنده مملوك مليبيعه ، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنـده مملوكا فلا يلوم إلا نفسه ! »[٧٤] غير أن هذا التحذير فى ذاته يدل على وجود مماليك عند عامة الناس ، هذا فضلا عن قول المقريزى إن الخوف كان يستولى على قلوب الناس عند إذاعة مثل التحذير السابق فيبيعون مماليكهم ويخفون بعضهم[٧٥] .

وهذا العزلة الاجتماعية التى عاش فيها المماليك جعلتهم يشعرون دائما بأنهم أغراب عن أهل البلاد . مثال ذلك قول السلطان الظاهر بيبرس فى الأمير بدر الدين بيسرى « هذا ابن سلطاننا فى بلادنا »[٧٦] . وهذه زوجة أحد السلاطين تختار لإبنها ابنة أحد الأمراء لأن هذه الزوجة جاءت الى مصر مع زوجة الأمير « فمالت إليهم للجنسية »[٧٧]

---

(٧١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٥١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ص ٢٢٨ حوادث سنة ٨٩٠ هـ .

(٧٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٧٣) Larrivaz : op. cit; p 58.

(٧٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٩٢ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣١٣ .

(٧٥) المقريزى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١٣ .

(٧٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٥ .

(٧٧) بيبرس الدولدار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٢٢ .

ولذا لم يكن عجبا أن بعض المماليك لم يفهم العربية إلا قليلا ، وأنهم تحدثوا فيما بينهم باللغة التركية مع تنوع أجناسهم وأصولهم[٧٨] .
ومن الواضح أن هذه العوامل مجتمعة أدت الى شدة الترابط بين المماليك . وكانت من أشد الروابط بينهم رابطة الاستاذية ورابطة الخشداشية . أما رابطة الاستاذية فهى — كما سبق أن أشرنا — الرابطة التى تربط المملوك بسيده ، أى أستاذه الذى اشتراه رقيقا فى صغره وتعهده بالتربية والرعاية حتى كبر واعتقه . وكانت هذه الرابطة على درجة من القوة جعلت الكثيرين ينصون فى الحجج الخاصة بأوقافهم على تخصيص جزء من ريع الوقف على تربة الواقف ، فإن لم تكن له تربة « صرفت على تربة أستاذه »[٧٩] وكان من المبادىء الراسخة فى قلوب المماليك مبدأ « عدو استاذى عدوى »[٨٠] وأما رابطة الخشداشية — أى الزمالة — فكانت أقوى الروابط فيما بين المماليك جميعا ، بل إن نظام التعاقب الوحيد الذى جرى عرفهم عليه كان قائما عليها[٨١] . ويصور ابن إياس نكد جموع المماليك لأن أحدهم وجد مقتولا بجوار باب الوزير ولم يعرف قاتله[٨٢] .

على أن هذا الشعور بالعصبية الذى ربط المماليك جميعا . لم يتعارض مع العصبية العنصرية التى شعرت بها كل طائفة من المماليك إزاء بقية الطوائف المملوكية . مثال ذلك ما نصت عليه حجة وقف قايتباى — وهو أحد المماليك الجراكسة — على ألا يدخل فى الوقف

---

(٧٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٠٨ .

(٧٩) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية — مجلد ١ ص ٣٩ .

(٨٠) ابن اياس : بدائع الزهور — سنة ٨٧٢ هـ (صفحات لم تنشر) ص ١٩١ — تحقيق محمد مصطفى .

(٨١) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ص ٨١ ، ٨٢ .

(٨٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ حوادث سنة ٩٢٧ .

أو ينتفع به أحد « ما لم يكن والده جركسيا »[٨٣] • هذا الى أن بعض أمراء المماليك نصوا فى الحجج الخاصة بأوقافهم على أن « يصرف ريعها على إخوته وبنى عمه الموجودين بالقاهرة ، أو لمن يأتى إليهم من الأولاد والأقارب المسلمين من بلاد جركس »[٨٤] وثمة دلالة خاصة لهذه العبارة الأخيرة ، إذ تشير الى أن بعض الوافدية اعتنقوا الاسلام قبل مجيئهم الى مصر ، ولذا كان لا يجوز — طبقا لأحكام الشريعة — استرقاقهم ، ومع ذلك فان بنى جنسهم الموجودين قبلهم فى مصر والذين جلبوا رقيقا ونشأوا نشأة مماليكية خالصة ، شعروا نحو هؤلاء الأقارب بشعور خاص أملته العصبية العنصرية •

ومهما يكن الأمر ، فإن العزلة الاجتماعية التى عاش فيها المماليك ، جعلتهم يحتفظون بأخلاقهم وطباعهم على مر السنين ، دون أن يتأثروا بأخلاق أهل البلاد وعوائدهم ، كما ظل المماليك المجلوبون من الخارج موردا مستمرا يحيى فيهم طباعهم الأولى ويذكرهم دائما بأصولهم • وهكذا كان مماليك القرن السابع مشابهين فى أخلاقهم لمماليك القرن العاشر للهجرة • وإذا وجدت وجوه اختلاف بين مسلك المماليك فى القرن السابع ومسلكهم فى القرن العاشر ، فمرجع ذلك اختلال نظامهم الاجتماعى والحربى ، وإهمال الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى • ذلك أن المماليك الأجلاب لم يعودوا يأتون الى مصر صغارا ، بل جاء بعضهم بعد بلوغ سن الرشد ولم يعن بترسيخ تعاليم الاسلام وروحه فى قلوبهم فى تلك المرحلة من العمر ، فأتصف بعضهم بضعف العقيدة • يذكر ابن إياس أنه حدث فى حملة السلطان جقمق الثانية على رودس سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) أن « ارتد فيها طائفة

---

(٨٣) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية — مجلد ١ ص ٣٠ •

(٨٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية — مجلد ١ ص ٣٠ — ٣١ •

الى دين النصرانية من المماليك »(٨٥) . ذلك إن السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقيه ليربيهم « بالآداب والحشمة والحرمة »(٨٦) ، وتركوهم وشأنهم كما سمحوا لهم بالنزول من طباقهم وتهـاونوا معهم فى أخطائهم(٨٧) . هذا الى أن نظام تقسيم الجند وتربيتهم تطرق اليه الخلل ، فبعد أن كان الجند ثلاثة أقسام كل قائم بذاته ، وهى : أجناد الحلقة الذين يكونون فى خدمة السـلطان — ومعظمهم من مماليـك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم — ولكل منهم إقطاع أو يتقاضى نفقة من ديوان الجيش ، والمماليك السلطانية — ولهم جوامك ورواتب مقررة على ديوان السلطان ، ومماليك الأمراء وإقطاعاتهم ورواتبهم من بيوت الأمراء ، تغير ذلك منذ أيام السلطان برقوق . وتفصيل ذلك أن الأمراء صاروا يشترون إقطاعات الحلقة أو يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم ، ثم يقيدون هؤلاء المماليك أيضا فى ديوان السلطان بجامكية ، وبذلك يصبح الواحد منهم جندى حلقة ومملوك سلطان وفى خدمة أمير فى وقت واحد ، أى أنه يستأثر برزق ثلاثة مماليك(٨٨) . كذلك فشى بين المماليك منذ القرن الثامن الهجرى النزول عن الاقطاعات والمقايضة بها (من الباطن) مما أدى الى تدهور نظام الجيش المماليكى وكثرة الدخلاء فى الأجناد . ومن الواضح أن النزول عن الإقطاعات والمقايضات كان من أسباب تدهور الجيش المماليكى ، لما ترتب على ذلك من أن معظم أجناد الحلقة أصبحوا « أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم »(٨٩) .

---

(٨٥) ابن أياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٢٣٨ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٨٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٢٤ حوادث سنة ٧٤١ هـ .

(٨٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٨٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٨٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ (بولاق) . هذا ويروى

وترتب على ذلك كله أن فقد المماليك روح النظام والطاعة ، وهى الروح التى ميزت أسلافهم الأوائل ، وحلت محلها روح التمــرد والعصيان . فإذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد — كما حدث سنة ٨٥٥ هـ[٩٠] — ، بل بلــغ الأمر ببعضهم أن قتل أستاذه من أجل السيطرة على زمام الأمور ، كما فعل يلبغا الخاصكى عندما قتل أستاذه السلطان حسن ســـنة ٧٦٢ هـ[٩١] . وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعا وأحزابا متطاحنة فى عهد سلطان واحد ، كما نسمع عن المماليك الأشرفية والظاهرية والمؤيدية .. على عهد السلطان المؤيد شيخ[٩٢] . وأخذت كل طائفة من هذه الطوائف تتجسس على الأخرى ، فاذا مرض مملوك من غير طائفته — أو انقطع فى بيته — أسرع مملوك آخر لأخذ إقطاعه ، حيا كان أو ميتا[٩٣] . كذلك أكثر المماليك من التعرض لحريم الأهالى وأولادهم[٩٤] ، حتى أمسوا رمزا للسلب والنهب والإجرام ، وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار فى البلاد . وهذا ما صارت إليه طبقة المماليك على أيام المقريزى الذى قال عنهم « ليس فيهم إلا من هو أزنى من

=

المقريزى فى السلوك (حوادث سنة ٧٤٤ هـ) أن الامير الحاج آل ملك نائب السلطنة ابطل (النزول عن الاقطاعات والمقايضات بها ، بعد ان فشى ذلك بين الأجناد حتى أن جنديا قايض آخر باقطاعه ، بمبلغ الفين وخمسمائة درهم اقبضه منها الفين ، فالزمه الامير الحاج آل ملك بحمل الالفين لبيت المال ، فانكف الأجناد عن المقايضات) .

(٩٠) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ١١٣ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٢ .

(٩١) ابن قاضى شهبة : الاعلام جـ ٤ ص ١٨٦ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٤٢ .

(٩٢) Muir : op. cit., p. 149.

(٩٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٩٤) ذيل الاعــلام بتاريخ أهل الاسلام ص ٧٨ .

فرد، وألص من فأرة وأفسد من ذئب »[٩٥] . أما أبو المحاسن فقد قارن بين المماليك فى أول عهدهم ، عندما « كانوا على حظ وافر من الأدب والحشمة ، والتواضع مع الأكابر ، وإظهار الناموس وعدم الازدراء بمن هو دونهم » وبين ما صار إليه أمرهم على أيامه فى أواخر عهدهم عندما غدوا « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف ، جهادهم الإخـراق بالرئيس وغزوهم فى التبن والدريس ! »[٩٦] والمعروف أن أبا المحاسن من أبناء المماليك ، ولم يصدر عنه هذا الوصف اعتباطا .

وبعد ، فإننا نختتم كلامنا عن طبقة المماليك بالإشارة الى أن لفظ « مملوك » كثيراً ما فقد معناه الحرفى فى ذلك العصر ، وأصبح لا يقصد به إلا الدلالة على التواضع والطاعة . من ذلك أن الناصر محمد بن قلاوون — وهو سلطان ابن سلطان لم يمسـه الـرق — نعت نفسه بالمملوك[٩٧] . بل إن الشيخ نور الدين على سبط الشيخ شريف الدين عمر بن الفارض وصف نفسه سنة ٧٣٤ هـ بالمملوك[٩٨] . وكثيرا ما نصادف فى وثائق ذلك العصر وحججه أن رجالا ونساءا من المصريين حرصوا على أن ينعتوا أنفسهم دائما بصفة « المملوك » ، لا سيما فى الأوراق الرسمية المقدمة منهم الى الحكام . وربما كان فى ذلك تسهيلا لهم على قضاء حوائجهم ، فى عصر صارت الطبقـة الممتازة المنعمة ذات النفوذ والسلطان هى طبقة المماليك[٩٩] .

---

(٩٥) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨ .

(٩٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٩ .

(٩٧) محمد مصطفى زيادة : حاشية ٢ — السلوك جـ ٢ ص ٥٢ .

(٩٨) السيوطى : الكنز المدفون ص ١١ — ١٢ .

(٩٩) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية — المجلد الأول ص ٣١ .

المعممـــون :

أما الفئة الثانية فى بناء المجتمع المصرى على عصر سلاطين المماليك فهى فئة المعممين ، من أرباب الوظائف الديوانية والفقهـاء والعلماء والأدباء والكتاب . وتسـميهم بعض المصـادر « أهـل العمامة »[100] ، كما أطلق عليهم أرباب الأقلام تمييزا لهم عن غيرهم من الطوائف ، وبخاصة أرباب السيوف من المماليك .

وقد امتاز المعممون — لا سيما جماعة العلماء — بمميزات معينة طوال عصر المماليك ، رغم ما تعرضوا له أحيانا من امتهان نتيجة لحقد طوائف المماليك . ومن هذه الامتيازات نفوذهم فى الدولة ، واحترام السلاطين وإجلالهم لهم ، ومنها ما عاش فيه هؤلاء المعممون من سعة وبسطة فى الحياة نتيجة لما أغدقته الدولة عليهم من رواتب . وحسبنا دليلا على ذلك كله ما استأثر به المعممون من الوظائف الدينية والسياسية العليا ، مثل مناصب قضاة القضاة الأربعة والحسـبة والوزارة وغيرها . ومنشأ هذه السعة والبسطة فى الحياة أن المماليـك أحسوا دائما بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، وبأنهم فى حاجة الى دعامة يستندون اليها فى حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب . وطبيعى أنهم وجدوا هذه الدعامة فى فئة العلماء بحكم ما للدين ورجاله من قوة وسطوة فى النفوس . وعلى ذلك نستطيع القول أن بعض السبب الذى دفع بيبرس الى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ ، هـو السبب نفسـه الذى أمـلى عـلى من سـبقوه وتبعوه من سلاطين المماليك احترام العلماء وإجلالهم ، « لأن بهم عرفوا دين الاسلام وفى بركتهم يعيشون »[101] . ثم إن المماليك — كما هو معروف — لم يكن لهم نظام ثابت فى وراثة الحكم ، ولكن

---

(١٠٠) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٧٧ ب ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٢٠٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٢٣٧ .

(١٠١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٨٢ .

« عصائبهم يغلبون على الأمر واحد بعد واحـد » كما قال ابن خلدون[١٠٢] . ولذلك وجب على الأمير الذى يطمع فى الحكم أن يستميل هذه القوة — قوة العلماء ورجال الدين — الى جانبه ليكتسب عن طريقها تأييد الرأى العام فى البلاد . وحسبنا أن العينى ذكـر الأسباب التى بررت استحقاق الملك المؤيد للسلطنة ، فكان أولهـا « الفضل والكرم والإحسان الى أهل العلم »[١٠٣] .

أما مظاهر احترام سلاطين المماليك للعلماء فهى كثيرة ومتعددة فى المصادر المعاصرة . فهذا الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس يدخل على السلطان لاجين ، فلا يدعه السلطان يقبل الأرض حسب العادة المتبعة ، ويقول له « أهل العلم منزهون عن هذا » ، ويجلسه بجواره على المقعد[١٠٤] . وهذا السلطان برقوق إذا دخل عليـه عالم أو فقير انتصب له قائما[١٠٥] . بل إن السلطان خشقدم لم ينس — وهو يعانى آلام الموت أن يقوم من فراشه إذا دخل عليه أحـد العلماء[١٠٦] . وبالغ بعض سلاطين المماليك فى إظهار إجلالهم للعلماء حتى أن لاجين نزل عن سرير الملك ليقبل يد الامام محمـد بن على المنفلوطى[١٠٧] . بل إن الأشرف قايتباى مرغ وجهه على قدمى الشيخ عبد القادر الدشطوطى[١٠٨] . ولا عجب لنزول بعض السلاطين من القلعة مرة أو مرتين فى الاسبوع ليزور أحد العلماء أو يعـوده فى

---

(١٠٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٣ .

(١٠٣) العينى : السيف المهند ص ١٩٧ .

(١٠٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ١٠٨ .

(١٠٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٤٢٢ ، ٥٩٩ ، ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ١٤٧ .

(١٠٦) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٥٥٥ .

(١٠٧) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩١ — ٩٤ .

(١٠٨) طبقات الشعرانى جـ ٢ ص ١٩٠ .

مرضه[١٠٩] . فإذا مات ذلك العالم حضر السلطان الصلاة عليه ، ومشى أمام نعشه الى أن يدفن ، وربما حاول السلطان أن يحمل النعش على كتفه فتحمله أكابر الأمراء عنه[١١٠] .

ومن مظاهر احترام العلماء فى عصر المماليك ما أضفته عليهم الرسائل السلطانية ، ومن نماذجها « أعز الله تعالى أحكام المجلس العالى القاضوى الأميرى العالى الأفضلى ... جمال الاسلام والمسلمين ، فخر المدرسين ... »[١١١] كذلك ظهر ذلك الاحترام فى السماح لهم بركوب الخيل واقتنائها ، شأنهم فى ذلك شأن المماليك ، اللهم إلا فى أوقات الحرب عندما تشتد حاجة الدولة الى الخيل[١١٢] ، أو فى أوقات الفتن والاضطرابات[١١٣] .

أما عن مكانة المعممين من العلماء والقضاة وغيرهم فى المجتمع المماليكى عامة ، فلم تقل عن مكانتهم عند السلاطين . ذلك أن الناس أكرموا العلماء وأضفوا عليهم مختلف ألقاب التقدير والتفخيم مثل « فقيه زمانه » ، و« عالم عصره » ، و« انتهت اليه رياسة العلم » ، و« انتهت اليه رياسة المذهب »[١١٤] . وفى زحام الأسواق عند البيع والشراء اعتاد الناس أن يقدموا العالم على أنفسهم[١١٥] . ولعل أقوى

---

(١٠٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٧٨ ، الكتبى : عيون التواريخ جـ ٢ ص ٥ ، الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣١ ص ١ ، ٢ .

(١١٠) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٤٤ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، ابو المحاسن النجوم جـ ٥ ص ٤٣١ .

(١١١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ١٨٣ ، زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ١٠ .

(١١٢) تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ١٥٩ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٧٣ .

(١١٣) ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٢٠٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٢٣٧ .

(١١٤) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique, p. 26.

(١١٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

دليل على إحساس الناس بمكانة العلماء أنهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة(١١٦) .

وهذا الاحترام الذى حظى به العلماء فى عصر المماليك جعلهم يعتدون بأنفسهم ومكانتهم ويصمدون فى وجه الأمراء والسلاطين . من ذلك ما رواه المقريزى من أنه حدث عندما زار السلطان الظاهر بيبرس مدينة الاسكندرية سنة ٦٦١ هـ أن رغب فى زيارة الشـــيخ محمد بن منصور القبارى . ولكن الشيخ لم يسمح للسلطان بالطلـــوع اليه « ولم يكلمه إلا وهو فى البستان والشيخ فى عليته »(١١٧) ومن أمثلة ذلك أيضا أن الشيخ أحمد الذرعى دخل على السلطان الصالح اسماعيل ابن الناصر محمد سنة ٧٤٥ طالبا إبطال عدة مظالم ومكوس فأجابه السلطان الى كل ما طلب(١١٨) . وقام السلطان لاجين من مجلسه ليقبل يد القاضى تقى الدين بن دقيق العيد ، فلم يزد القاضى على قوله « أرجوها لك بين يدى الله ! »(١١٩) والتمس السلطان شعبان من القاضى أبى البقاء السبكى إبطال وقف ، فرفض القاضى وقال للسلطان فى غلظة « اسمع يا مولانا السلطان ! إن كنت ما تعرفنى فأنا أعرفك بنفسى ! » ثم خرج من حضرة السلطان بغير سلام(١٢٠) . وحكى ابن بطوطة أنه سمع بمصر أن السلطان الناصر محمد قال لجلسائه « إنى لا أخاف أحدا إلا شمس الدين الحريرى قاضى قضاة الحنفية »(١٢١) . وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع تدل على المكانة السامية التى حظى بها بعض كبار العلماء فى عصر المماليك مثل عز الدين ابن عبد السلام وابن

---

(١١٦) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٢٩ ، ذيل الاعلام ص ٨٧ .
(١١٧) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٩٩ ، حوادث ٦٦١ هـ .
(١١٨) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ٦٤ .
(١١٩) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٤ .
(١٢٠) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ٢٣٢ أ .
(١٢١) رحلة ابن بطوطة : جـ ٢ ص ٨٨ .

دقيق العيد وابن تيمية ، وغيرهم من تتردد أسماؤهم بكثرة فى المصادر المعاصرة .

على أن المعممين لم يحظوا بهذه المكانة باضطراد طوال العصر المماليكى ، بل تخللت ذلك العصر — وبخاصة منذ النصف الثانى للقرن الثامن الهجرى — حوادث ظهر فيها حقد المماليك على العلماء بسبب قربهم من السلاطين[١٢٢] . وهكذا أخذ المماليك يتعرضون للعلماء بالنقد ويتهكمون عليهم فى مجالسهم ، مما آثار سخط المقريزى[١٢٣] وكأن المماليك لم يعجبهم أن تشاركهم طائفة أخرى فى ركوب الخيل ، فثاروا واشترطوا على السلاطين المناداة فى شوارع القاهرة أن متعمما لا يركب فرسا — كما حدث سنة ٧٨١ ، وسنة ٧٩١ ، وعندئذ يضطر السلاطين الى الإذعان لطلبهم[١٢٤] . وكثيرا ما انسابت جموع المماليك فى شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وانزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها بعد ضربهم ، كما حدث سنة ٨٥٤ ، وسنة ٨٥٨ هـ[١٢٥] . ولكن سرعان ما تعود المياه إلى مجاريها عقب خمود الفتنة واستقرار الأوضاع فيستعيد العلماء مكانتهم ويركبون خيولهم[١٢٦] .

وتشير كثير من الشواهد الى أن العلماء تمتعوا فى عصر المماليك بكثير من السعة وبسطة العيش . من ذلك أن القاضى عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـ) اشتهر بأنه « كثير التأنق فى مأكله وملبسه ومشربه »[١٢٧] ،

---

(١٢٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٢٣ ، وفيها ذكر العينى انه قبض على احد القضاة بسبب بغض اكابر الأمراء له « لقربه من السلطان جدا واستملاكه قلوب الناس بالمواهب والعطايا » .

(١٢٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٨٣ .

(١٢٤) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٥٣٤ .

(١٢٥) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٢٥ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ٧٦ ، جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(١٢٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٧٧ ب .

(١٢٧) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٢٥ ب .

وأن جمال الدين بن عبد الله (ت ٧٤٣ هـ) شغف باقتناء الخيـــول والمسابقة عليها حتى اشتمل اصطبله على كثير من الخيل والنعـام والغزلان[١٢٨] ، فضلا عن دار كلفها الأموال الطائلة[١٢٩] ، وزينهـا بالرخام « فجاءت فى أحسن قالب وأبهج زى »[١٣٠] . كذلك ملأ بعض القضاة دورهم بالجوارى الحسان والخدم والمماليك « مما يعجز كثير من الملوك عن مضاهاته »[١٣١] ويروى أبو المحاسن أن مماليك العالم الزينى وقفوا سنة ٨٥٧ هـ للسلطان فزادوا على الثمانين غير الكتابية الصغار « وذلك شىء لم نعهده لمتعمم »[١٣٢] . هذا عدا ما جمعوه فى بيوتهم من آلاف المجلدات النفيسة والأوانى الثمينة ، التى يصعب تقديرها [١٣٣] .

أما المصدر الرئيسى لهذه الثروة التى تمتع بها المعممون فهى الأوقاف والأحباس التى أوقفت على المؤسسات العلميـة والدينيـة كالمدارس والمساجد والخانقاوات ، أو على الأشخاص أنفســهم فيتوارثون المرتبات إبنا عن أب[١٣٤] . وبالاضافة الى هذه الأوقاف لم تضن الدولة فى منح المعممين ذوى الوظائف مرتبات سخية ، حتى بلغ معلوم القاضى مبلغ خمسين دينـارا وهو مبلغ كبير بالنسـبة لمستويات ذلك العصر . كذلك لم تحرم الدولة طائفـة المعممين من الأرزاق العينية التى اعتادت صرفها المماليك ، فأجرت على ذوى

---

(١٢٨) ابن قاضى شهبة : الاعلام جـ ١ ص ٤٦ ، ابن حجر : رفع الاصر ص ٢٣٣ .

(١٢٩) ابن قاضى شهبة : الاعلام جـ ١ ص ٤٦ .

(١٣٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٢٣ .

(١٣١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٩٤ ، الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٠ ص ١ .

(١٣٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ١٦٧ .

(١٣٣) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ ص ٤٦ .

(١٣٤) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٦٤ .

الأقلام أنصبة شهرية من الغلة ، ويومية من اللحم ، والتوابل والخبز والعليق ، هذا عدا السكر والشمع والزيت ، والكسوة والأضحية فى كل سنة ، مع زيادة تعيين الحلوى والسكر فى شهر رمضان[١٣٥] .
ويبدو أن هذه المرتبات العينية التى صرفتها الدولة للفقهاء « والمتعممين قاطبة » صارت موردا أساسيا يعتمدون عليه فى حياتهم ، حتى أنه عندما قطعت عنهم هذه المرتبات سنة ٨٧٣ هـ « حصل لهم غاية الضرر والبهدلة »[١٣٦] . ولعل هذا الحادث كان مما دفع بعض القضاة والفقهاء الى عدم الاعتماد على ما تجود به عليهم الدولة من مرتبات وأرزاق ، فحاولوا الكسب عن طريق إعطاء بعض أموالهم للتجار حتى يشغلوها لهم فى التجارة سرا ، ولكنهم فى هذه الحالة تعرضوا لنقمة السلاطين إذا اكتشف أمرهم[١٣٧] .

التجـــار :

أما الفئة الثالثة التى أسهمت فى بناء المجتمع فى مصر على عصر سلاطين المماليك فكانت طائفة التجار . ومن المعروف أن مصر قامت بنشاط كبير فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب فى ذلك العصر ، مما أدى الى ثراء التجار وجعلهم طبقة ممتازة الى حد بعيد . وقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة ، وأحسوا أن طبقة التجار دون غيرها هى المصدر الأساسى الذى يمد الدولة بالمال ، لا سيما فى ساعات الحرج والشدة . ولذلك عمد السلاطين الى تقريب التجار منهم ، واصطفوا منهم ندماءا وأصحابا[١٣٨] ، بل أنعموا على بعضهم بإمرة طبلخاناه ، وهذا أمر نادر الحصول لغير المماليك[١٣٩] . وهكذا

---

(١٣٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(١٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(١٣٧) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٠ ص ١٩ .
(١٣٨) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٠ ص ٣٣ ب .
(١٣٩) ابن قاضى شهبة : الاعـــلام بتاريخ أهل الاســـلام جـ ٤ ص ٣٣ ب .

تمتع التجار باحترام كبير ومكانة بارزة فى مختلف المدن والبلاد المصرية على عصر سلاطين المماليك ، فاذا أرادوا مدح شخص قالوا عنه أنه « من بيت تجارة ووجاهة »[١٤٠] ، وفى دمياط أبيح للتجار أن ينوبوا عن قضـــاتها[١٤١] .

كذلك تدل جميع الشواهد على ما تمتع به التجار فى ذلك العصر من يسر ورخاء ، كما يبدو ذلك جليا فى قصص ألف ليلة وليلة[١٤٢] . ويحكى عن بعض التجار أنه بنى دارا فصرف عليها خمسين ألف دينارا وزين قاعاتها وأروقتها بالرخام المثمن ، وزخرفها بمختلف النقـــوش والزخارف[١٤٣] . على أنه يتضح من كلام الشعرانى أن كثرة الثروة فى أيدى التجار جعلت الكثير منهم لايحافظون على آداب الدين ، فيجلسون فى المساجد قبل الصلوات ويتحادثون فى لغو وغفلة . كذلك يدعو الشعرانى الى التواضع فى الحج بلبس الثياب اللائقة ، « لا كما يفعل التجار »[١٤٤] .

ولكن يبدو أن كثرة الثروة فى أيدى التجار جعلتهم دائما مطمع سلاطين المماليك ، فغالوا فى فرض الرســـوم عليهم كما أكثروا من مصادرتهم . ومن هذه الرسوم ما يؤخذ من التجار عند خروج الجند للغزو[١٤٥] ، فإذا لاح خطر مفاجىء ، واحتاج السلطان الى الأموال لإعداد الجيوش فليس أمامه فى هذه الحالة سوى التجار ليقترض

---

(١٤٠) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ١٤ ترجمة محمد بن محمد الفارسكورى .

(١٤١) نفس المصدر والصفحة .

(١٤٢) الف ليلة وليلة ، قصة مريم الزنارية ص ٨٠ — ١١١ .

(١٤٣) ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ٢١٨ .

(١٤٤) الشعرانى : لواقح الانوار فى طبقات السادة الاخيار ، زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٥٥ .

(١٤٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٣٢ .

منهم ما يحتاج إليه بضمان وشهود كما حدث سنة ٧٩٦ هـ[١٤٦] ، أو يصادر نصف أموالهم أو ثلثها كما حدث سنة ٨٠٣ هـ[١٤٧] ، أو أن يفرض عليهم مبلغا معينا يتعاونون فى جمعه ودفعه فى الحال كما حدث سنة ٨٩٢ هـ[١٤٨] . وهكذا بلغ من قسوة هذه المطلوبات الغاشمة أن دعا بعض التجار « على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم »[١٤٩] .

الصـــناع وأرباب الحرف :

ووجدت بالمدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك طائفة كبيرة من العمال والصناع وأصحاب المهن الخاضعة لنظام النقابات السائد بين أفراد كل حرفة . فأهل الحرفة الواحدة يكونون نقابة لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملتهم فيما بينهم بعضهم وبعض ، وفيما بينهم وبين الجمهور ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه فى كل ما يهمهم ، لا سيما فى الوساطة بينهم وبين الحكومة . ولما كان دخول أى فرد جديد فى حرفة من الحرف من شأنه أن ينافس أصحابها الأصليين ، فإنهم كانوا لا يمرنون أحدا على طرق صناعتهم إلا أن يكون من أبنائهم ، ولا يسمحون لأى شخص بمشاركتهم إلا أن يكون أتى ليحل محل أحدهم ، وفى هذه الحالة يقبل بشروط خاصة[١٥٠] . ووصف لين Lane الاحتفال الكبير الذى كان يقام عند قبول عضو جديد فى إحدى النقابات فى القـــرن التاسع عشر الميلادى ، وهو احتفال لابد راجعة أصوله الى ما قبل ذلك[١٥١] . كذلك أفاض برنارد لويس فى الكلام عن النقابات الاسلامية

---

(١٤٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٥ .
(١٤٧) نفس المصدر والجزء ص ٥٢٩ .
(١٤٨) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(١٤٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٤٤ .
(١٥٠) سهير القلماوى : الف ليلة وليلة ص ٢٣٢ .
(١٥١) Lane : An Account of the Manners; p. p. 509 — 510.

ونظمها ، ولكنه لم يخص عصر سلاطين المماليك فى مصر بجزء من بحثه(١٥٢) .

العوام :

واكتظت المدن المصرية كذلك على عصر سلاطين المماليك بجمهور كبير من الباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين . والاصطلاح الذى تستخدمه عادة المصادر المعاصرة للتعبير عن هذه الفئات مجتمعة هو لفظ « العوام » وألحقت بعض المصادر بالعوام طوائف البلاصية(١٥٣) ، والزعر(١٥٤) ، والحرافيش(١٥٥) ، والمشاعلية(١٥٦) . ويبدو من استعمال هذه الألفاظ فى المصادر المعاصرة أنها تعنى أهل الفساد من العوام وهم الذين أطلق عليهم المعاصرون اسم « أوباش العامة »(١٥٧) . فابن بطوطة وصف الحرافيش فى مصر بأنهم « طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة » . كذلك ذكر هذا الرحالة عنهم حكاية يفهم منها أنهم غدوا أحيانا أصحاب سطوة تخشاها السلاطين(١٥٨) . وفى حوادث سنة ٨٥٠ هـ أن شخصا اسمه حسن استقر فى « مشيخة الحرافيش » بعد عزل آخر اسمه

---

(١٥٢) برنارد لويس : النقابات الاسلامية .

(١٥٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ابن دقماق : الجوهر ص ٣٨ .

(١٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٩٣ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٩٣ .

(١٥٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ ، ابن دقماق : الجوهر ص ١١٧ .

(١٥٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٤٤ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١١ .

(١٥٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٧٥ (تحقيق المؤلف).

(١٥٨) رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٨٥ .

أبو بكر ، وذلك ببذل أموال[١٥٩] • أما المشاعلية فهم حملة المشاعل فى المواكب وغيرها ، واعتبرت هذه الفئة فى مصر من الطبقة الوضيعة ، فيشتغلون بالأعمال الحقيرة مثل كنس الطرقات وكسح الأفنية وتنفيذ الإعدام فى المحكوم عليهم • وفى نفس الوقت قاموا ببعض أعمال الشرطة ، كما ظهر فى تمثيلية « عجيب وغريب » وهى إحدى تمثيليات خيال الظل الشهيرة الباقية من ذلك العصر[١٦٠] •

ومهما يكن الأمر ، فإن العوام عاشوا فى العاصمة والمدن فى ضيق وعسر بالقياس الى المماليك وغيرهم من الطبقات المنعمة • ولحظ بعض الرحالة الأجانب — الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك — أن بالقاهرة عددا كبيرا من العوام بلا مأوى فى النهار والليل سوى الطرقات ، يهيمون فيها وأجسادهم شبه عارية ، وتفاوتوا فى تقدير ذلك العدد بين خمسين ألفا ومائة ألف[١٦١] • كذلك دهش برنارد دى بريدنباخ لكثرة عدد الشحاذين بالقاهرة ، وقال أنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الاحسان[١٦٢] • وكان أن دفع الضيق والجوع والعرى هذه الطوائف الى انتهاز الفرص للنهب والسلب وخطف كل ما تصل اليه أياديهم[١٦٣] • على أن العوام أفادوا أحيانا من منازعات أمراء المماليك ، إذ حاول بعض هؤلاء الأمراء أن يكتسب العوام الى جانبه كما حدث سنة ٧٠٧ هـ • وحينما اشتدت المنافسة بين الناصرى ومنطاش سنة ٧٩١ هـ ، تقرب منطاش من العوام وأخذ

---

(١٥٩) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ •

وقال على باشا مبارك (الخطط التوفيقية) ان قرية الحرافشة احدى قرى مديرية جرجا انما سميت بهذا الاسم لذلك •

(١٦٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٩ (بولاق) ،

Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt.

(١٦١) Dopp : Le Caire Vu., Tome 23: p. p. 135 — 141.

(١٦٢) Larrivaz : Les Saintes peregrination de Bernard de Breydenbach p. 51.

(١٦٣) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ ص ٢٢ •

« يترفق لهم ويقول لهم أنا واحد منكم وأنتم إخواننا وأصحابنا »(١٦٤). ولكن العوام لم يقنعوا بأن يكونوا أداة فى خدمة المغدقين عليهم فحسب ، بل حدث أيام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هددوا المحتسب حتى انقطع أياما فى بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفا على نفسه من العوام(١٦٥) وكان إذا مات أحد الولاة الظالمين دفنته الدولة فى مقابر النصارى « خوفا عليه من العامة أن تحرقه لظلمه وتعسفه »(١٦٦) . وفى دمياط قام العوام بثورة سنة ٨٢٠ هـ لظلم واليهم وفسقه ، فحلقوا لحيته وشهروه على جمل والمغانى تزفه ثم قتلوه(١٦٧) . كذلك لم تحتمل العامة ظلم والى المحلة سنة ٨٥٤ هـ فهجموا عليه فى منزله ونهبوه ، ثم أخرجوه وضربوه واستصحبوه الى الجامع وهو عريان حيث مات من الضرب(١٦٨) .

على أن سلاطين المماليك جعلوا للفقراء نصيبا من ثروتهم من باب التقوى والزلفى على عادتهم ، فجعل السلطان الظاهر بيبرس وقف الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم(١٦٩) . كذلك أوقف هذا السلطان وقفا آخر لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين ، كما اعتاد أن يتصدق كل سنة بعشرة آلاف اردب قمح على المساكين(١٧٠) . أما السلطان المؤيد فدأب على إرسال بعض مماليكه للسؤال عن المحتاجين لسد حاجاتهم(١٧١) . وفى أثناء المجاعات اعتاد بعض سلاطين

---

(١٦٤) ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٤٦٤ ،
Poliak : Les Revoltes Populaire ..—

(١٦٥)تاريخ ابن الفرات ص ٤٣٩ (حوادث سنة ٧٩٨ هـ) .

(١٦٦) ابو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١٤٧ .

(١٦٧) ابن حجر : انباء الغمر ، العينى : عقد الجمان (حوادث سنة ٨٢٠ هـ) .

(١٦٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٢٢ .

(١٦٩) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٣٨ .

(١٧٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠٨ .

(١٧١) العينى : السيف المهند ص ١٩٨ .

المماليك — مثل الظاهر بيبرس — أن يكثروا من توزيع الأمــوال في سخاء على المساكين والمعدمين[١٧٢] كما يأمرون بجمع الفقراء وذوى الحاجات وتوزيعهم على الأغنياء والأمراء بحيث يلتزم كل منهم بإطعام عدد معين[١٧٣] . من ذلك ما ورد في حوادث سنتى ٦٦٠ هـ ، ٧٧٠ هـ عندما اشتد الغلاء إذ أمر السلاطين بجمع الحرافيش وعدهم وتفريقهم على الأمراء والتجار — كل واحد على قدره — « ورسم لكل حرفوش فى اليوم رطلين خبــز ، فما رئى أحد يســأل بالديار المصرية من الفقراء »[١٧٤] . وكان أن نودى بالقاهرة ومصر أن « أى حرفوش شحت صلب »[١٧٥] .

أهــل الذمــة :

أما أهل الذمة فكانوا يكونون أقلية ضخمة ذات أهمية فى المجتمع المصرى حتى قدرهم بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك بعشرين ألفا فى القاهرة وحدها ، نصفهم من الأقباط والنصف الآخر من اليهود[١٧٦] . وقد احتفظ الأقباط بنظمهم الخاصة فى الحياة كما احتفظوا بكنائسهم الكثيرة فى القاهرة وسائر بلاد القطر المصرى . وعدد المقريزى أديرة القبط بالوجه القبلى فبــلغ عددها ثمانية وخمسين ديرا يحمل النصارى الى رهبانها النذور والقرابين[١٧٧] . هذا عدا الكنائس العديدة التى إذا أضيفت الى أديرة الصعيد فإنها

---

(١٧٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٧٩٨ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٣٥٦ .

(١٧٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، اغاثة الأمة ص ٣٥ ، ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ١ ص ٣٣ .

(١٧٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١١٧ سنة ٦٦٠ هـ .

(١٧٥) نفس المصدر ص ١٨٥ سنة ٧٧٦ .

(١٧٦) Schefer : op. cit., p. 51.

(١٧٧) المقريزى : أخبار قبط مصر ص ٣٦ — ٥٤ .

تقارب الألف[١٧٨] . كذلك جاء فى تاريخ الفيوم أن عدد الأديرة بالفيوم وحدها بلغ قبيل العصر المماليكى مباشرة ثلاثة عشر ديرا خلاف الكنائس[١٧٩] . واحتفظت الكنيسة القبطية بطقوسها القديمة ، كما اهتم القبط — لا سيما فى الصعيد — بالمحافظة الشديدة على عوائدهم وحرصوا على استخدام اللغة القبطية فى محادثاتهم فيما بينهم وبعض[١٨٠] . ولم يهتم مؤرخو عصر المماليك من المسلمين بشرح تفصيلات النظام الكنسى القبطى ، وأهم ما نخرج به من كتاباتهم هو أن القبط احتفظوا ببطرك يخلع عليه السلطان خلعة البطركية[١٨١] ، ويعامل باحترام فى المكاتبات الرسمية الصادرة من الديوان السلطانى[١٨٢] . كذلك تمتعت بطركية الأقباط فى القاهرة بثروة عظيمة على عصر سلاطين المماليك ، ولم تضن ببعض هذه الثروة على الحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة فى طريقهم الى دير سانت كاترين[١٨٣] .

أما اليهود فقدرهم برنارد بريدنباخ فى القاهرة وحدها على عصر سلاطين المماليك بخمسة عشر ألف يهوديا ، يشتغلون بمختلف الأعمال لاسيما التجارة[١٨٤] . ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها فى ذلك العصر اجتذبت كثيرا من اليهود من القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والأندلس ، فضلا عن البلاد الأوربية مثل فرنسا وايطاليا وغيرهما . كذلك يبدو أن هؤلاء اليهود الذين استقروا فى مصر صارت لهم سيطرة خطيرة على النشاط المصرفى والأعمال المالية[١٨٥] . وقد

---

(١٧٨) غرس الدين خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣٢ .
(١٧٩) النابلسى : تاريخ الفيوم : ٢٢ .
(١٨٠) المقريزى : اخبار قبط مصر ص ٤٣ .
(١٨١) المقريزى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٥٧ .
(١٨٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(١٨٣) Dopp : L'Egypte; p. p. 31 — 33.
(١٨٤) Larrivaz : op. cit; p. 56.
(١٨٥) Clerget : op. cit; Tomel, p. 217 & Schefer : op. cit, p. 51 & Larrivaz, op. cit, p. 56.

احتفظ اليهود فى مصر بمعابدهم ، التى عددها المقريزى ، كما حافظوا على عوائدهم ونظمهم الموروثة[١٨٦] . وتولى زعامتهم رئيس أو حاخام أشرف عليهم بطوائفهم الثلاث — الربانيين والسامريين والقرائيين — وتمتع ذلك الرئيس بنفوذ دينى وقضائى كبير فى مختلف المشاكل التى تنشأ فيما بينهم[١٨٧] .

ومن المعروف أن أهل الذمة فى مصر أصبحوا منذ الفتح العربى أسعد حالا مما كانوا عليه تحت حكم البيزنطيين بسبب ما لقوه من تسامح دينى . واستمرت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة سائدة طوال عصر الطولونيين والاخشيديين حتى وصل الذميون فى العصر الفاطمى الأول الى أرفع مناصب الدولة . أما صلاح الدين الأيوبى فأدخل كثيرا من أقباط مصر فى خدمته ، وكذلك فعل ملوك الأيوبيين من بعده[١٨٨] . ولكن يبدو أن الآية انقلبت فى عصر سلاطين المماليك الى بعض الاضطهادات العنيفة التى تشير اليها مختلف المصادر المعاصرة ، كما تبدو واضحة فى القصص الشعبى الذى يرجع الى ذلك العصر[١٨٩] . ومرجع ذلك عدة أسباب ، منها أن الحروب الصليبية أثارت روح العداء بين المسلمين وغير المسلمين فى مصر والشام ، ومنها رغبة سلاطين المماليك فى مصر فى الظهور بمظهر حماة الدين لدعم مركزهم فى نظر المسلمين[١٩٠] . وربما كان أيضا من أسباب اضطهاد أهل الذمة فى ذلك العصر أن كثيرين من سلاطين المماليك حسدوا أهل الذمة على ثروتهم وطمعوا فى الاستيلاء عليها ، وهم مطمئنون الى أنهم

---

(١٨٦) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٣٤٩ — ٣٦١ .

(١٨٧) Clerget : op. cit; Tomel; p. 217.

(١٨٨) Reinaud : Notice sur la vie de Saladin; p. p. 36—37.

(١٨٩) باول كالة : منارة الاسكندرية فى خيال الظل المصرى ص ٤٠ — ٤١ .

(١٩٠) السخاوى : التبر المسبوك ص ٤٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٤ — ٧٥ .

لن يتعرضوا فى هذه الحالة لنقد أو معارضة من الفقهاء . على أنه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن عصر سلاطين المماليك بمصر امتلأ من أوله الى آخره بالاضطهاد المتواصل ضد أهل الذمة ، لأن هذه الاضطهادات اتخذت فى الواقع شكل زوابع تهب بين حين وآخر وتستمر مدة من الزمن تطول أو تقصر حسب الأحوال . ثم لا تلبث بعد ذلك أن تعود الأوضاع الى الهدوء تدريجيا فيتخلص أهل الذمة من القيــود التى فرضت عليهم قيدا بعد آخر ، سواء فى الملبس والمظهر العام أو غير ذلك ، كما يعودون الى مباشرة الوظائف الكتابية والمالية فى الدولة وعند الأمراء . وربما انصرف بعضهم الى جمع الثروة حتى يصبح من أصــحاب الخــدم والحواشى[١٩١] ، « ويترفهــون فى ملابســهم وهيئتهم »[١٩٢] ، ويركبون البغال والخيل[١٩٣] ، كل ذلك والدولة راضية ما داموا يدفعون الجوالى ، وهى الجزية المفروضة عليهم[١٩٤] ،

---

(١٩١) السخاوى : الضوء اللامع ج ١١ ترجمة علم الدين ابو الفضل القبطى ، ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ص ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩٠ .

(١٩٢) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٣٤ .

(١٩٣) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٨٥ .

(١٩٤) ابو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ . وقال المقريزى ان الجزية صارت تعرف فى أيامه بالجوالى ، وقد قدرت هذه الجوالى سنة ٥٨٧ هـ — اى زمن الأيوبيين — بمائة وثلاثين الف دينار . ولكنها تناقصت كثيرا فى عصر المماليك بسبب تهرب النصارى منها واظهارهم الاسلام . وفى سنة ٨١٦ هـ عمل السلطان المؤيد شيخ على ضــبط الجوالى واستقصاء امر اهــل الذمة ، فبلغت فى أيامه أحد عشر الف واربعمائة دينار . وكانت هــذه الضريبة تجبى من أهل الذمة مقدما فى غرة السنة . وثمة ما يشير الى وجود مكوس أخرى غير الجوالى كانت تجبى من أهل الذمة ، اذ يقول المقريزى فى خططه عند تعداد الضرائب الهلالية : « وما يستأدى من أهل الذمة غير الجوالى » .

(الخطط ج ١ ص ١٠٧ — بولاق) .

ثم لا تلبث أن تأتى موجة اضطهاد أخرى لأى سبب من الأسباب ، كأن يمر أحد أعيان البلاد الاسلامية بمصر فينتقد وضع أهل الذمة وما هم عليه من ترف وتعالى . من ذلك ما حدث سنة ٧٠٠ هـ من مرور وزير المغرب بالقاهرة فى طريقه الى الحجاز ، فتألم لما وجد عليه أهل الذمة فى مصر من نعمة وهناء وحرص أهل الدولة عليهم[١٩٥] . وقد يحدث أيضا أن يستفتى بعض الناس أحد العلماء فى استخدام السلاطين والأمراء لأهل الذمة وتوليتهم مناصب الدولة[١٩٦] ، أو فى السماح لهم بلبس الأبيض من الثياب ، وعندئذ تتبدل الحال وتبدأ موجة اضطهاد عنيفة يعانى فيها أهل الذمة كثيرا من ضروب الخسارة والغرامات .

أما ألوان ذلك الاضطهاد الذى كان يتعرض له أحيانا أهل الذمة فى مصر على عصر سلاطين المماليك فهى كثيرة ومتنوعة ، منها طردهم من مباشرة الدواوين وحرمانهم من مباشرة الأمراء[١٩٧] ، ومنها هدم بعض كنائسهم وأديرتهم وحل الأوقاف المحبوسة عليها أو تحويل بعضها الى جوامع[١٩٨] ، ومنها التضييق عليهم فى بعض مظاهر الحياة كالزامهم بتصغير عمائمهم دون العشرة أو السبعة أذرع مع تلوينها باللون الأزرق للنصارى والأصفر لليهود[١٩٩] ، ومنعهم

---

(١٩٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٠٩ ، ابن النقاش : المذمة ص ٩٧ ، المقريزى : أخبار قبط مصر ص ٣١ .

(١٩٦) ابن النقاش : المذمة فى استخدام اهل الذمة ص ٧٩ وما بعدها .

(١٩٧) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣ ، ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ١٢٨ أ

(١٩٨) أبو العباس الدمشقى : أخبار الدول وآثار الأول ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٦٩ .

(١٩٩) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٥ ص ٢٥٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٢١٦ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٠٣ .

من ركوب الخيل والسماح لهم بركوب الحمير على أن تكون قيمة الحمار دون المائة درهم ، فاذا مر أحدهم بمسلم جالس نزل عن حماره « وأظهروا المسكنة »[٢٠٠] . ومنها عدم السماح لأحدهم بدخول الحمامات العامة الا بصليب أو جلاجل فى رقبته ، بحيث لا تدخل نساؤهم مع نساء المسلمين حماما واحدا[٢٠١] . هذا كله عدا ارهاقهم — فى فترات الاضطهاد هذه — بالمغارم والضرائب وما تفرضه عليهم الدولة من آلاف الدنانير يؤدونها « مصالحة »[٢٠٢] . وفى تلك الأوقات ينتهز الغوغاء « والنهابة » الفرصة لمهاجمة دور أهل الذمة ونهبها ، كما يتسلطون عليهم فى الطرقات فيضربونهم بالنعال ويمزقون ثيابهم حتى يضطر كثير من أهل الذمة الى الاختفاء حتى تهدأ الحال[٢٠٣] . ثم ان هذه الأعمال التعسفية لم تقتصر على القاهرة وحدها ، بل امتدت أيضا الى الصعيد والوجه البحرى[٢٠٤] . من ذلك أنه حدث مرة سنة ٧٠٨ هـ أن شخصا صاح فجأة فى أحد مساجد قوص « يا أصحابنا الصلاة فى هدم الكنائس » ! فلم يأت ظهر اليوم نفسه حتى هدمت ثلاث عشرة كنيسة[٢٠٥] !

كذلك يلاحظ أن هذه الموجات المتباعدة من الاضطهاد لم تنزل بفئة دون أخرى من فئتى أهل الذمة . فحوادث هدم معابد اليهود كثيرة

---

(٢٠٠) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠٣ ، زيترشتين : تاريخ المماليك ص ٨٤ .

(٢٠١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٧٠ ، ابن قاضى شهبة : الاعلام ج ٢ ص ٨٦ .

(٢٠٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٣١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ق ٣ ص ٤١٣ .

(٢٠٣) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٥٩ ، ١٠٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٤٩ .

(٢٠٤) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٥٨ .

(٢٠٥) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٧٢ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٢١ هـ .

ومتواترة فى مصادر العصر المماليكى[٢٠٦] . ولكن جرت العادة أن يشتد نيار الاضطهاد ضد طائفة ويهدأ عن الأخرى ، فاذا اشتدت الأزمة ضد النصارى وسكن الموقف بالنسبة اليهود ، فان النصرانى فى هذه الحالة اذا أراد الخروج من داره يستعير عمامة صفراء من أحد جيرانه ويلبسها فى الطريق حتى يسلم من أذى العامة[٢٠٧] .

على أنه يبدو أن أهل الذمة لم يستسلموا على الدوام لتلك الكوارث التى أخذت تترى عليهم بين حين وآخر فى عصر المماليك ، بل كثيرا ما لجأوا الى بعض الأعمال الاستفزازية والانتقامية مثل احراق بعض أحياء القاهرة أو بعض مساجدها كما حدث سنة ٦٦٣ هـ[٢٠٨] ، وسنة ٧٢٠ هـ[٢٠٩] ، وسنة ٧٢١[٢١٠] ، وسنة ٧٥١ هـ[٢١١] . وكان بعض هذه الحرائق « يحدث فيها من الشنائع أضعاف ما كان يحدث منهدم الكنائس »[٢١٢] وفى معظم هذه الحرائق ألقى القبض على رهبان من النصارى ومعهم خرق مستديرة على هيئة الكعكة فى داخلها قطران ونفط ، واعترف بعضهم أنه اتفق

---

(٢٠٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٣٧ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٢٠٧) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر ص ٢٠٦ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٢١ هـ .

(٢٠٨) مفضل بن أبى الفضائل : المنهج السديد ص ٤٧٦ — ٤٧٧ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٣٣ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٣٥ .

(٢٠٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٦٣ — ٦٥ ، ابن كثير : البداية جـ ٤ ص ٢٤٩ .

(٢١٠) ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢١١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٤٩ .

(٢١٢) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٨٦ .

مع زملائه على إحداث الحريق ، وأنهم قسموا القاهرة ومصر الى مناطق بحيث يتولى كل منهم اشعال النار فى منطقة معينة منها[٢١٣] .

فاذا فشل أهل الذمة فى تحقيق أغراضهم عن طريق العنف ، حاولوا دفع البلاء عنهم بمختلف الوسائل السلمية . ومن هذه الوسائل بذل الأموال الطائلة لأهل الدولة[٢١٤] ، ومنها أيضا اظهار الاسلام حتى يستردوا مركزهم الأدبى فى المجتمع ويستريحوا عن ذلك العناء المضنى . وفى ذلك يقول المقريزى « والجأت الضرورة بعضهم الى إظهار الاسلام أنفة من لباس الأزرق وركوب الحمير »[٢١٥] . ثم ان كثيرا من أهل الذمة الملحقين بخدمة الدواوين أظهروا الاسلام رهبة وخوفا ، عندما يأمر السلطان بعرض الاسلام على الكتاب « فمن امتنع عن الاسلام ضربت عنقه »[٢١٦] فاذا اعتنق أحدهم الاسلام لبس الأبيض من الثياب ، وزاد فى عمامته كيفما شاء ، وربما خلع عليه وتولى المناصب الرفيعة فى الدولة[٢١٧] . وحدث مثل ذلك لغير الملحقين بخدمة الدواوين نزولا على تقوى أحد الأمراء . حتى يقال أنه أسلم فى مدينة قليوب فى يوم واحد أربعة وخمسين نصرانيا[٢١٨] . وفى قصص ألف ليلة وليلة ما يدل على أن النصارى الذين اعتنقوا الاسلام لم يفعلوا ذلك الا للاستمتاع ببعض

---

(٢١٣) المقريزى : اخبار قبط مصر ص ٥٤ — ٥٥ ، ذكر دخول قبط مصر ص ١٩٢ .

(٢١٤) ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ١ ص ١٥٢ ، ابن اياس صفحات لم تنشر ص ٣٣ سنة ٨٦٨ هـ ، ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ص ١٢٨ أ .

(٢١٥) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٤٨ .

(٢١٦) المقريزى : أخبار قبط مصر ص ٣٠ .

(٢١٧) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٩٠ .

(٢١٨) المقريزى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٥٨ .

المباحات[٢١٩] . ولعل هذا الشعور هو الذى دفع كثيرا من المسلمين المعاصرين الى عدم الاطمئنان اليهم ، حتى بعد اشهارهم الاسلام ، فحاولوا تأليب السلاطين عليهم كما سخروا منهم فى شعرهم ونثرهم[٢٢٠] . ولكن هذا لا ينفى أن هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام جماعة « حسن اسلامهم » — على قول ابن بطوطة — وحفظوا شعائر دينهم الجديد[٢٢١] .

ومهما يكن الأمر ، فاننا نحب أن نؤكد — مرة أخرى — أن أهل الذمة لم يتعرضوا للهوان الا فى أوقات الشدة والاضطرابات والفتن ، وفيما عدا ذلك تشهد كثير من الكتابات المعاصرة على أنهم تمتعوا فى عصر المماليك بكل ما تمتع به اخوانهم المسلمون من حقوق وامتيازات . ويصف ابن الأخوة المتوفى سنة ٧٢٩ ه حال أهل الذمة فى زمانه ، فيقول ان دورهم صارت تعلو على دور المسلمين ومساجدهم ، وصاروا يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ويكنون بكناهم ، فمن نعوتهم الرشيد وأبو الحسن وأبو الفضل ، كما « ركبوا مركوب المسلمين ولبسوا أحسن ملبوسهم .. » ولم يحرم أهل الذمة فى ذلك العصر من عطف سلاطين المماليك ، بل ان المكانة الرفيعة التى وصلوا اليها « عضدتها يد سلطانية »[٢٢٢] . وهناك فى الحجج الشرعية والوثائق المعاصرة ما يوضح ألوان العطف الذى شمل به سلاطين المماليك أهل الذمة ، اذ ورد فيها أن بعض السلاطين وقف ثلاثة وأربعين شجرة زيتون على خدام احدى الكنائس ، ورصد لخدام طور سيناء احدى وثلاثين شجرة أخرى ، وللراهبات المقيمات بدير الشوبك أنشاب بستان «من أموال

---

(٢١٩) سهير القلماوى : الف ليلة وليلة ص ٢٣٩ .

(٢٢٠) النويرى : الالمام بالاعلام ج ١ ص ٩٣ ب .

(٢٢١) رحلة ابن بطوطة : ج ٢ ص ٨٥ .

(٢٢٢) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٤٢ — ٤٣ .

بيت المال المعمور »[٢٢٣] .وبعبارة أخرى فان الاضطهادات التى تقدمت الاشارة اليها ليس معناها أن الصلات الطيبة بين أهل الذمة واخوانهم المسلمين انقطعت تماما فى عصر سلاطين المماليك . ففى سنة ٦٥٩ هـ خرج النصارى يحملون الانجيل ، واليهود يحملون التوراة الى جانب اخوانهم المسلمين لاستقبال الخليفة العباسى[٢٢٤] . واطمأن المسلمون — رجالا ونساءا — حتى مشايخ الصوفية ، الى أطباء اليهود والنصارى وتركوهم يتولون علاجهم[٢٢٥] وحاول بعض سلاطين المماليك منع ذلك دون جدوى[٢٢٦] . هذا الى أن كثيرا من المسلمين فضلوا تعليم أبنائهم فى كتاتيب النصارى حتى يجيدوا الحساب[٢٢٧] . وقد أدى كل ذلك الى كثير من التقارب بين عناصر الأمة فلاذت المسلمات بأماكن البركة اليهودية والمسيحية ، كما اعتقد اليهود والنصارى فى قدرة أولياء المسلمين وتوسلوا بهم[٢٢٨] .

الفلاحـــون :

أما الفلاحون — وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ، فيبدو أن نصيبهم فى المجتمع المماليكى لم يكن سوى الاحتقار والاهمال . ومما قاله ابن خلدون عن الفلاحة وأهلها « انها معاش المستضعفين ويختص

---

(٢٢٣) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية مجلد ١ ص ٣٧ ، ٣٧ أ .

(٢٢٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٠٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٨ .

(٢٢٥) الشعرانى : ذيل لواقح الانوار ص ٣٦٩ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٨٠ .

(٢٢٦) السخاوى : التبر المسبوك سنة ٨٥٢ هـ .

(٢٢٧) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٣٣١ .

(٢٢٨) المصدر السابق : ص ٦٨ ، كلوت بك : لمحة عامة جـ ٢ ص ١٠٣ .

أهلها بخذلة »[٢٢٩] . وهذا الحكم الذى أصدره ابن خلدون على الفلاحين يعبر عن نظرة معاصريه اليهم . فالفلاح فى جميع المؤلفات المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر . بل ان بعض المؤلفين المعاصرين كتب القصص الطويلة ليثبت أن الصفات السابقة متأصلة فى الفلاح وليحاول أن يلصق به كل نقص ورذيلة[٢٣٠] . وهناك أمثلة كثيرة يمكن للباحث أن يستخرجها من بطون المؤلفات المعاصرة ليستشهد بها على موقف المماليك من الفلاح المصرى ونظرتهم اليه . فاذا صادف وارتقى رجل أصله من الارياف الى بعض وظائف الدولة الكبيرة ، غضب المماليك وصاحوا « ما كان فى مماليك السلطان من يعتمد عليه الا هذا الفلاح!! »[٢٣١] . واذا تجرأ أحد العوام على بعض المماليك صاحوا فيه « اخرص يا فلاح يا كلب ! »[٢٣٢] . واذا ولى أحد أمراء المماليك المتشددين على بعض الأقاليم ، فانه لا يسمح لأحد الفلاحين أن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا أو يتقلد سيفا ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد[٢٣٣] . ويبدو أن هذه المعاملة أثرت فى نفوس أهل الريف ، حتى أصيبوا بمركب الشعور بالنقص . ومن ذلك أن أحد علماء الأزهر فى القرن العاشر الهجرى تزوج قاهرية فلما قدمت أمه من الريف لزيارته تنكر لها لئلا تعرف زوجته أن أمه فلاحة ، وهددها بالضرب ان علم أحد أنها أمه[٢٣٤] .

وهكذا عاش الفلاح فى عصر سلاطين المماليك مربوطا الى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها الا القليل ،

---

(٢٢٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٤١ .

(٢٣٠) الشربينى : هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف ص ٢ وما بعدها .

(٢٣١) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ٥٤ .

(٢٣٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٦ ص ٥٠ .

(٢٣٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٤٦ .

(٢٣٤) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦١ .

لأن أراضى مصر الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلاطين والأمــراء ومماليكهم وأوقافهم • وفى بعض أقاليم الشرقية والبحيرة والمنيا تمتع العربان بنصيب فى ملكية الأرض ، أما الفلاحون فلم يكن لهم سوى العمل والسخرة ودفع الأموال وهم صاغرون(٢٣٥) • لذلك لم يكن عجبا ألا يجد الفلاح ما يستر به عورته ، وأنه فى أفخر مأكوله لا يأكل الا الشعير والجبن القريش والبصل(٢٣٦) • وقد أدرك المقريزى ريف مصر وأهله يشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق • ولا عجب فأن « الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم فخرب معظم القرى لموت أكثـــر الفلاحين وتشردهم فى البلاد »(٢٣٧) •

ومما زاد حال الفلاحين سوءا : كثرة المغارم والمظالم التى حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم « غير العادة أضعافا »(٢٣٨) • كذلك فرض الولاة على أهل القرية الواحدة نظام المسئولية المشتركة فيما يستحق عليهم من أموال ، حتى فى حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين ، اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا(٢٣٩) • وعند وصول المشد الى القرية توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب وما تحتاج اليه دوابه من عليق •• ويلتزم الفلاح بكل ذلك قهرا مهما بلغ فقره • وربما هرب الفلاح لضيق يده فتلتزم زوجته وأولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لشراء ما يلزم المشـــد من دجاج ولحم(٢٤٠) • وقد حدث سنة ٨١٦ هـ أن قام الأمير فخر الدين

---

(٢٣٥) ابن الجيعان : التحفة السنية •

(٢٣٦) الشربينى : هز القحوف ص ٥٩ • •

(٢٣٧) المقريزى : اغاثة الامة ص ٣٦ ، ٤٦ •

(٢٣٨) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ، ص ٣٠٢ •

(٢٣٩) Poliak : Some Notes.

(٢٤٠) الشربينى : هز القحوف ص ١١٠ — ١١١ •

ابن أبى الفرج « بجولة » على قرى الصعيد ، فنهب البلاد التى مر بها واستولى على ما فيها من غلال ، كما سلب النساء حليهن وكسوتهن . وبعد أن انتهت جولته عاد الى القاهرة ومعه الخيل والجمال والابقار والأغنام التى لا يحصى عددها ، هذا عدا الذهب والحلى والأماء والعبيد . وهكذا خرب الصعيد على يد أمير واحد[٢٤١] .

ولم يسلم الفلاحون من أذى العربان وبطشهم . فكثيرا ما أغار العربان على القرى وفعلوا بالفلاحين « ما لا تفعله الخوارج ولا الكفرة »[٢٤٢] . وقد تكررت هذه الاغارات بين حين وآخر[٢٤٣] حتى أصبحت « من سنن العربان الجارية »[٢٤٤] . وحاول بعض السلاطين حماية الفلاحين من أذى العربان ، فولوا بعض مشايخ العربان على القرى وبلاد الأرياف المجاورة لهم ، ولكن الفلاحين أصبحوا بذلك كالفيران تحت وصاية القط لأن العربان انتهزوا الفرصة لينزلوا بالفلاحين مختلف أنواع العذاب باسم القانون[٢٤٥] . وخلاصة القول أن الفلاحين فى عصر المماليك عاشوا « فى حال من المغارم معروفة » على قول المقريزى[٢٤٦] .

ولم يخفف عن الفلاحين سوى أن يصادف مرور السلطان ببعض القرى للنزهة والصيد ، فيتقدم اليه الفلاحون بالشكوى من عسف الولاة والحكام المباشرين[٢٤٧] ، أو من أذى العربان[٢٤٨] . وفى هذه

---

(٢٤١) ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٥٥ .

(٢٤٢) ابو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ٦٥٤ .

(٢٤٣) نفس المصدر .

(٢٤٤) النابلسى : تاريخ الفيوم ص ١٣ .

(٢٤٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٠ ، ٣٠٢ .

(٢٤٦) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٤٦٩ .

(٢٤٧) تاريخ ابن الفرات ص ٣٣٥ سنة ٧٩٤ هـ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٧٠٣ .

(٢٤٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٤٢١ .

الحالة يعزل السلطان الوالى أو المباشر ويعين بداله ، وان كان هذا الوالى لا يلبث أن يستأنف سياسة الظلم والبطش بالفلاحين[٢٤٩] . ولعل هذه المظالم هى التى دفعت كثيرين من أهالى القـــرى الى ترك قراهم والهجرة الى المدن ، الأمر الذى حدا بحكومة السلطان الى المناداة بين حين وآخر بخروج أهل الريف من القاهرة وعودتهم الى بلادهم ، ولكن لم يعمل بمثل هذه الأوامر[٢٥٠] .

والقرية المصرية عندئذ هى القرية نفسها التى وصفها بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر سنة ١٥١٢ م ، من حيث مظهرها العام وبيوتها المصنوعة من الطوب النيىء تعلوها الأحطاب ، وأطفالها انحفاة يجرون هنا وهناك وقد كسا الذباب وجوههم[٢٥١] . أما حياة الفلاح اليومية بين منزله وحقله فظلت تسير على وتيرة واحدة على مر العصور[٢٥٢] .

الأعـــراب :

أما الأعراب فقد أحصى كل من المقريزى والقلقشندى قبائلهم ، كما ذكرا أصولها ومكان كل منها ، مما يدل على أن الأعراب بمصر بلغوا عددا عظيما فى العصر المماليكى وأنهم انتشروا فى مختلف أنحاء البلاد بالوجه البحرى والوجه القبلى[٢٥٣] . وقد أنف الأعـراب من الخضوع لدولة المماليك بمصر ، ووصفوا السلطان أيبك بأنه « مملوك قد مسه الرق »[٢٥٤] ، وقالوا عن المماليك بوجه عام « انما هم عبيد

---

(٢٤٩) تاريخ ابن الفرات جـ ١١ ص ٣٩ .

(٢٥٠) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٧٧ .

(٢٥١) Schefer : Voyage Magnifique ... p. 179.

(٢٥٢) Lane — Pocle : Social Life in Egypt, p. p. 54 — 70

(٢٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٦٣ ، جـ ٤ ص ٦٧ ، جـ ٧ ص ١٦٠ ، المقريزى : البيان والاعراب .

(٢٥٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٦ .

خوارج » . ثم بلغ الأمر بالعربان أنهم اجتمعوا وأقاموا أحدهم حاكما وقالوا : « نحن أصحاب البلاد ونحن أحق بالملك من المماليك ، وكفى أننا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد »[٢٥٥] . ولكن المماليك قاتلوهم وهزموهم ، ومن ثم بدأ الصدام بين المماليك وطوائف العربان الذى استمر فى صورة متقطعة حتى نهاية العصر المماليكى . ولذا ظل العربان طوال ذلك العصر عنوانا للاخلال بالأمن والاضرار بالنظام والاعتداء على الأهالى الآمنين . ولم يسلم الحجاج فى طريق ذهابهم وايابهم من اعتداء العربان عليهم بالنهب والقتل[٢٥٦] . كذلك اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة الفيضان — عندما تكسو مياه النيل أراضى الحياض — فيصبحون فى مأمن من وصول قوات من العاصمة لردعهم ، وعندئذ يغيرون على القرى فيذبحون الفلاحين ذبح المواشى ، ويستولون على كل ما تصل اليه أيديهم من غلات وحيوانات[٢٥٧] . ولم تسلم المدن الكبرى مثل أسيوط والاسكندرية من عبثهم ، ففى حوادث سنة ٨٠١ هـ ورد أن طائفة من العربان أغارت على الاسكندرية وفرضوا على تجارها وأرباب المعايش فيها أموالا معينة شبهها بعض المعاصرين بالجالية التى تجبيها الحكومة من أهل الذمة[٢٥٨] . بل ان عاصمة البلاد ومركز الحكم بها لم تنج من شرهم ، فكثيرا ما أغار العربان على أطراف القاهرة وخطفوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، حتى عمائم الناس وأثوابهم[٢٥٩] . وذكر بيلوتى أن الاسكندرية ظلت مدة تحت رحمة العربان لأنهم سيطروا

---

(٢٥٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٨٦ .

(٢٥٦) نفس المصدر جـ ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ .

(٢٥٧) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٦٩ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٧٠١ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٣ ، جـ ٤ ص ١٦٢ .

(٢٥٨) ابو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ١٤٩ ، العينى : عقد الجمان حوادث ٨٠١ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٢٠ .

(٢٥٩) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٤ .

على الطريق الذى يربطها بالعاصمة[٢٦٠] . كذلك ذكر غيره من الرحالة الغربيين أن السبب فى الحراسة الشديدة المفروضة على المدن المصرية ليلا هو الخوف من اعتداء العربان الذين ينتهزون الفرص دائما للاغارة على المدن وسلب متاجرها وبيوتها[٢٦١] ومن الغريب أن هذه الاعتداءات لم تنقطع فى ساعات الحرج والخطر الخارجى . من ذلك ما حدث عند اغارة جيوش ملك قبرص على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، اذ كان القبارصة ينهبون المدينة ويذهبون الى سفنهم فيدخل الأعراب المدينة فى ظلام الليل ويستمرون فى النهب والسلب حتى طلوع الفجر ، وبذلك « استغنى من العرب من كان فقيرا »[٢٦٢] . وذكر فابر Faber الذى زار مصر سنة ١٤٨٣ م أن الأدلاء الأعراب الذين رافقوه من سيناء الى القاهرة أوصلوه حتى المطرية فقط وقالوا له أنهم لا يستطيعون دخول العاصمة لأنهم لو فعلوا ذلك فان جمالهم وأموالهم ستصادر ويلقى بهم فى السجون[٢٦٣] . أما ما فعله سلاطين المماليك لدفع شر الأعراب وحماية الأمن والطرق من عبثهم ، فانهم قربوا اليهم مشايخ العربان وأجزلوا لهم العطاء حينا ، وأرسلوا التجاريد والحملات لردعهم أحيانا[٢٦٤] . ومع ذلك فان العربان ظلوا لا يهدأ لهم بال طوال عصر سلاطين المماليك . وعندما ضعف شأن تلك الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد ، أخذ العربان يرددون « ان مصر ما بقى بها من الجند الا قليلا » . وزاد طمعهم فى « حق الترك » . لذلك أخذ المماليك فى ذلك الدور يستعرضون

---

(٢٦٠) Dopp : L,Egypte su... p. p. 19 — 20.

(٢٦١) Laurent d'Arvieux : Memoires; p. 118.

(٢٦٢) النويرى : الالمم بالاعلام جـ ١ ص ١٣٢ أ ، ب .

(٢٦٣) Schefer : Le Voyage d'Outremer. p. XXX.

(٢٦٤) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٧٧١ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٤٣ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٣٨١ .

قواهم لارهاب الأعراب[٢٦٥] .

وعن حياة الأعراب الخاصة ، يبدو من كتابات المعاصرين أن كثيرين من مشايخهم وصلوا فى عصر سلاطين المماليك الى درجة عظيمة من الثروة والغنى[٢٦٦] . وقد استتبع تلك الثروة وذلك الغنى اقتناء الجوارى والأتباع والاكثار من شراء الخيول ، حتى أن السلطان الظاهر بيبرس عندما دهم أحد مشايخ العربان سنة ٧١٣ هـ وجد عنده أربعمائة جارية غير العبيد والبهائم[٢٦٧] . كذلك تمسك العربان بفكرة تعدد الزوجات والاكثار من الأبناء حتى بلغ أبناء أحد مشايخهم ثمانين ولـــدا[٢٦٨] . ويفهم من المصادر المعاصرة أن الأعرابى فى عصر المماليك احتفظ بحق الزواج بمن يشاء من بنات الفلاحين ، واذا منع فـــلاح ابنته عمن يطلبها من الأعراب فمصيره القتل[٢٦٩] . وعلى العكس لم يسمح اعرابى لفلاح بالزواج بابنته[٢٧٠] .

الأقليـــات الأجنبيـــة :

وبالاضافة الى سكان مصر من الطوائف السابقة ، وجدت فيهـــا فى عصر سلاطين المماليك مجموعة كبيرة من الأقليات الأجنبية ، حتى قال البلوى المغربى الذى زار مصر سنة ٧٣٧ هـ أنه رأى بها أناســـا كثيرين من مختلف الأجناس[٢٧١] . وقد قدر بعض الكتـــاب عدد الأجانب فى الاسكندرية وحدها فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى

---

(٢٦٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٢٥٣ سنة ٨٩٣ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٢٦٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٧ ص ١٦٠ .

(٢٦٧) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٥٦ .

(٢٦٨) ابو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٣٦ .

(٢٦٩) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٨ ص ٩ .

(٢٧٠) Lane : Manners and Customs; 195.

(٢٧١) رحلة البلوى المغربى ص ٥٤ أ .

بثلاثة آلاف تاجر مسيحى[٢٧٢] ومن هؤلاء الأجانب المسيحيون الغربيون أو اللاتين ، والمسيحيون الشرقيون أو الروم ، فضلا عن المسيحيين الوافدين من جورجيا والحبشة وأرمينية وغيرها من البلاد[٢٧٣] . واختار الأوربيون الاقامة بصفة خاصة فى المدن التجارية والثغور على شاطىء البحر المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط[٢٧٤] . وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية « واذا حدث من طائفة أحدهم ما يشين فى الاسلام يطلب منه »[٢٧٥] . كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها . وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ م أمير فرنسى فحكى الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والكيتلان والقبارصة وأهل نابلى وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم[٢٧٦] . ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها ادارة مستقلة على رأسها مدير يدير شئون الفندق . فعند وصول تاجر أجنبى الى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ويطلب منه دفع ٢٪ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية[٢٧٧] . وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع باخوانه ومواطنيه ، ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذى تعوده فى بلاده . ذلك أن الفندق اشتمل على جميع ما احتاجه التاجر الأجنبى من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام[٢٧٨] ..

وتمتع هؤلاء التجار داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، اذ سمحت لهم السلطات المماليكية باحضار الخمور فى سفنهم وانزالها

---

(٢٧٢) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Egypte ; p. 17.

(٢٧٣) Dopp : Le Caire Vu... Tome 23; p. 133.

(٢٧٤) Schefer : Le Voyage d'Outremer p. 122.

(٢٧٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

(٢٧٦) Schefer : Le Voyage... p. IX.

(٢٧٧) Ibid.

(٢٧٨) Kammerer : op. cit; p. 20.

الى فنادقهم[٢٧٩] . ويبدو أن الأجانب اعتادوا احضار هذه الخمور بكميات ضخمة ، حتى أنه عندما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ٧٤٤ هـ من احضار الخمور الى الاسكندرية ، عارضه النائب وقال أنه يتحصل من ذلك فى السنة نحو الأربعين ألف دينار[٢٨٠] . ومع ذلك اشترط على الأجانب بعض التعليمات والقيود وشدد عليهم فى تنفيذها ، منها اغلاق أبواب فنادقهم مساء كل يوم ووقت صلاة الجمعة[٢٨١] . كذلك لم يسمح للاجانب داخل البلاد بارتداء ما يختارون من الملابس أو بركوب الخيل ، وانما فرض عليهم ركوب الحمير — شأن أهل الذمة من المواطنين — يستثنى من ذلك القناصل وكبار الأمراء الزائرين الذين سمح لهم بركوب الخيل[٢٨٢] . واعتبر السلاطين أولئك الأجانب رهينة لدى الدولة ، فاذا أصاب المسلمين أذى أو اعتداء من جانب البلاد المسيحية ، يكون الاقتصاص فى هذه الحالة من الفرنج الموجودين بمصر[٢٨٣] . كذلك عندما يحيط بالبلاد خطر الغزو كانت تفرض الحيطة الشديدة على الأجانب وتعلو الدعوة الى قتلهم أو طردهم[٢٨٤] . وكثيرا ما شهدت الاسكندرية بوجه خاص احتكاكات بين المواطنين والأجانب أدت الى قيام فتن كبيرة ذهبت ضحيتها أرواح كثيرة ، كما حدث سنة ٧٢٧ هـ وسنة ٨٢٢ هـ[٢٨٥] . على أن السلاطين

---

(٢٧٩) Reinaud : Traitès de Commerce; p. 40.

(٢٨٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٩٤ .

(٢٨١) Laurent d'Arvieux : Memoires; p. 204.

(٢٨٢) Ibid.

(٢٨٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٦٥ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٦١ . تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٣٣ .

(٢٨٤) ابو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٧٣ .

(٢٨٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٣٢٩ .

عملوا في بعض هذه الأحوال على حماية الأجانب والزود عنهم واظهار العطف عليهم[٢٨٦] .

هذا ، ولم يكن جميع الأجانب الذين أقاموا بمصر في ذلك العصر من التجار بل شهدت المدن المصرية الكبيرة جاليات من عناصر مختلفة أستوطنوا البلاد واشتغل كثير منهم بأعمال متنوعة أهمها عصر الخمور . من ذلك ما يرويه المقريزي من تكاثر عدد الأرمن في القاهرة على عهد السلطان الناصر محمد ، الذي « اتخذ الأسرى وجلبهم الى مصر من بلاد الأرمن وغيرها ، وأنزل عدة كثيرة منهم بقلعة الجبل وجماعة كثيرة بخزانة البنود . فملأ أولئك الأرمن خزانة البنود حتى بطل السجن بها ، وعمرها السلطان الناصر مساكن لهم وتولدوا بها وعصروا الخمور بحيث أنهم عصروا في سنة واحدة اثنتين وثلاثين ألف جرة باعوها جهارا .. »[٢٨٧] .

وبعد ، فهذا عرض عام للطوائف والفئات المختلفة التي تألف منها المجتمع في مصر على عصر سلاطين المماليك . ومن الواضح أن النظم المماليكية شجعت على الفصل بين هذه الفئات في المظاهر العامة ، كما سيتضح عند دراسة الملابس والألقاب وغيرها في الفصول التالية .

---

(٢٨٦) Tafur : Travels; p. 96.

(٢٨٧) المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٦٤٠ — حوادث سنة ٧٤٤ هـ .

الفصل الثانى

القصر السلطانى وحياة السلاطين

قلعة الجبل :

كانت قلعة الجبل فى عصر سلاطين المماليك دار الملك ومركز السلطنة وعظمتها بحيث لا تتم سلطنة الواحد منهم « الا بدخوله قلعة الجبل »[1] . وقد وصف المقريزى هذه القلعة فقال انها بناء عظيم مرتفع يحيط بها سور ضخم به عدة أبواب وبداخل ذلك السور توجد ديار وقصور عديدة وحمامات وأحواش[2] ، كما توجد طباق واسعة للمماليك السلطانية هى اثنتا عشر طبقة كل طبقة منها بقدر حارة تشتمل على عدة مساكن بحيث تتسع كل طبقة الألف مملوك[3] . وبالقلعة عدا ذلك دور لخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم[4] ، فضلا عن دار الوزارة التى اشتملت على قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص[5] . واحتوت القلعة كذلك على الاصطبلات الشريفة التى بها الخيول السلطانية[6] ، وساحات الأغنام والطيور والحيوانات الغريبة[7] من زراف وفيلة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٥٨ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة ص ٢٧ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٧٦ ، المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٣ .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٣ .

(٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

(٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤١ .

وغزال وأسود[٨] ، يتخلل كل ذلك البساتين والأشجار والمياه الجارية التى ترفعها السواقى من النيل الى القلعة برغم ارتفاعها ما يقرب من خمسمائة ذراع[٩] . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما ، فأضافوا اليها اضافات كثيرة ، وشيدوا بها عمائر جديدة من قصور ومساجد وأبراج وأحواش وقاعات وغيرها ، مثل القصر الأبلق ومسجد القلعة وقد شيدهما الناصر محمد ، وقاعـة البيسرية التى أنشأها الناصر حسن[١٠] . ولذلك كله أصبحت قلعة الجبل فى عصر المماليك مضرب الأمثال بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقها المغطاة بالرخام الثمين المجلوب من مختلف البلاد ، وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرصى الملون[١١] .

وسارت الحياة فى قلعة الجبل حسب نظم خاصة من رسوم الملك فى العصور الوسطى ، منها دق الكوسات عند أبوابها ، وهى صنجات من نحاس يدق بها مع طبول وشبابة مرتين كل ليلة ويدار بها فى جوانب القلعة مرة بعد العشاء ومرة فى الفجر قبل التسبيح على المـآذن وتسمى كل منهما « الدورة »[١٢] . ومنها الزفة بالطبلخاناة ،

---

(٨) Tafur : op. cit; p. p. 78 — 79 & Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. XXX.

والسخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٠ .

(٩) المقريزى : السـلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٢٤ ، الخـطط جـ ٣ ص ٣٤١ — ٣٤٣ .

(١٠) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٧٣ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٦ ، المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٣ .

(١١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٣ .

Tafur : op. cit; p. p. 78 — 79 & Dopp : Le Caire Vu ... Tome 23; p. p. 126 — 127.

Tome 24; p. 116.

Tome 26; p. 8, 110.

(١٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٩ .

وهى طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على ايقــاع مخصوص تدق كل يوم بالقلعة صباحا وبعد صلاة المغرب فيصير لها دوى عظيم يعرف به موعد فتح أبواب القلعة وغلقها من مســافة بعيدة(١٣) . وجرت العادة أن يحفظ السلطان عنده مفاتيح أبواب القلعة ، فيحضرها اليه المتولون على الأبواب كل مساء(١٤) .

البيــوت الســلطانية الشريفة :

وقد أشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديــوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الانفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسمطة وصدقات ... وكل ما تحتاج اليه البيوت السلطانية(١٥) .

أما هذه البيوت ، فيطلق عليها أيضا اسم حواصل السلطان ، وهى عديدة ويشرف على كل منها مباشر من أمراء المئين له مساعدون وغلمان عديدون(١٦) . ومن هذه البيوت الشرابخاناة ـــ أى بيت الشراب ـــ ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التى يحتاج اليها السلطان ، فضلا عن الترياقات والسفوفات والمعاجين والأقراص(١٧) . كذلك احتوى بيت الشرابخاناه على الأوانى النفيسة المصنوعة من الصينى الفاخر(١٨) . وقام غلمان الشرابخاناة بضبط جميع ما يعمل فيها من أصناف ، وموضع استعمال كل منها ، بحيث تكون لهم معرفة بحاجات الأسمطة والطوارىء والرواتب ، وما يصرف للمرضى من

---

(١٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ١١٨ .

(١٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٠ .

(١٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٧ .

(١٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٠ .

(١٧) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٢٤ .

(١٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٠ .

المماليك السلطانية من أنواع الأشربة والمعاجين « بمقتضى أوراق الأطبـــاء »[١٩] .

أما الطشت خاناه ففيها أنواع الأوانى والطشوت والأباريق اللازمة لغسل الأيدى والوضوء وغسل الملابس والأقمشة السلطانية ، عدا أدوات الحمام والوقود من السخانات والكراسى والســـــتائر والسجادات والوسائد والمناشف وفوط الخدمة والمباخر وأنواع البخور والطيب وماء الورد ، غير ذلك مما تحتـــاج اليه الدور الســـلطانية للاستحمام[٢٠] .

ومن البيوت السلطانية كذلك الفراش خاناه ، وفيها أنـــواع الفرش من البسط والخيام والتخوت والحمامات الخشب التى تنصب فى الدهاليز فى الأسفار ، وما يتعلق بذلك من شلائت النوم والوسائد . ومباشر هذا البيت يجب أن تكون له خبرة فيما يحتاج الى استصحابه فى أسفار السلطان لخاصته وجواريه ومماليكه على اختلاف طبقاتهم ووظائفهم ، حتى الكلاب السلطانية ومن يقوم بخدمتها[٢١] .

أما السلاح خاناه — وهى الزردخاناه أواخر العصر المماليكى — فاحتوت على جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسى ورماح ودروع ونشاب . وأشرف على السلاح خاناه أمير سلاح ، ومهمته ضـــبط ما يخرج منها مما تتسلمه مماليك السلطان من أنواع الأسلحة عنـــد ركوبه أو جلوسه فى مجلس عام ، أو فى الحروب . واختزنت السلاح

---

(١٩) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ .

(٢٠) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ — ١١ .

(٢١) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٦ .

خاناة جميع ما يصنع من الأسلحة الجديدة برسم السلطان ، فيحمله الحمالون على رؤوسهم ويزف الى القلعة فى يوم مشهود[٢٢] .

وأما الركاب خاناه فاشتملت على آلات الخيل من سروج ولجم وكنابيش ، وغير ذلك من أدوات الركوب المغشاة بالذهب والفضة برسم السلطان[٢٣] . وقد قيل أن عدة ما بالركاب خاناه مما تحتاج اليه الضرورة ثلاثة آلاف قطعة مختلفة الأسماء والأشكال ، ولها مهتار وركبدارية وغير ذلك من الموظفين[٢٤] .

وهناك أيضا الطبلخاناه التى اشتملت على الطبـول والأبواق وتوابعها من الآلات التى بلغت فى بعض الأحيان أربعين محلا من الكوسات والطبول[٢٥] . وأشرف على الطبلخاناه أمير من أمراء العشراوات يعرف بأمـير علم ، وهـو الذى يتـولى تنظيمها وتوزيعها بالقلعـة وفى الأسفار[٢٦] .

ومن أهم البيوت السلطانية الحوائج خاناه التى خصصت لهـا ميزانية تحت يد الوزير يصرف منها على المطبخ السلطانى ، وما يحتاجه من لحم وتوابل وما يخص الأمراء والمماليك والمعممين من مرتبات[٢٧] . واشترط على المشرف فى الحوائج خاناه المعرفة التامة بأنواع الأسمطة السلطانية ، وما يحتاج اليه كل منها من لحوم وتوابل وخضروات وحلوى وبخور ، اذ أن لكل منها معدل لا يصح أن يتجاوزه . كذلك يجب أن تكون له دراية بأسماء أرباب الرواتب ونصيب كل منهم فى

---

(٢٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٢٧ ، وكذلك القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١١ — ١٢ .

(٢٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٢ .

(٢٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٤ .

(٢٥) المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٣ .

(٢٧) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٣ .

اليوم وما يصرف فى الأعياد والمواسم المختلفة . واذا مرض أحد المماليك السلطانية فانه ينقل من باب اللحم الى باب المزاوير — أى المرق — فيقطع مرتبه من اللحم والتوابل مدة مرضه(٢٨) .

ويتصل بالحوائج خاناه المطبخ السلطانى وفيه يطهى طعام السلطان وتعد الأسمطة المتنوعة الألوان ، وله طباخ يشرف على الأطبخة حسب ارشاد استادار الصحبة ، كما أن به عدة مرقدارية — وهم صبيان المطبخ(٢٩) . وقد بلغ عدد الدجاج الذى يذبح فى المطبخ السلطانى بعض الأيام سبعمائة طائر ، كما بلغ مقدار اللحم يوميا فى مطبخ الظاهر بيبرس عشرة آلاف رطل لحم(٣٠) . وفى سنة ٧٤٦ هـ — أى فى زمن شعبان بن الناصر محمد — بلغ متحصل طباخ المطبخ السلطانى من ثمن الرؤوس والأكارع وسقط الطيور فى مهم واحد ثلاثة وعشرين ألف درهم ، فلما صودر ذلك الطباخ وجد له خمسة وعشرون دارا على النيل فى عدة أماكن متفرقة(٣١) .

حياة السلاطين :

أما أهم ما امتازت به حياة سلاطين المماليك فكانت الثروة العظيمة . والشواهد على ثروة سلاطين المماليك كثيرة فى المصادر المعاصرة ، وحسبنا ما خلفه الواحد منهم عند وفاته من القناطير المقنطرة من الذهب ، عدا الفراء الثمينة والخيل المسومة وآلاف المماليك المشتراة(٣٢) . ومن الأمثلة على هذه الثروة أن آنوك بن السلطان الناصر

---

(٢٨) النويرى : نهاية الأرب ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢٩) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣ .

(٣٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٨ .

(٣١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٤١ ، الخطط ج ٣ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٣٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٩٧ .

محمد بن قلاون بلغ جهاز زواجه حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قنطارا من البغال ، كما بلغ الذهب فى المصاغ والملابس الزركش ثمانين قنطارا ، ومع كل ذلك استصغر والده السلطان الناصر هذا الجهاز عندما رآه وقال أنه رأى شوار بنت الأمير سلار أحسن منه وأكثر[٣٣] .
ومهما يكن فى هذه الأمثلة من مبالغة واضحة ، فانها تعطينا فكرة عن ثروة سلاطين المماليك وأمرائهم فى ذلك العصر . ولا عجب اذا استكملت القصور السلطانية جميع مظاهر الترف والعظمة من أثاث ورياش ونافورات وصنابير للمياه الباردة أو الساخنة حسب الحاجة[٣٤] . بل بلغ الأمر بالسلاطين أن جلبوا الثلج من جبال الشام لتبريد الماء زمن الحر صيفا ، وذلك « لكمال الرفاهية والأبهة »[٣٥] ، فقرروا له هجنا تحمله فى البر وسفنا تحمله فى البحر حتى يصل الى القلعة حيث يحفظ بالشرابخاناة[٣٦] .

وجرت العادة أن يمد السماط السلطانى فى طرفى النهار من كل يوم ، ففى أول النهار يمد سماط لا يأكل منه السلطان ثم سماط ثان بعد ذلك قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ويسمى الخاص ، ثم سماط ثالث يكون منه مأكول السلطان . أما آخر النهار فيمد سماطان أو ثلاثة يأكل السلطان من ثالثهما . وبعد الطعام توزع الأقسماء المبردة المعمولة من السكر والمطيبة بماء الورد على الحاضرين[٣٧] . ويتولى هذه الأسمطة الأمير الجاشنكير ، وعمله أن يأكل قبل السلطان خوفا من أن يدس عليه السم فى أكله أوشربه[٣٨] .

---

(٣٣) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٤١٨ ، ترجمة آنوك بن محمد بن قلاون .

(٣٤) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 36.

(٣٥) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٩٥ .

(٣٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — ١١٨ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٩٥ .

(٣٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٢ .

(٣٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٦٠ ، ٣٩٦ .

كذلك أمعن سلاطين المماليك فى لبس الفاخر من الثياب ، فأبدلوا ملابسهم ثلاث مرات فى اليوم الواحد ، ومع هذا فقد حكى بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر فى عصر المماليك أن الرداء الذى يخلعه السلطان لا يلبسه مرة ثانية مطلقا ، وانما توضع الملابس المخلوعة فى مكان خاص حتى ينعم بها على أمرائه وخاصته[٣٩] . وأشرف على شئون الملابس السلطانية أمير أسمه الجمدار[٤٠] . كذلك احتفظ سلاطين المماليك بجماعة من البابية[٤١] للعناية بثيابهم وصقلها . وجرت العادة أن يرتدى السلاطين الملابس البيضاء صيفا[٤٢] ،والملابس الصوفية الملونة المبطنة بالمخمل وعليها الفراء الفاخر شتاء[٤٣] ، وزين السلاطين أصابعهم بالخواتم الياقوت والفيروزج والزمرد والألماس[٤٤] .

وعند مبيت السلطان يظل حوله عدد من أمرائه ومماليكه للسهر على حراسته ، فيقسمون الليل بينهم كلما انقضت نوبة فئة أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم . والمعروف أن النوبات التى تولت حراسة شخص السلطان ليلا ونهارا عددها خمس ؛ ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح[٤٥] . وحرصت

---

(٣٩) Dopp : Le Caire Vu... Tome 23; p.. 148, Schefer : Le Voyage d'Outremer. p. XIII.

(٤٠) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٤١) مفردها بابا وهو « لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه ابو الآباء .. وكأنه لقب بذلك لانه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قماشه وتحسين هيئته أشبه بالأب الشفيق ، فلقب بذلك » . القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٤٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠ ، ٢٠٠ .

(٤٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٨٣ .

(٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور ص ٥٨ .

(٤٥) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦١ حاشية ٢ .

ذئات النوبة أن تكون لديها أطباق فيها أنواع « المطجنات والبوارد والقشطة والجبن والموز .. » حتى يتشاغل أرباب النوبة فى السهر حول السلطان بالمأكول والمشروب عن النوم[٤٦] ، وذلك اذا أتعبتهم لعبة الشطرنج أو القراءة فى المصاحف[٤٧] .

أما الحريم السلطانى ، وهو المسمى الآدر الشريفة ، فاحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار ومختلف الطيور والحيوانات الجميلة[٤٨] . وقد خصصت لكل واحدة من زوجات السلطان الأربع قاعة خاصة بها ، فالقاعة الكبرى تعرف بالعواميد تقيم فيها خوند الكبرى ولها المكانة المفضلة ، وقاعة رمضان بها خوند الثانية ، والقاعة المظفرية بها خوند الثالثة . وأخيرا تقيم خوند الرابعة بالقاعة المعلقة ، هذا عدا قاعات أخرى برسم السرارى والجوارى[٤٩] . وأحيطت كل واحدة من زوجات السلطان بعدد كبير من الوصيفات ، كما خصص لكل واحدة منهن أربعة طواشية (خصيان) بمثابة حرس دائم لها ، ولا يفارقنها فى أى مكان تذهب اليه[٥٠] . فاذا رزق السلطان بولد ذكر من احدى زوجاته دقت البشائر بالقلعة . وأنعم على الأمراء بالخلع . وفى يوم السبوع تجتمع الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة حيث يقام مهم حافل وتحمل القبة والطير على رأس زوجة السلطان أم المولود[٥١] ، كما يأمر السلطان بعمل داير ومهد المولود ربما كلفه آلاف الدنانير[٥٢] . ولم يسمح لأى أحد بالاقتراب من الحريم

---

(٤٦) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٢ .
(٤٧) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٩ .
(٤٨) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٧٥ .
(٤٩) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٦ — ٢٧ .
(٥٠) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. XXXI.
(٥١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٦٢ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٦٤ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٨٣ .
(٥٢) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٨٠ .

السلطاني سوى الطواشية[٥٣] ، وكذلك كان حريم الأمراء لا يقترب منه أحد حتى السلطان . والمعروف أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد عزل من السلطنة سنة ٧٦٤ هـ لأن نفسه حدثته بالاتصال بنساء الامراء[٥٤] .

وسائل التسلية والرياضة :

هذا ، وقد اتصف بعض سلاطين المماليك بالتقوى والورع وحب البحث في المسائل العلمية والدينية . فالأشرف قايتباى عرف عنه اشتغاله بالعلم وكثرة مطالعة الكتب « وله أذكار وأوراد جليلة تتلى في الجوامع » حتى أيام ابن اياس[٥٥] . وأحب السلطان ططر انشاد الشعر بين يديه ، لا سيما الشعر التركى الذى حفظ منه كثيرا[٥٦] . واعتاد السلطان الغورى أن يعقد بالقصر السلطانى مرة أو مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع مجالس علمية أو دينية ودعا اليها كبار العلماء ورجال الدين والأدباء للتحدث والتباحث في مختلف المسائل العلمية والدينية[٥٧] .

وشغف كثير من سلاطين المماليك بالموسيقى والغناء حتى جرت العادة زمن أبى المحاسن أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغانى في داره[٥٨] . ودفع ذلك بعض السلاطين الى تقريب أرباب الموسيقى

---

(٥٣) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٧ هـ ص ٣٩٨ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٧٩ حاشية ٤ .

(٥٤) ابن قاضى شهبة : الاعلام جـ ٣ ص ١٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٧٧ .

(٥٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٥٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٥٢٠ (كاليفورنيا) .

(٥٧) نفائس المجالس السلطانية ، الكوكب الدرى فى مسائل الغورى .

(٥٨) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٧٨ .

والغناء اليه ، فاذا سمع بمغنى أرسل فى طلبه وكلفه بتعليم جواريه فن الغناء ، كما فعل الناصر محمد مع المغنى كتيلة بن قرانغان[٥٩] . كذلك شغف كثير من سلاطين المماليك بلعب الشطرنج مع المقربين اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء[٦٠] ، بل لقد حرص بعضهم اذا خرج فى أسفاره أن تحمل معه كمية ضخمة من العاج برسم خرط الشطرنج ، حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان[٦١] .

ومن ضروب التسلية السلطانية أيضا الخروج للتنزهة فى أماكن متفرقة ظاهر القاهرة مثل خليج الزعفران أو الجيزة أو غيرها[٦٢] . وكان والى القاهرة يستغل هذه المناسبة لاقامة مهرجانات كبيرة يرمى فيها النفط وتشعل فتايل بالزيت فى قشور البيض والنارنج ثم ترسل على الماء لتكون بمثابة « أسرجة موقدة على وجه النيل »[٦٣] ، وحدث أحيانا أن يأمر السلطان باحضار الحراريق المزينة التى تسير فى ليالى وفاء النيل ، فيجتمع الناس من كل مكان للفرجة « ويحدث لهم من البسط ما لا مزيد عليه »[٦٤] . أما اذا استصحب السلطان حريمه ، ففى هذه الحالة يطرد سائر الناس من الطرقات وتغلق الحوانيت[٦٥] .

على أن بعض السلاطين فضل الانهماك فى اللذات ، وانغمس فى

---

(٥٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٦٥ ترجمة كتيلة بن قرانغان .

(٦٠) ابن حجر : رقم الاصر ص ٧٩ أ ، ابو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٠١ .

(٦١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٧٢٩ ، حيث ذكر أن هذه الكمية بلغت خمسة قناطير من العاج .

(٦٢) السخاوى : التبر المسبوك حوادث سنة ٨٤٩ هـ .

(٦٣) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٢١ هـ .

(٦٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٦٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٧٤ .

حياة المجون والمحرمات[٦٦] . ومن هؤلاء المظفر حاجى الذى بلغ من شغفه بالنساء أن قيمة عصبة الرأس لحظيته قدرت بمائة ألف دينار[٦٧] . أما السلطان اسماعيل بن الناصر فقد اعتاد عند ركوبه الى سرياقوس للرياضة أن يصحب معه فى ركابه مائتى امرأة فى ثياب أطلس ملون ، وعلى رؤوسهن الطراطير من الجلد المرصع بالجواهر ، وبين أيديهن الخدام والطواشية[٦٨] . وهناك من السلاطين من عكف على معاقرة الخمور وأسرف فى تعاطيها حتى ابتكر أحد أمراء المماليك — وهو الأمير تمربغا — نوعا من الخمور نسب اليه وعرف بالتمربغاوى ، فأقبل السلطان الظاهر برقوق على شربه فى مختلف المناسبات وصحبته الامراء[٦٩] . هذا عدا أنواع العبث الشاذ التى شغف بها بعض سلاطين المماليك ، والتى سنتعرض لها بشىء من التفصيل فى الباب الأخير من هذا الكتاب .

واشتهر سلاطين المماليك وأمراؤهم بولعهم الشديد بألعاب الفروسية والصيد والرياضة على اختلاف أنواعها « لما فى ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جديد »[٧٠] . ولهذا الغرض اهتم السلاطين بعمل الأحواش فى مختلف أقاليم الديار المصرية وزودوها بالشباك والصيادين[٧١] ، كما عملوا الميادين الفسيحة مثل ميدان القبق الذى أنشأه الظاهر بيبرس خارج

---

(٦٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ ، الذهبى : تاريخ الاسلام سنة ٦٩٣ هـ .

(٦٧) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣ — ٤ ترجمة الملك المظفر سيف الدين حاجى .

(٦٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٣٣ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٩ .

(٦٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٨١ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧٤١ .

(٧٠) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٤ ص ١٦٦ .

(٧١) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٨ .

القاهرة وميدان سرياقوس الذى أنشأه الناصر محمد سنة ٧٢٣ وغيرها[٧٢] . كذلك اهتم السلاطين بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها ، فأنشأوا لها المطاعم وعينوا لها البازدارية يشرفون عليها تحت رقابتهم . واعتاد السلطان اينال أن ينزل بين حين وآخر الى مطعم الطير ، فتطلق البازدارية طيورا أعدوها ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها حتى يتسلى السلطان برؤية هذا المنظر[٧٣] . أما السلطان الناصر محمد فقد عنى باقتناء الخيول ، وعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس فيقيد اسمه واسم صاحبه ونسب الفرس والتاريخ الذى أحضر فيه .. فإذا حملت فرس من خيول السلطان أحيط علما بذلك وأخذ يترقب الوقت الذى تلد فيه[٧٤] . ويقال أن الناصر محمد كان يصرف المبالغ الطائلة دفعة واحدة فى أثمان الخيول ، حتى مات عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس[٧٥] .

أما الألعاب الرياضية التى شغف بها السلاطين فأولها سرحات الصيد ، وموعدها عادة أيام الربيع عندما يسرح السلطان عدة مرات « الى مواضع مخصوصة » وجميع الأعيان فى خدمته بالكامل[٧٦] . وأهم هذه المواضع سرياقوس وشبرا والبحيرة[٧٧] ، والعباسة[٧٨] ، والغربية[٧٩] ، والوجه القبلى[٨٠] . واعتاد

---

(٧٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٨٠ ، ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٧٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٤١٦ ، ٤٨٤ ، النجوم جـ ٩ ص ٢٩ .

(٧٤) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٤٣٥ ، ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٧٥) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ .

(٧٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٧ .

(٧٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٢٤ .

(٧٨) العباسة المقصودة هنا احدى قرى مركز الزقازيق بالشرقية (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤١) .

سلاطين المماليك عند خروجهم للصيد أن ينعموا على أكابر أمـراء الدولة بالأموال والخيول والحوائص الذهب والسيوف والقمـاش وغير ذلك[٨١] ، وأن يصطحبوا معهم عدا الأمراء والمماليك كل من تدعو الحاجة اليه من أطباء وكحالين وأشربة وعقاقير . فضلا عن عدد كبير من الخيام[٨٢] . وقد شهد ليناردو موكب السلطان برقوق عند عودته من الصيد سنة ١٣٨٤ م فذكر أن به أكثر من خمسة آلاف خيمـة[٨٣] .

أما طريقة الصيد فهى أن تطلق الطير فى الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط اليه ، ويضرب الأمراء حولها حلقة وهى لاهية فى التقاط الحب فيذعرونها بضرب الطبـول والسـلطان والأمـراء مترقبون لصيدها[٨٤] . وبعد أن يأخذ السلطان حظه من صيد الطير يتحول الى اقتناص الوحوش ، فتعد الخيول وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة تطلق داخلها النعامات والظباء وبقر الوحش وغير ذلك ، فيطاردها السلطان ومعه الجوارح الصائدة وعندئذ تموج الوحوش ويستولى عليها الذعر . وبعد أن يصيد السلطان منها كفايته يترك لأمرائه حرية الصيد[٨٥] . وقد تواتر فى بعض المصادر أن السلطان قطز شغف بصيد الأرانب خاصة[٨٦] . وانتهز بعض سلاطين المماليك فرصة الخروج للصيد للتحرر من قيود الملك ، فارتكب بعضهم فى هذه المناسبة كثيرا من المعاصى وتجاهروا بالفواحش . ومن ذلك أن

---

(٧٩) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ١٢٩ .

(٨٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٨١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٧ ، جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٨٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٢٥ .

(٨٣) Dopp : Le Caire Vu; Tome 23, p. 131.

(٨٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١١ ص ١٦٧ .

(٨٥) نفس المصدر والجزء ص ١٦٩ — ١٧١ .

(٨٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٢٣ .

السلطان شعبان كان يستصحب معه عند خروجه للصيد عددا من الغوانى وجرار الخمور وأرباب الملاعيب والملاهى(٨٧) . ومع ذلك اعتبر المعاصرون خروج السلطان الى الصيد — والى سرياقوس بوجه خاص — من شعائر الملوك « ومن أجمل عوائدهم وأحسنها » . وأسف أبو المحاسن عندما بطلت هذه العادة سنة ٨٠٠ هـ ، اذ صار الفرق بين « سلطنة مصر ونيابة الأبلستين اسم السلطنة ولبس الكلفتاه فى المواكب لا غير »(٨٨) .

ومن الرياضيات الشهيرة عند المماليك لعب الكرة أو الأكـرة أو الجوكان ، وهى اللعبة المعروفة الآن باسم بولو . وقد شـغف بهذه اللعبة معظم السلاطين وأمرائهم ، فأنشأوا لها الميادين ووضعوا لها نظاما خاصا وحددوا أوقات وحفلات تلعب فيها . كذلك أعدوا لها ما يلزمها من خيول وأدوات ، وخصصوا موظفين من المماليـك يشرفون عليها يسمى الواحد منهم جوكندار ، أى الذى يحمـل الجوكان ، وهى عصا مدهونة طولها نحوا من أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطة محدودبة تنيف عن نصف ذراع(٨٩) . وقد اعتاد السلاطين عند الخروج للعب الكرة أن يفرقوا حوائص من ذهب على بعض الامراء المقدمين(٩٠) .

وشهد الرحالة تافور سلطان المماليك وأمراءه يلعبون هذه اللعبة ، فقال أن الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسـما ومخططا بخطوط بيضاء ، وعلى جانبى الميدان عدد كبير من فرسان المماليك بيد كل

---

(٨٧) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٦ — ٤٧ ، جـ ٢ ص ٧٤٥ .

(٨٨) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٧٣ .

(٨٩) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٤٤ حاشية ١ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر حاشية ١ ص ٢٩ .

(٩٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٢٥ ، القلقشندى : صـبح الاعشى جـ ٤ ص ٥٢ — ٥٥ .

منهم عصا طويلة ، وفى وسط الميدان كرة • ويكون اللعب بأن يحاول كل جانب اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى ينجح فى ذلك تكون له الغلبة(٩١) • وجرت العادة أن يقوم المهزوم فى اللعب بعمل مهم حافل أو وليمة كبيرة ، وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة الى مائتى ألف درهم نظرا لما يذبح فيها من مئات المواشى والخيول والطيور ، عدا الحلوى والمشروبات(٩٢) • وفى بعض الأحيان تحمل السلطان نفقات هذا المهـم — رغم أنه الغـالب — وذلك تخفيفـا عن الأمـير المغلوب(٩٣) •

ومن الألعاب الرياضية التى شغف بها أيضا سلاطين المماليك رمى القبق • وتفصيل هذه اللعبة هو أن تنصب خشبة عالية فى ميدان اللعب ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها الى هدف معين ، وذلك تمرينا لهم عن احكام الرمى(٩٤) • وأحيانا يكون بدل هذه الدائرة شكل قرعة عسلية — واسمها بالتركية القبق — من ذهب أو فضة ويكون فى القرعة طير حمام • ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة أو أطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها(٩٥) • وعدا ذلك ينعم السلطان على من يصيب القبق بفرس اذا كان من الأمراء

---

(٩١) Tafur : Travels; p. 80.

(٩٢) ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢٨ — ٢٩ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٨٥ •

(٩٣) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٤٣٦ ، نيل الاعلام جـ ٢ ص ١٣٥ •

(٩٤) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٨٠ •

(٩٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥١٨ حاشية ٦ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ١٦ •

وبخلعة اذا كان من المماليك[٩٦] . ويبدو أن السلاطين اعتادوا لعب القبق — أو يأمرون بلعبه — عدا أيام اللعب العادية فى مناسبات الفرح والسرور اظهارا اشعورهم ، كما حدث سنة ٦٩٢ هـ عندما أمر السلطان الأشرف خليل بلعب القبق « وذلك بسبب طهور أخى الملك الأشرف — وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون — وطهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح علاء الدين على بن قلاون ، فاحتفل السلطان لطهورهما .. »[٩٧] . وعند رمى القبــق يرتدى المماليك السلطانية أجمل العدد والخوذ والآلات والسلاح الكامل ، ويخرج أهل القاهرة من الرجال والنساء للفرجة ، فتنصب السوقة لهم عدة صواوين فيها أنواع البقول والمآكل والمشارب[٩٨] .

وكثيرا ما انتهى أمر لعبة القبق الى الطعان بالرماح أو بالدبابيس أو السيوف فينقسم اللاعبون فريقين عقب لعب القبق ، ويأخذون فى المبارزة والطعان « فلا يرى الناس الا سيوفا تبرق »[٩٩] . وقد ذكر أبو المحاسن أن مماليك قلاون استحدثوا أشياء كثيرة فى تلك اللعبة من حيث طريقة اللعب والقبض على الرمح حتى أصبح اللعب بالرمح فى زمانه يكاد يخالف لعب المماليك الأوائل فى غالب حركاتهم[١٠٠] .

ومن الألعاب المماليكية كذلك الرمى بالبندق ، والبندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وترمى به الطيور . وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الوسطى بمختلف البــلاد

---

(٩٦) العينى : عقد الجمـــان سنة ٦٧٥ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٧٦ .

(٩٧) ابو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ١٦ .

(٩٨) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٨١ .

(٩٩) تاريخ ابن الفرات جـ ١٣ ص ٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٢٦ .

(١٠٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١١ .

ومنها مصر ، حتى أن خط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقراص البندق(١٠١) . ومن السلاطين الذين شغفوا بهذه اللعبة السلطان الأشرف خليل بن قلاون(١٠٢) .

وبعد ، فان الألعاب السابقة ليست ضروب النشاط الرياضى الوحيدة التى عرفها المماليك . فكثيرا ما أقام السلاطين والأمراء مسابقات بين الهجن والخيل فى الأماكن الفسيحة الواسعة ، مثل بركة الحاج ، أو بركة الحبش(١٠٣) ، أو ميدان القبق(١٠٤) . هذا فضلا عن الألعاب الأخرى الفردية التى يصعب حصرها . فالسلطان الظاهر بيبرس مثلا عرف عنه ولعه العظيم بالسباحة لمسافات طويلة حتى أنه سبح مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة(١٠٥) .

البلاط والحياة الرسمية :

أما الحياة الرسمية فى البلاط المماليكى فاتصفت بالتعقيد وأحيطت بمختلف مظاهر التفخيم والتعظيم ، حتى قال عنها بعض الكتاب المحدثين أنها تطلبت من قواعد البروتوكول ما يفوق أعظم بلاط فى عصورنا الحديثة(١٠٦) . فعلى رأس البلاط كان السلطان ، وله من صفات العظمة والألقاب العديدة ما يصعب حصره(١٠٧) . وأحاط بالسلطان عدد كبير من الأمراء أرباب الوظائف ، لكل منهم رتبته ولقبه ومنزلته ووظيفته . فهناك أمير جاندار ، وهو الذى يستأذن على دخول الأمراء

---

(١٠١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٧٢ حاشية ٢ .

(١٠٢) زينتر شتين : تاريخ المماليك ص ٢٧ .

(١٠٣) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ٢ ص ٢٥٨ .

(١٠٤) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٦٦ .

(١٠٥) Lane — Poole : A. Hist of Egypt; p. 250.

(١٠٦) Lane — Poole : Cairo- p. 89.

(١٠٧) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

للخدمة ، ويدخل أمامهم الى الديوان[١٠٨] • كما كان من اختصاص هذا الأمير أن يدور بالزفة حول السلطان فى سفره صباحا ومساء[١٠٩] • وهناك الاستادار واليه أمر البيوت السلطانية كلها من المطبخ والشرابخاناه ‎.‎• وهناك أمير سلاح مقدم السلاحدارية والمتولى لحمل سلاح السلطان • وهناك الداودار ومهمته تبليغ الرسائل عن السلطان وتقديم القصص وعامة الأمور اليه[١١٠] •

وجرت العادة أن يخرج السلطان صباحا من أحد قصوره الجوانية الى القصر الكبير المشرف على اصطبلاته حيث يجلس على تخت الملك ويدخل عليه خواصه وأمراؤه • أما الغرباء فليس لهم عادة بحضور هذا المجلس الا فى حالة الضرورة • ويظل السلطان بذلك القصر حتى الساعة الثالثة من النهار ، ثم يدخل بعدها الى أحد قصوره الجوانية للنظر فى مصالح ملكه ، وعندئذ يحضر اليه أرباب الوظائف مثل الوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش لعرض شئون الدولة عليه[١١١] •

ويتضح من عبارة « جلس كبار الأمراء قبل دخولهم الى الخدمة ••• »[١١٢] ، أو من عبارة « اذا وقف الأمراء بالخدمة ••• »[١١٣] أو من عبارة « الأمراء عند السلطان بالخدمة •• »[١١٤] ، أن المقصود بالخدمة الحضرة السلطانية • وربما نفهم أحيانا من هذا اللفظ معنى التحية وتقديم فروض الولاء والاحترام ، كما يتضح من عبارة « وتقدم الأمراء للسلطان

---

(١٠٨) نفس المصدر جـ ٤ ص ٢٠ •

(١٠٩) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٦١ •

(١١٠) نفس المصدر والجزء ص ٣٦٠ وما بعدها •

(١١١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٤ •

(١١٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٢ •

(١١٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٧٢ •

(١١٤) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٠١ •

وبخدموه »(١١٥) فاذا جمعنا بين المعنيين وقلنا أن الخدمة السلطانية هى مثول الأمراء بين يدى السلطان لتقديم فروض الولاء وعرض أمر من أمور الدولة عليه ، فان الخدمة بهذا المعنى جرت بانتظام أربع مرات فى الأسبوع على عهد السلطان جقمق(١١٦) . وفى المواعيد المقررة لها انتظر الأمراء فى رحبة قرب باب القصر(١١٧) ، بحيث لا يسمح لأحدهم بدخول القصر السلطانى الا بمملوك واحد فقط(١١٨) . فاذا دخل الأمراء على السلطان ، فانهم يبدأون بتقبيل الأرض ، اظهارا للولاء والخضوع ، بحيث اذا أراد أحدهم غير ذلك امتنع عن تقبيل الأرض للسلطان(١١٩) . وهذه العادة الخاصة بتقبيل الأرض أدخلها المعز أول الخلفاء الفاطميين ، ومن ثم ظلت سائدة فى العصور التالية لا يعفى منها وزير أو أمير أو مملوك حتى سنة ٨٢٥ هـ عندما أبطلها السلطان برسباى ، فمنع الناس من تقبيل الأرض له واكتفى بتقبيلهم يده(١٢٠) . وقد جرت العادة عندما يتقدم الأمراء لتقبيل يد السلطان بأن يتأخر الكبير ويتقدم قبله الصغير(١٢١) . هذا فضلا عن أن أمراء المماليك حافظوا — وهم بالخدمة السلطانية — على آداب خاصة ، فيقف كل أمير فى مكانه المعروف الذى يتفق مع مكانته ورتبته(١٢٢) ، ولا يجرؤ أحدهم على أن يتكلم مع غيره ويلتفت نحوه خوفا من مراقبة السلطان(١٢٣) .

---

(١١٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩٢ ، وحاشية ١ بنفس الصفحة .

(١١٦) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٨٦١ .

(١١٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٢٣ .

(١١٨) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣ .

(١١٩) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ سنة ٨٢٥ هـ ، ابن حجر : انباء الغمر ص ٣٢٧ .

(١٢٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٥٢ .

(١٢١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٩٣ .

(١٢٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١٧٢ .

(١٢٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

المواكب السـلطانية :

وتمثل الاستقبالات والمجالس الرسمية جزءا كبـيرا هاما من الحياة السلطانية ، مما جرى المصطلح على تسميته المواكب ، وهى كثيرة ومتعددة[١٢٤] . على أننا نستطيع تقسيم هذه المواكب السلطانية الى قسمين : قسم داخل أسوار القلعة والقسم الآخر جرى خارجها . أما النوع الأول فأشهره موكب استقبال الرسل والسفراء الأجانب وموكب الايوان وموكب الاسطبل . فسلطان المماليك حرص عنـد استقبال رسول أجنبى على الظهور فى أعظم مظهر ، فيرتدى أفخـر الملابس ويحيط به الأمراء فى أبهى الحلل[١٢٥] .. ويجلس السلطان على سرير الملك وهو منبر من الرخام بصدر الايوان على هيئة منابر الجوامع الا أنه يستند الى الحائط[١٢٦] ، ومغطى بالمخمل الأخضر[١٢٧] . وقبل أن يتشرف السفير بالمثول بين يدى السلطان ينبهه رجال الحاشية الى قواعد البرتوكول السلطانى من ضرورة تقبيل الأرض وعدم البصق فى حضرة السلطان[١٢٨] .

وقد وفد الى مصـر سـنة ١٤٢٢ م برانكاشى Brancacci مبعوث فلورنسا لعمل اتفاق تجارى مع السلطان برسباى ، فوصف المراحل العديدة التى مر بها حتى توصل الى رؤية السلطان . ذلك أنه بدأ بمقابلة الدواذار وقدم له خطاب اعتماده ، فقابله الدوادار بترحاب . وبعد ذلك قابل كاتب السرُ ليتحقق من شخصه ، فقابله بنفس الاسلوب . وأخيرا حدد له يوم لمقابلة السلطان ، فبكر برانكاشى بالذهاب الى القلعة فى ذلك اليوم . وهناك أخذ يمر بين صـفوف

---

(١٢٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٧ .

(١٢٥) Schefer : Voyage du Magnifique et tres illustre Chevalier Domenico Trevisan : p. 184.

(١٢٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦ — ٧ .

(١٢٧) Schefer : Voyage du Magnifique; p. 184.

(١٢٨) Idem, p. 185, Tafur : Travels; p. 75.

لا تنتهى من المماليك والأمراء ، حتى وصل أخيرا الى القاعة الفسيحة التى يجلس فيها السلطان • وكان السلطان متربعا فى صدر القاعة ، يحيط به عدد كبير من الأمراء المدججين بالسلاح ، وفى أركان القاعة بعض المنشدين والموسيقيين يعزفون فى هدوء على مختلف الآلات الموسيقية من رباب وعود وغيرها • وظل برانكاشى يسير فى تلك القاعة متجها نحو السلطان حتى أصبح على مقربة خمس وعشرين ذراعا منه ، وعندئذ أمر بالوقوف وكفت الموسيقى عن العزف ، فقبل الرسول الأرض وقدم مطالبه الى السلطان[١٢٩] • ولم يكن من الصعب على مثل هذا السفير أن يتفاهم مع السلطان وحاشيته ، اذ روى ماندفيل Mandville الذى مر بمصر سنة ١٣٣٦ م أنه وجد بين حاشية السلطان أربعة يتكلمون الفرنسية بطلاقة ، وأن السلطان نفسه (الناصر محمد) يتفهمها فى سهولة[١٣٠] •

ومن مواكب داخل القلعة جلوس السلطان بالايوان الكبير المسمى دار العدل للنظر فى المظالم ، وهى القضايا التى لم يرض أصحابها بأحكام القضاة فيها فرفعوها الى السلطان من باب الاستئناف ، أو القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة • وقد خصص كثير من سلاطين المماليك يوما أو يومين فى الاسبوع لهذا الغرض ، فيجلس السلطان فى الايوان الكبير على كرسى من الخشب المغشى بالحرير[١٣١] ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الاربعة هما الشافعى والمالكى ، وعن يساره قاضيان هما الحنفى والحنبلى • ويلى القاضى المالكى من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعى فالحنفى فالمالكى ، ويليهم مفتو دار العدل ثم وكيل بيت المال ثم الناظر فى الحسبة • ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضى الحنبلى الوزير وكاتب السر ••

---

(١٢٩) Dopp : Le Caire Vu... Tome 24, p. p. 124 — 127.

(١٣٠) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. VII.

(١٣١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٧٣ ، جـ ٤ ص ٤٤ •

وهكذا حتى تستدير الحلقة فيصير الجالس بها مستدبرا باب الايوان . ويقف وراء السلطان مماليك صغار عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية ، فى حين يجلس على بعد خمس عشرة ذراعا تقريبا ذوو السن من أكابر امراء المئين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وباقى الأمراء فيظلون وقوفا . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوادارية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها . ثم تقرأ على السلطان القصص ، فما احتاج منها الى مراجعة القضاة شاورهم السلطان فيها « ورجع الى ما يقولون »[١٣٢] . وما تعلق منها بالعسكر تحدث السلطان فيها مع الحاجب وناظر الجيش ، ويأمر فى الباقى بما يراه[١٣٣] . ومع مرور الزمن اقتصر جلوس السلاطين بالايوان على مدة قصيرة بصفة شكلية ، لا لشىء سوى اقامة رسوم الملكة[١٣٤] ، لا سيما بعد أن نودى بأن أحدا لا يتقدم بشكايته الى السلطان الا بعد أن يرفع أمره الى الحكام أولا ، فاذا لم ينصفوه ذهب الى السلطان ، ومن خالف ذلك وقعت عليه عقوبة[١٣٥] .

ومن المواكب السلطانية بالقلعة كذلك موكب الاسطبل مرتين فى الاسبوع ، والغرض منه النظر فى شئون الأمراء والمماليك والاقطاعات . وفى هذا الموكب يجلس السلطان فى صدر المكان وحوله الأمراء مقدمو الألوف يمينا ويسارا على مقاعد من حرير ، ولا يحضر القضاة هذا المجلس . وبعد أن يقرأ ناظر الجيش ما يتعلق بالاقطاعات يمضى السلطان منها ما يشاء . ثم يدخل كاتب السر ويقدم العلامة فيعلم

---

(١٣٢) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ ص ١٢ .

(١٣٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٤ — ٤٥ ، المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ ، الألطاف الخفية ص ٥٤ .

(١٣٤) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٦ .

(١٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٢٩ ، تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ١٧ .

السلطان ما أمضاه . وأخيرا يدخل الجيش طائفة بعد طائفة لتقديم واجب الولاء واظهار الطاعة للسلطان ، ثم يمد سماط كبير عند انتهاء هذا الموكب[١٣٦] .

أما المواكب السلطانية خارج القلعة فمنها السرحات للصيد أو اللعب ، أو مواكب العيدين الفطر والأضحى ، أو موكب كسر الخليج[١٣٧] . واعتاد سلاطين المماليك أن يخرجوا فى هذه المواكب بشعائر السلطنة . على أن هذه المواكب لم تكن كلها واحدة فى ترتيبها ومظاهرها ، بل تفاوتت فى المظهر حسب أهمية كل منها ووفق ما جرت به العادة فيه . فاذا خرج السلطان الى صلاة أحد العيدين مثلا ، يكون الموكب فى أجمل صورة فيخرج السلطان وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وهى رايات صفر عليها ألقاب السلطان واسمه مطرز بالذهب . وترفع على رأس السلطان المظلة ، ويعبر عنها بالجتر — وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، وفى أعلاها طائر من فضة مطلى بالذهب ويحملها بعض أمراء المئين الأكابر[١٣٩] . وأمام السلطان أحد الركبدارية رافعا الغاشية على يديه يلفتها يمينا وشمالا حتى يخالها الناظر مصنوعة كلها من الذهب[١٤٠] . ويركب الجفتاوات أمام السلطان ، وهما اثنان من أوشاقية الاصطبل السلطانى قريبان فى السن عليهما قباءان أصفران من حرير ، وعلى رأسيهما قبعتان من زركش ويركبان فرسين أشهبين[١٤١] . وعن يمين السلطان يمشى الجمقدار يحمل دبوسا له رأس ضخم ويكون نظره متجها الى

---

(١٣٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ — ٨٧ .

(١٣٧) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١٣٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ .

(١٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ — ٨ .

(١٤٠) نفس المصدر والجزء ص ٨ .

(١٤١) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٥٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ .

السلطان من أول خروج الموكب حتى نهايته(١٤٢) • وعلى هذه الصورة يسير الموكب السلطانى متهاديا بين زغردة النساء ودعاء الرجال(١٤٣) •

الأســفار السـلطانية :

أما الأسفار السلطانية فاختلفت مراسيمها ومظاهرها باختــلاف طبيعة السفر والغرض منه•فاذا سافر السلطان الى جهة خارج الأراضى المصرية ، فانه فى هذه الحالة يكتب تذكرة لنواب السلطنة فيما يتعــلق بأحوال الديار المصرية ومصالحها ويوصيهم باقامة الشرع والانصاف بين الرعية وتشديد الحراسة على السجون والأسرى(١٤٤) • وربما عين السلطان نائبا للسلطنة من الأمراء أو من أحد أبنائه ، ليحل محله مدة غيابه • واعتاد سلاطين المماليك أن يصطحبوا معهم فى أسفارهم جميــع ما يحتاجون اليه من خيام من القطن والجوخ الملون لتحل محل القصور فى الاقامة(١٤٥) • وكانت هذه الخيام على أنواع عدة ، منها ما يناسب النزهة ، ومنها ما خصص للحروب ، وغير ذلك(١٤٦) • وأشرف ناظــر الخاص على حاجات السلطان فى رحلته من قدور الطعام ومباقل ورياض من خشب لزرع ما تدعو الحاجة اليه ، فتهيىء من البقــول والكراث والكسبرة والنعناع والريحان وأنواع المشمومات الشىء الكثير ، ويتمهدها الخولة بالسقاية طوال الرحلة • هذا عدا الأفران(١٤٧) ، والحمامات الخشبية التى تنقل على ظهور الدواب(١٤٨) •

---

(١٤٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٦٦ حاشية ٣ •
(١٤٣) النويرى : الالمام بالاعلام جـ ٢ ص ٣٤٢ •
(١٤٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٩١ — ٩٢ •
(١٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٩ •
(١٤٦) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٥٨ •
(١٤٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٥٨ •
(١٤٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٢٦ •

فاذا جن الليل فى الطريق قضى السلطان ليلته فى مخيمه ، وتضرب خيام الأمراء حوله وطاقا ، ثم تحيط بهم المماليك دائرة بعد أخرى ، ويطوف بالجميع الحرس[(١٤٩)] . وتدور الزفة حول مخيم السـلطان فى كل ليلة مرتين الأولى عندما يأوى السلطان الى فراشه ، والثانية عنـد استيقاظه من النوم . وكل زفة يدور بها أمير جاندار وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول .

---

(١٤٩) المقريزى : الخطط ج٣، ص ٣٢٥ .

الفصل الثالث

الحيـاة العامة فى القـاهرة والمـدن

صـورة القاهرة فى عصـر المماليـك :

فاقت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من المدن فى أوربا والعالم الاسلامى من حيث السعة وكثرة السكان . وقد أطنب الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك العصر ــ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ــ فى وصف أحوال البلاد ومدنها والحياة فيها ، وخصوا القاهرة بشطر كبير من ملاحظاتهم وأوصافهم . فابن بطوطة قال عن القاهرة فى القرن الثامن الهجرى « هى أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها »[1] . وقال الرحالة اليهودى الثرى مشولام بن مناحم Meshullam Ben Manahem الذى زار مصر سنة ١٤٨١ م أنه لا يكفيه مجلد لوصف القاهرة ، وأن عدد سكانها يبلغ نصف مجموع سكان روما وميلان وبادوا وفلورنسا وأربع مدن أخرى من أعاظم المدن الاوروبية[2] . كذلك ذكر جيهان تنود Thenaud الذى زار مصر سنة ١٥١٢ أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس[3] . أما برنارد دى بريدنباخ فقال أنه لا يعتقد فى وجود مدينة أخرى فى العالم كله تضاهى القاهرة فى كثرة سكانها واتساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع سكان ايطاليـا

---

(١) رحلة ابن بطوطة : ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Dopp : Le Caire Vu; Tone 24, p. 112

(٣) Carrè : Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypte, p. 4.

لا يضاهون فى الكثرة القاهرة وحدها[٤] • وهنا نلاحظ أن هذه الأوصاف لم تقتصر على القاهرة فحسب ، بل امتدت حتى شملت غيرها من المدن المصرية المعروفة • فابن بطوطة أشاد أيضا بعظمة الاسكندرية ودمياط ، كما اهتم سانوتو — الذى زار مصر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى — بوصف رشيد وعظمتها[٥] •

وامتازت القاهرة فى ذلك العصر بكثرة منازلها وضيق دروبها وطرقاتها ، وعدم استقامتها ، واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب[٦] فبناء المنازل وغيرها من المنشآت وتخطيط الشوارع والطرقات لم يخضع لنظام أو قانون ، بل كثيرا ما شيد الناس منازلهم دون مراعاة لمقتضيات الطريق العام • ومع ضيق هذه الطرق ، لم ينقطع منها الضجيج لاكتظاظها بالناس[٧] ، فانتشر فيها الباعة الجائلون ، لا سيما أصحاب الطبليات والدكك المستديمة » حتى ضيقوا الطريق على المارة[٨] هذا فضلا عن أصحاب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة فى رقابهم يصيحون بصوت مرتفع ليسمعهم الراغبون فى قص الشعر والزينة[٩] • يضاف الى كل ذلك كثرة الدواب ، فالخيول المطهمة يركبها المماليك ويركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليفسحوا لهم ، غير مبالين اذا سقط بعض المارة تحت حوافز خيولهم[١٠] • والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما تحتاج اليه من الماء • وقدر البلوى المغربى هذه الجمال فى

(٤) Clerget : Le Caire; Tome 1; p. p. 152 — 153.

(٥) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 29.

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٤٦ ، جـ ٢ ص ١٨٧ •

(٧) Larrivaz : op. cit; p. 37.

(٨) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٨٠ •

(٩) Tafur : Travels, p. 101.

(١٠) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. XXXIII.

القاهرة فى القرن الثامن الهجرى بمائتى ألف جمل(١١) ، كما قارب عـدد السقائين خمسة آلاف سـقاء سجلوا أنفسهم عنـد المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة الحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل(١٢) • أما الحمير فبلغت عددا كبيرا لأنها قامت بدور سيارات الأجرة فى عصرنا ، فعنى أصحابها برشمها وتطهيمها(١٣) ، حتى يسـتأجرها الناس فى قضاء حاجاتهم وسفرياتهم نظرا لسرعتها ووداعتها(١٤) • وهكذا قدر ابن بطوطة عدد المكاريين فى القاهرة بثلاثين ألف مكارى(١٥) • وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة من فيها من مارة ودواب الى أن شدد المحتسب على أصحاب الدواب بأن « يشدوا فى أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلو جلبة الدابة اذا عبرت فى السوق ، فينحذر منها الضرير والانسان الغافل والصبيان وكذلك يفعل المكارية والتراسين وجمالين الحطب ومزابل الطين وغيرهم •• »(١٦) •

وزار مصر سنة ١٤٦٥ م التاجر الروسى باسيل Basile فقـال ان بالقاهرة أربعة آلاف شارع ودرب ، كل منها له بابان وحارسان • وفى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ، ولكل شارع سوق كبير لسد مطالب سكانه اليومية(١٧) • وفى الليل تضاء هذه الشوارع بالمصابيح وتغلق أبوابها ، وتشدد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأزقة وغلق الدروب وتفقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف ، ومن سار فى الليل لغير سبب مقبول قبض عليه • كذلك خصص بعض الأمراء والأجناد للطواف ليلا(١٨) •

---

(١١) رحلة البلوى المغربى ص ٥٥ •

(١٢) Dopp : Le Caire Vu, Tome 23- p. 144.

(١٣) Idem; p. 114.

(١٤) Tafur : Travels, p. 101.

(١٥) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٧ •

(١٦) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٢٤٠ — ٢٤١ •

(١٧) Dopp : Le Caire Vu, Tome 26, p. 107.

(١٨) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٩ •

أما سلاطين المماليك فاعتنوا بالقاهرة ، وعملوا على تجميلها بكنس الشوارع ورشها بالمياه منعا لاثارة الأتربة[١٩] . وذكر المقريزى أن الباعة كلفوا فى ذلك العصر بكنس الشوارع ورشها[٢٠] . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما يقع من الحريق[٢١] . واختص المشاعلية بأسربة البيوت والحمامات وخزاناتها ، فقاموا على كسحها وتنظيفها بين حين وآخر مقابل أجر معين[٢٢] . كذلك أمر بعض السلاطين — مثل بيبرس وبرقوق — باخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، وأنذروا من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل[٢٣] . هذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها ، فأمروا بامساكها ونفيها الى الجيزة ، وقرر على كل أمير أو تاجر عدد معين من الكلاب يجب أن يمسكها ويسلمها للوالى . وهكذا لجأ العوام الى اقتفاء أثر الكلاب لبيعها للتجار حتى بيع الكلب سنة ٧٨١ هـ بدرهم[٢٤] .

---

(١٩) Larrivaz : op. cit. 57.

(٢٠) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦٦٧ .

(٢١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٢٢) ابو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٤٨ .

(٢٣) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٤ هـ ص ٣١٠ (مطبوع) ، جـ ١١ سنة ٦٦٤ هـ ص ١١١ (مخطوط) ، العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ .

(٢٤) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ١٢٥ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٥٣ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٣١٧ .

ويبدو ان القطط تمتعت فى ذلك العصر بقسط من الرعاية والعطف يعدل ما عانته الكلاب من كره واضطهاد . وحكى لين انه سمع من أهل القاهرة أن السلطان الظاهر بيبرس انشأ بجوار جامعه حديقة أطلق عليها « غيط القطة » لاطعام القطط الشاردة فيها . فلما اندثرت معالم هذه الحديقة ، أصبح القاضى زمن لين — أى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى — هو الذى يقوم باطعام القطط كل يوم امام دار القضاء بالقاهرة .

(Lane : Manners- p. 287.)

الأســـواق :

وزخرت القاهرة بالأسواق التى حوت مختلف أصناف البضائع[٢٥] . وتشابهت هذه الأسواق فى كافة المدن المصرية من حيث نظامهـا ، كما يتضح ذلك من المقارنة بين وصف المقريزى لأسواق القاهرة ، والوصف الذى ورد فى قصص ألف ليلة لأسواق الاسكندرية[٢٦] ، والوصف الذى ذكره بعض الرحالة الغربيين لأسواق رشيد[٢٧] . ذلك أن كل سوق انفرد بنوع معين من البضائع ، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع ، وسوق الدجاجين ببيع الدجاج والطيور الداجنة ، وسوق السلاح ببيع القسى والنشاب ... وهكذا[٢٨] . ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفـع أسعار السلعة التى يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى اذا لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فانه يستطيع أن ينتقل بكل سهولة الى تاجر ثان وثالث دون أن يتحمل أدنى مشقة ، أما عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد اذا أراد شراء عدة أصـناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا عدة مرات حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع[٢٩] .

وامتازت حوانيت الأسواق بصغر حجمها ، حتى أن متوسـط مساحة الواحد منها بلغ خمسة أقدام مربعة يكدس فيها التاجر كل بضائعه ، ويحتفظ فى مقدمة الحانوت بمكان يشبه المصطبة يجلس عليه التاجر ومن يتردد عليه من العملاء والأصدقاء للمســاومة أو

---

(٢٥) Tafur : Travels, p. 100 & Schefer : op, cit; p. 48.

(٢٦) الف ليلة وليلة : قصة مريم الزنارية ص ٩٠ .

(٢٧) Laurent d'Arivieux : op, cit; p. 216.

(٢٨) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢٩) Lane — Poole : Social Life in Egypt, p. 4.

للحديث[٣٠] . ذلك أن الحوانيت فى ذلك العصر لم تتخذ محلا للبيع والشراء فحسب ، بل تردد فيها على التاجر معارفه وأصدقاؤه ليتناقلوا مختلف الحكايات والنوادر . ومن المألوف فى مصادر ذلك العصر أن نقرأ عبارة « وحدث أننى كنت جالسا ببعض الحوانيت ... »[٣١] أو عبارة « وحكى ذلك لأصحابه فى دكانه »[٣٢] أو عبارة « وكان يوما عنده فى حانوته فحكى له ... »[٣٣] ، مما يجعلنا نقدر أهمية الحوانيت فى ذلك العصر بوصفها مراكز اخبارية واجتماعية . وفرضت حكومة المماليك على حوانيت التجار رقابة شديدة ، فدأب المحتسب على أن « لا يمكن ذوى البيوع أن يغبنوا ضعفاء الرعايا وأغبياءهم ، ولا يفسح لهم أن يرفعوا على الحق أسعارهم ويبخسوا الناس أشياءهم .. »[٣٤] .

أما الأسواق الخاصة بالمآكل والمشارب فى عصر المماليك فلا يمكن احصاء ما فيها من أنواع الأطعمة ، فضلا عمن بها من الأشخاص[٣٥] . وساعد على ذلك أن الناس فى تلك العصور اعتادوا عدم طهى الطعام فى منازلهم ، وإنما يشترون ما يلزمهم مطهوا من الباعة . وفى ذلك يقول المقريزى إن أهل مصر كانوا « يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا »[٣٦] . وقد قدر برنارد دى بريدنباخ عدد المطاعم والمطابخ فى القاهرة بما يزيد عن اثنى عشر ألف مطعم ، هذا عدا باعة الطعام الذين يقطعون الشوارع جيئة وذهابا ومعهم الطعام

---

(٣٠) Idem : p. p. 5 — 6.

(٣١) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٤ .

(٣٢) سيرة الظاهر بيبرس .

(٣٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ١٧٦ ترجمة ابراهيم بن موسى بن بلال .

(٣٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١٢ .

(٣٥) المقريزى : الخطط : ج ٣ ص ١٥٣ .

(٣٦) المقريزى : كتاب المواعظ ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق) .

المطهى وتحتــه المواقد مشتعلة لبيعه ساخنا للمشترين[٣٧] • ووضع هؤلاء الباعة تحت رقابة شديدة من جانب الدولة حرصا على صــحة الأهالى ، فكان المحتسب — الذى روعى فيه أن « يكون ذا رأى وصرامة وخشونة فى الدين »[٣٨] — يفحص الأطعمة والمشروبات التى تباع بالطرقات للتأكد من جودتها وسلامتها ، فاذا وجد بعضها فاسدا أخذ البائع بالشــدة[٣٩] • كذلك أمر المحتسب باعة الطعام « بتغطية اوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار •• ويأمرهم بكثرة الأبازير وقلة الأمراق ونضاجة اللحوم والتعــاطى وغسل الأوعية التى يأكل فيها الناس بالماء النظيف »[٤٠] •

عــدم الاســتقرار الاقتصــادى :

ولم تكن القاهرة وأسواقها على حال ثابت من الهدوء والسكينة فى العصر المماليكى ، بل كثيرا ما تأثرت المدينة بعوامل اقتصــادية وسياسية أدت الى زعزعة الحالة فى الأسواق وإثارة القلق فى النفوس ، مما يترتب عليه تعطيل الحركة وإغلاق الحوانيت بين حين وآخر • وقد عدد المقريزى العوامل الرئيسية التى أدت الى القلق الاقتصــادى فى عصره ، فكان أولها زيف النقود المتداولة بين الناس • ذلك أن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس ، واختلفــوا فى تقديرها بالوزن ، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحيانا باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف • وفى جميع هذه الأحوال أرغم التجــار والأهالى على التعامل بها وفق القيمة التى تحددها الحكومة ، مما يضطر كثيرين الى إغلاق حوانيتهم خوفا من بخس بضائعهم • ويصحب هذه

---

(٣٧) Tafur : Travels, p. 74 & Larrivaz : op. cit; p. 50.

(٣٨) ابن الاخوة : معالم القربة فى احكام الحسبة ص ٨ •

(٣٩) السبكى : معيد النعم ص ٩٢ •

(٤٠) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٠٨ •

الحالة ارتفاع الأسعار وقلة الخبز ..[٤١] فيتزاحم العامة على الحوانيت « جريا على عادتهم فى مثل ذلك »[٤٢] .

ومن عوامل القلق الاقتصادى كذلك كثرة المنازعات والفتن بين أمراء المماليك وأحزابهم . فكثيرا ما قام المماليك بثورات « فيوالوا الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان »[٤٣] ، ثم ينتشرون فى الطرقات والأسواق لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل أحيانا يهجمون على النساء فى بيوتهن وفى الحمامات فيخطفوهن[٤٤] . وفى هذه الأحوال يغلق التجار حوانيتهم ويسرعون الى منازلهم ، كما تغلق الأبواب التى تفصل بين أحياء المدينة ودروبها . وربما استمر الحال على ذلك أسبوعا يقاسى الناس طواله أنواع الجوع والفوضى والفزع[٤٥] . وكان يكفى أن يرجف بموت سلطان[٤٦] أو هزيمة جنوده[٤٧] حتى تضطراب أحوال القاهرة على الوجه السابق . هذا كله بالاضافة الى العامل الطبيعى المرتبط بانخفاض فيضان النيل فى بعض السنوات ، وما كان يترتب على ذلك من نقص الأقوات وارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة كما حدث سنة ٦٣٢ هـ[٤٨] .

---

(٤١) المقريزى : اغاثة الامة ص ٤٧ وما بعدها ، السلوك ج ٢ ص ١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٤٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٠ .

(٤٣) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .

(٤٤) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤ ، ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٤٥) Clerget : op. cit; Tome 1, p. 151 & Lane — Poole : A Hist of Egypt. p. 245.

(٤٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٤٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٤٨) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

المنشــآت الاجتماعية :

امتازت القاهرة ــ وغيرها من المدن ذات الأهمية التجارية فى عصر المماليك ــ بكثرة المنشآت الاجتماعية المتنوعة • وكان من هذه المنشآت ما هو خاص بالمسافرين والتجار مثل الفنادق والخانات والوكالات ، ومنهــا ما هو عــام لجميع أهــل المدينــة مثــل الأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها •

وقد لحظ ابن بطوطة كثرة المنشآت الخاصة بالمســافرين ــ مثل الفنادق والخانات والوكالات ــ فى مختلف البلاد المصرية التى زارها • وذكر أن من ملحقات هذه المنشآت سبيلا للمــاء وحانوتا يشترى منه المسافر ما يحتاج اليه[٤٩] • أما الفنادق فآوت التجار وغير التجار من الأوربيين ، وإن كان بعضها خصص لجنس معين من الأجانب الوافدين من بلد واحد[٥٠] • وكما كانت هناك فنادق للجنوبيين والبنادقة وغيرهم من أهالى البلاد الغربية ، وجدت كذلك فى المدن المصرية ذات الأهمية التجارية وكالات أو خانات لاستقبال التجــار الأتراك واليمنيين والهنودوالفرس والمغاربة وغيرهم[٥١] • وقد وصف بعض الرحالة وكالات رشيد فى العصر المماليكى بأنها متســـعة الردهات ممتازة بالنظافة وحسن النظام[٥٢] •

أما المنشآت الاجتماعية غير الخاصة بالمسافرين والتجار فأولها الأسبلة • وكان الغرض من السبيل تيسير الحصول على ماء الشرب ، ولذلك اهتــم سلاطين المماليــك بانشاء أسبلة للنــاس فى مختلف المواضع[٥٣] ، وإن كانت العادة قد جرت بأن يلحق السبيل غالبا بأحد

---

(٤٩) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١١٠ •

(٥٠) انظر ما سبق ذكره عن الفنادق فى الفصل الأول •

(٥١) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 48.

(٥٢) Laurent d'Arivieux : op. cit, p. 216.

(٥٣) السيوطى : تاريخ الأشرف قايتباى ص ٧ ب •

المساجد • وقد قام بتسبيل الماء فى السبيل المزملاتى الذى يؤدى عمله فى الأوقات المحددة فى الأيام العادية وفى شهر رمضان • وكانت بعض الأسـبلة لا تفتح الا بين صلاة الظهر والعصر فى وقت الحـر الشديد • وتمتعت هذه الأسـبلة بأوقاف للانفاق عليها منها ، وكثيرا ما اشترط الواقفون فى المزملاتى شروطا جسمية وخلقية خاصة ، كأن يكون سـالما من العاهات والأمراض — وبخاصة الجذام — « وأن يسول الشرب على الناس ويعاملهم بالحسنى والرفق ليكون أبلغ فى إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة »(٥٤) • واستخدمت فى الأسـبلة آلات متنوعة منها سلب من الليـف أو الكتان وأدلية جلد وبكر وآنية شرب وسفنج لمسح أرض السبيل ، وبخور لتبخير الأوانى ، ومكانس وطشوت وأسطال نحاس ، ومواجير وكيزان وأباريق وتلل فخار وغيرها(٥٥) • وبالاضـافة الى الأسـبلة التى يشرب الناس منها مجانا ، وجد أناس محترفون يتكسبون من وراء سقاية المارة بالأسواق ، وهؤلاء هم سـقائو الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء • « أما سقاة الماء فى الكيزان فيؤمرون بنظافة أزيارهم وتغطيتها وافتقادها بالغسل بعد كل قليل من الوسخ المتجمع فيها ، ويغسلوا الكيزان ويجلوها بشقفها وبالأشـنان فى كل يـوم ويبخروها ، فانها تتغير من أفمام الناس ونكهتهم ••• وينبغى أن يتخذ للأزيار أغطية من خوص مصلبة بجريد ، ولا يسقى أحد من كوز الزير ، ولا يدخل يده فى الزير وهى زفرة ، ويجتهد فى نظافة حانوته وبدنه وثيابه ••• »(٥٦) •

أما الحيوانات فقد عملت لها أحواض الشرب ، كانت تقـام غالبا قرب أسوار المدن وخارج تلك الأسوار •

---

(٥٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية ، تحقيق ٦٦٨ ص ٥٠ •

(٥٥) نفس المرجع السابق والصفحة ، تحقيق ٦٦٩ •

(٥٦) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٢٣٩ •

واعتنى سلاطين المماليك كذلك بأمر المرضى . وخير ما ينطق بهذه العناية البيمارستان المنصورى الذى شيده المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ والذى مـلأت شهرته المصادر . فابن بطوطة يقـول عنه « يعجز الواصف عن محاسنه »(٥٧) ، والبلوى المغربى وصفه بأنه « قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا واتساعا لم يعهـد مثله بقطر من الأقطار »(٥٨) . وكان هذا المارستان مقسما الى أربعـة أقسام كبيرة ، قسم للحميات وقسم للرمد وقسم للجراحة وقسـم للنساء(٥٩) . وخصص لكل مريض به فرش كامل « من التخـوت والطراريح والمخدات واللحف والملاءات »(٦٠) . كذلك عين له الأطباء لعلاج المرضى ، والصيدلية لتركيب الأدوية وتجهيزها والفراشـين والفراشات لخدمة المرضى وغسل ثيابهم ، كما زود بمطبخ كبـير لاعداد الطعام اللازم المرضى(٦١) . ولم يوقف هذا البيمارستان وأمثاله على طبقة معينة من الناس ، وإنما أوقفه قلاوون على « الملك والمملوك ، والكبير والصغير والحر والعبـد »(٦٢) . وعنـدما يبرأ المريض ويصرح له بالخروج يعطى احسانا كما ينعم عليه بكسوة(٦٣) . كذلك لم تقتصر فائدة هذا البيمارستان على النازلين به من المرضى ، وانما رتب أيضا للذين يؤثرون البقاء فى منازلهم كل ما يحتاجون اليه من الأدوية والأشربة والأغذية ، حتى زاد عدد هذا الفريق فى بعض الأحيان على المائتين(٦٤) . يضاف الى ذلك المرضى الذين يحضرون

---

(٥٧) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٠ — ٧١ .

(٥٨) رحلة البلوى المغربى ص ٥٦ أ .

(٥٩) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٦٠ .

(٦٠) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٠٧ .

(٦١) رحلة البلوى المغربى ص ٥٦ ب ، خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٥٩ ، نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٠٧ تحقيق الباز العرينى .

(٦٢) تاريخ ابن الفرات جـ ١٥ ص ٨ .

(٦٣) رحلة البلوى المغربى ص ٥٦ ب .

(٦٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٠٨ (تحقيق العرينى) .

الى المستشفى للكشف عليهم واعطائهم ما يلزمهم من دواء ، ثم ينصرفون بعد ذلك — وهو ما نسميه فى مستشفياتنا الحديثة قسم العيادة الخارجية • وهكذا قدر عـدد الداخلين الى البيمارسـتان المنصورى والخارجين منه فى اليوم الواحد بعدة آلاف[٦٥] •

وقد أدت عناية سلاطين المماليك بالشئون الصحية وأمر المرضى الى اهتمامهم بمهنة الطب بوجه عام ، فألحقوا بالبيمارستان دراسة الطب فيجلس به « رئيس الأطباء لالقاء درس طب ينتفع به الطلبة »[٦٦] • أما رئيس الأطباء — أو مقدمهم — فجرت العادة فى عصر المماليك أن يعين بتوقيع من السلطان ، ثم يصبح هذا المقدم هو المتصرف فى اعطاء تصريحات مزاولة مهنة الطب للافراد أو حرمانهم منها[٦٧] • وقد نصت كتب الحسبة المعاصرة على أن يقوم مقدم الاطباء بامتحانهم « فمن وجده مقصرا فى عمله أمره بالاشتغال وقراءة العلم ونهاه عن المداواة »[٦٨] • وتدل كثير من الشواهد على مهارة الأطباء فى ذلك العصر[٦٩] ، كما يظهر لنا القصص الشعبى المعاصر مدى دلال الاطباء على الناس ، فاذا احتاج فرد الى طبيب بالليل لا يلبى نداءة « الا اذا أتى بالأموال والخيـل المسرجة والبغال •• »[٧٠] •

وثمة نوع من المنشآت الاجتماعية الهامة زخرت بها المدن المصرية فى العصور الوسطى ، هى الحمامات العامة التى قصدها النـاس من

---

(٦٥) وقد قدرهم البلوى المغربى باربعة آلاف نفس (ص ٥٦ ب) .

(٦٦) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٦٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٠٨ .

(٦٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٧٧ — ٣٨٤ .

(٦٨) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٦٩) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٧٩ ترجمة عـلى بن عبد الواحد ، انباء الغمر جـ ١ ص ٣٧٧ .

(٧٠) Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt; p. p. 21 — 34.

مختلف الطبقات — رجالا ونساءا — للاستحمام . ذلك أن النـاس فى ذلك الوقت لم يألفوا الاستحمام فى منازلهم ، ولم توجد الحمامات الا فى قصور الامراء . ويروى ابن الحاج — فى عصر سلاطين المماليك — أن « الواحد يشترى الدار أو يبنيها بنحو الألف، ولا يعمل بها موضعا للوضوء أو الغسل »[٧١] . لذلك طالب بعض الكتاب المعاصرين المحتسب بأن يأمر بفتح الحمامات العامة وقت السحر « لحاجة الناس اليها للتطهر فيها قبل وقت الصلاة »[٧٢] .

وقد عدد المقريزى حمامات القاهرة ومصر (الفسطاط) على أيامه ، فذكر أن بعضها خاص بالرجال ، وبعضها خاص بالنساء ، وبعضها يفتح للرجال قبل الظهر والنساء بعد ذلك[٧٣] . واعتبر ابن خلدون كثرة الحمامات فى المدن من مظاهر الترف والغنى ، وما يسـتتبعه ذلك من الرغبة فى التنعم[٧٤] . أما عبد اللطيف البغدادى فوصـف حمامات القاهرة بأنه لم يشاهد فى كافة البلاد « أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا »[٧٥] . كذلك روى ابن اياس أن السلطان سـليم العثمانى عندما دخل حماما ببولاق سنة ٩٢٣ هـ ، أنعم على الحمـامى « وأعجبته الحمام وشكرها »[٧٦] .

ولم تتعرض المؤلفات التاريخية لوصف الحمامات العامة وتصميمها فى ذلك العصر ، على أنه من الممكن أن نحصل على صورة طيبـة لتلك الحمامات من الوثائق والحجج الشرعية المعاصرة . من ذلـك ما جاء فى احدى هذه الحجج من أن « الحمام المذكورة تشتمل على مسـلخ

---

(٧١) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٧٠ .
(٧٢) ابن الاخوة : معالم القربة ص ١٥٦ .
(٧٣) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٢٩ — ١٤٠ .
(٧٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٢ .
(٧٥) عبد اللطيف البغدادى : اخبار مصر ص ١٦٦ .
(٧٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٦ .

مرخم ، وبيت أول به حوضان ، وبيت حرارة به أربعة أحواض ، وجرن ، وخلوة ، ومغطس ، مفروش ذلك بالرخام ، معقود ومطبق بجامات من الزجاج الملون . وبدهليز الحمام المتوصل اليه من الباب الذى بالواجهة زلاقة موصلة للبير والساقية المعدين لذلك ، وسلم يتوصل منه للرواق به منافع وحقوق مطل على الطريق ، ودهليز يتوصل منه لباب الطريق المسلوك المذكورة التى فيها مطل طاقات الرواق المذكور ، وبها باب يتوصل منه لمستوقد الحمام وما لذلك من المنافع والمرافق والحقوق ... »[٧٧] .

وبمقارنة هذه الأوصاف للحمام فى عصر المماليك بما ذكره لين عن الحمامات العامة فى القاهرة فى القرن التاسع عشر ، يمكن القول بأن باب الحمام كان يؤدى الى مسلخ « مرخم به ثلاثة أواوين »[٧٨] وكانت هذه الأواوين كالمصاطب مكسوة بالرخام : حيث يستريح طالب الاستحمام . ومن المسلخ ينتقل المستحم الى بيت أول حيث ينزع ملابسه ، وتمتاز غرفة بيت أول هذه بالدفء ، وسميت كذلك لأنها أولى الغرف الدافئة[٧٩] . وعندمايخلع المستحم ملابسه يضع حول وسطه فوطة تصل الى الركبتين ، ثم ينتقل الى الغرفة الرئيسية المسماة بيت حرارة « به أربعة أواوين بكل واحد منها حوض حجرا وبه أيضا خلوتان وطهر وبيت نورة »[٨٠] . وفى بيت الحرارة هذا يقوم عامل الحمام بتدليك جسد المستحم وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بالمغطس . وبعد الاستحمام يجفف المستحم جسمه بالمناشف ، ويزيل البلان الشعر

---

(٧٧) وثيقة أوقف الغورى على عمائره بالحرابشيين (أرشيف وزارة الاوقاف رقم ٨٨٣) ، وقد نشر هذه الوثيقة وعلق عليها وحققها وشرح ما فيها من مسائل تاريخية واثرية الزميل الاستاذ الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على « دراسات تاريخية واثرية .. » .

(٧٨) وثيقة وقف الغورى (٨٨٣ أوقاف) .

(٧٩) Lane : Manners Vol 2, p. 38.

(٨٠) وثيقة وقف الغورى (٨٨٣ أوقاف) .

من بعض المواضع — اذا لزم — ثم ينصرف المتحم الى غرفة « بيت أول » حيث يقضى بعض الوقت فلا يغادر الحمام مباشرة معرضا نفسه للهواء البارد . أما المياه اللازمة للحمام فكانت تجلب بواسطة « ساقية خشب مركبة على فوهة بير » ، فترفعها الساقية الى « مستوقد الحمام » حيث يسخن الماء فى مرجل كبير[٨١] .

على أن أهمية الحمام فى العصر المماليكى لم تقتصر على أنها مكان لنظافة البدن فحسب ، بل كانت مركزا اجتماعيا كذلك ، فالمريض اذا دخل الحمام اعتبر ذلك اعلانا اشفاءه[٨٢] . والعريس أو العروس يجب على كل منهما أن يدخل الحمام قبل حفل الزفاف ، فيعتبر هذا الحادث عيدا من الأعياد العائلية الرائعة . وفى الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات فيتناقلن أخبار الناس ويقصصن على بعضهن كثيرا من أخبارهن وحياتهن المنزلية[٨٣] . والى الحمام تتجه المرأة التى لا يراها الناس الا محجبة ، فتكشف عن عورتها للبلانة « والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال ! »[٨٤] وتكون المرأة فى هذه الحالة قد استصحبت معها أفخر ثيابها وأنفس حليها لتلبسها بعد الاستحمام ، حتى يراها غيرها « فتقع المفاخرة والمباهاة »[٨٥] . لذلك لا عجب اذا أكثر أدباء عصر المماليك وشعراؤه من وصف الحبيب فى الحمام[٨٦] . ويبدو أن هذا كان سببا دفع بعض فقهاء ذلك العصر الى النفور من الحمام . فالسيوطى يبيحه للرجال بشروط ، ويقول

---

(٨١) الوثيقة السابقة .

(٨٢) ابو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٣ ترجمة أكرم بن هبة اله .

(٨٣) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ .

(٨٤) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٥٧ .

(٨٥) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١٧٣ .

(٨٦) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ٢٣٠ ، ابن دانيال : طيف الخيال ص ١١٨ .

أنه مكروه للنساء الا فى حالات خاصة[٨٧] . وابن الحاج يعيب على معاصريه من الرجال كشف عاناتهم للبلان فى الحمام لازالة الشعر منها[٨٨] ، كما ينصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام « لما اشتمل عليه فى هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة »[٨٩] .

وتؤدى بنا العبارة الأخيرة لابن الحاج الى الاشارة الى أن الناس قصدوا الحمام فى ذلك العصر للحلاقة وازالة الشعر من الجسد ، فضلا عن الاستحمام ، وكان على المزين صاحب النوبة فى الحمام أن يستعمل الأمواس الجيدة المصنوعة من الفولاذ « وأن يكون المزين خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة ، وتكون الأمواس جديدة قاطعة .. ولا يأكل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكراث فى يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عند الحلاقة .. »[٩٠] .

السجون والعقوبات :

وعنى سلاطين المماليك بالسجون ، فاهتم السلطان الناصر محمد بتجديدها سنة ٧٢٩ هـ ، وكذلك المؤيد شيخ سنة ٨٢٠ هـ[٩١] . وذكر المقريزى عدة سجون بالقاهرة المماليكية ، فوصف بعضها بأن أمرها مهول « من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة والقبائح المهولة »[٩٢] وجعلت هذه السجون على أنواع منها ما هو خاص بسجن الأمراء والمماليك والجند — مثل خزانة البنود ، ومنها ما هو

---

(٨٧) السيوطى : ملتقى الينبوع ورقة ٤ .

(٨٨) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢٣٨ .

(٨٩) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٢ .

(٩٠) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٥٦ .

(٩١) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٩٢ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٢١ ، زيترشتين : تاريخ المماليك ص ١٨٠ .

(٩٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٧ وما بعدها ، بولاق .

خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم[٩٣] — مثل خزانة شمائل وحبس المعونة ، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات مثل سجن الحجرة[٩٤] . وتبعت سجون القاهرة ومصر فى عهد المماليك سلطات متنوعة بسبب تمييز القوانين الشرعية القائمة بين الحبس — وهو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه — ، وبين السجن — وهو الاعتقال فى مكان حرج ضيق . يضاف الى ذلك ما هنالك من تفاوت فى أنواع الجريمة والعقوبة واختصاص السلطة بنوع معين من الجرائم[٩٥] . ومن المكوس التى قررت فى عصر المماليك أن كل من يسجن — ولو لحظة واحدة — يجب أن يدفع رسما معينا قدره أبو المحاسن بمائة درهم[٩٦] ، وقدره المقريزى « بستة دراهم سوى كلف أخرى »[٩٧] . وظل هذا المكس ساريا حتى أبطله الناصر محمد سنة ٧١٥ هـ .

ويبدو أن المسجونين فى عصر المماليك قاسوا الكثير من الشدائد والأهوال ، ليس فقط بسبب سوء أحوال السجون — كما يتضح من الوصف السابق للمقريزى — بل بسبب نسيان السلطات الحاكمة اياهم حتى كانوا يقضون أحيانا ثلاثة أيام كاملة دون أن يذوقوا شيئا ، مما دفعهم فى احدى المرات سنة ٨٥٠ هـ الى قتل سجانهم وخروجهم من السجن عن آخرهم[٩٨] . أما المحكوم عليهم بالسجن المؤبد[٩٩] ،

---

(٩٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٨٦ — ٦٨٧ .

(٩٤) نفس المصدر والجزء ص ٤٩١ .

(٩٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥١٩ حاشية ١ للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٩٦) ابو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٤٦ .

(٩٧) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٥٠ ، الخطط جـ ١ ص ٨٩ (بولاق) .

(٩٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٧٦١ .

(٩٩) العينى : عقد الجمان سنة ٨٢٧ هـ .

فكثيرا ما كانت تأخذ الشفقة السلاطين ويطلقون سراحهم بعد مدة من الزمن « ظنا أن فى ذلك قربة بالله المستعان »[١٠٠] • فاذا حكم على سجين بالاعدام ، سلم للمشاعلى لتنفيذ الحكم فيه بواسطة السيف • والواقع ان عملية تنفيذ عقوبة الاعدام انطوت على كثير من العنف والقسوة فى ذلك العصر • فكثيرا ما أخطأ المشاعلى عنق المحكوم عليه فى أول ضربة فيضربه بالسيف ثانية وثالثة حتى يصيب عنقه • فاذا لم ينفصل الرأس عن الجسد ، لجأ المشاعلى الى حز الرقبة عدة مرات حتى ينجز مهمته[١٠١] • ثم يطوف المشاعلى بعد ذلك بالرأس المقطوعة فى أنحاء المدينة حتى يراها كافة الناس للعظة والاعتبار[١٠٢] • واستخدم السلاطين أحيانا طريق التغريق لتنفيذ الاعدام ، فيؤخذ المحكوم عليه الى حيث يغرق فى المياه[١٠٣] •

وهناك طرق أخرى كثيرة للعقاب ــ عدا السجن والاعدام ــ يتفنن الحكام فى تنفيذها • ومن هذه التشهير والتجريس ، وهى أن يطاف بالشخص على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه والمشاعلية تنادى عليه ليجتمع الناس حوله . وأحيانا تزفه المغانى « ويوضع فى عنقه ماشة وهون » • وفى نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابا له على ذنبه[١٠٤] • ومن هذه العقوبات كذلك العصر بالمعصرة ، وهى

---

(١٠٠) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٧٨ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦٦٧ ، ٧٦١ .

(١٠١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٨٩١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ص ٣١٢ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٨١٥ هـ .

(١٠٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٣ ص ١٥٦ .

(١٠٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٣٩ ، حوادث الدهور جـ ٣ ص ٤٧٩ ، تاريخ ابن الفرات ص ٢٦١ .

(١٠٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٩٨ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٦٣ ب ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١١٧ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٩٣ ـــ ٣٩٤ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٠ .

آلة تتكون من خشبتين مربوطتين بحبل ، يوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ، ثم تشد الخشبتان[١٠٥] . وقد استخدمت هذه الوسيلة غالبا لاجبار المذنب على الاعتراف بذنبه[١٠٦] . أما عقوبة التسمير فتعنى دق بعض أعضاء المذنب فى لوح خشب بواسطة مسامير غلاظ ، وأحيانا يوضع وهو بهذه الصورة على جمل ليشهر بالقاهرة ، فاذا حصلت له شفاعة نزعوا المسامير من جسده[١٠٧] . أما اذا لم تحدث له شفاعة فينتهى أمره غالبا بأن يوسط ، ومعنى التوسيط ضربه بواسطة السيف بقوة قرب وسطه — أسفل السرة — فينقسم جسمه الى نصفين[١٠٨] .

واستخدم الضرب كذلك فى عقاب المذنبين ، ويكون الضرب على أى جزء من أجزاء الجسم سواء الرأس أو الجسد أو القدمين ، وتستعمل فيه المقرعة أو العصا أو الدرة أو الضفيرة الخوص[١٠٩] . وبلغ من قسوة هذا الضرب أحيانا ما يحكى عن السلطان قايتباى أنه أمر سنة ٨٧٢ هـ بضرب أحد الاشخاص ، فضربه بعض الخدم ضربا لم يعجب السلطان ، فقام قايتباى وأخذ العصا وضربه بنفسه بحيث « أن كل ضربة صارت تدمى فى الحال ، وتلوث جماعة من الحاضرين بالدم ! »[١١٠] . ويظهر أن بعض سلاطين المماليك أحس بما فى

---

(١٠٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣ .

(١٠٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٥ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٥٠ .

(١٠٧) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٢٩ ، ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ٢ ص ٥ .

(١٠٨) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٠٤ حاشية ١ .

(١٠٩) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٥ ، سيرة الظاهر بيبرس جـ ٨ ص ١٩ .

(١١٠) ابو المحاسن . حوادث الدهور جـ ٣ ص ٦٢٤ ، النجوم جـ ٥ ص ٢٦٢ .

ذلك النوع من العقاب من وحشية ، فأمر الناصر محمد سنة ٧٣٦ هـ بابطال الضرب بالمقارع من سائر مملكته ، وكتب بذلك مراسيم كثيرة قرئت على المنابر بمصر والشام ؛ ولكن لم يعمل بها[١١١] .

على أن الضرب مهما بلغت قسوته وشدته فانه بلاشك أخف كثيرا من أنواع التعذيب الوحشية التى استخدمت فى عصر سلاطين المماليك . ومن هذه الأنواع قلع أضراس المذنب وأسنانه ثم دقها فى رأسه[١١٢] ؛ وغرس خازوق بالأرض لرفع المذنب على قمته[١١٣] ، وتسخين طاسة من المعدن وإلباسها للمذنب فى رأسه ، أو تسخين دست وإجلاسه عليه[١١٤] . ومنها كذلك قطع بعض أجزاء من جسد المذنب كالأنف أو الأذن أو اللسان أو تكحيل عينيه بالنار[١١٥] . ونعل الشخص فى قدميه كما تنعل الخيل ، أو تعليقه من يديه وربط أثقال فى قدميه حتى تنخلع أعضاؤه[١١٦] .

روح المرح ووسائل التسلية :

على أن خضوع مصر الأرستقراطية حاكمة من المماليك تفننت فى استغلال البلاد وأهلها ، لم يفقد المصريين روح المرح التى عرفوا بها فى كل زمان ومكان . وقد وصف المقريزى أهل مصر بأن من أخلاقهم « الانهماك فى الشهوات ، والامعان فى الملاذ ، وكثرة الاستهتار وعدم

---

(١١١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ص ١٥١ ، أبو المحاسن : مورد اللطافة ص ٦٤ .

(١١٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٧٢ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٢٣ ، تاريخ الجزرى جـ ٢ ص ٢٠ .

(١١٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٢١٥ .

(١١٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٤٠٤ .

(١١٥) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٥٩٤ ، ٧٩٧ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٦٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٥٣ .

(١١٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٣٢٣ .

المبالاة »(١١٧) . وأدهشت هذه الروح العالم ابن خلدون عندما نزح الى مصر ، فوصف أهلها بأنهم « كأنما فرغوا من الحساب !! »(١١٨) . ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة ، فان هـذه الروح لم يضعفها حرمان الأهالى من المشاركة فى حكم بلادهم أو قسوة الحكام فى عقاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد ، أو حتى الأوبئة التى تعرضت لها مصر بين حين وآخر فى عصر المماليك . من ذلك ما قيل أنه حدث أثناء الوباء الذى اجتاح البلاد سنة ٨٥٣ هـ — وهو الوباء الذى كان يحصد من أهل القاهرة فى اليوم الواحد عشرة آلاف شخص — أن شوهد الناس فى شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون(١١٩) ، ومبدؤهم فى ذلك هو حمد الله « الذى جعل فى المزاح سلوة الهم والارتواح »(١٢٠) ! . كذلك حكى المقريزى أنه عندما انتشر الوباء وتوقفت زيادة النيل وغلت الأسعار فى مصر سنة ٧٠٩ هـ ، كان العامة يغنون فى شوارع القاهرة « سلطاننا ركين (يقصدون ركن الدين بيبرس) ، ونائبنا دقين (يقصدون الأمير سلار ولم يكن بلحيته سوى شعيرات قليلة) ، يجينا الماء منين ؟ جيبوا لنا الأعرج (النـــاصر محمد) ، يجى الماء ويدحرج »(١٢١) ! . وعندما ضاق الناس ذرعا بالأمير قرقماس الشعبانى سنة ٨٤٢ هـ ، صاروا يرددون فى الأسواق « الفقر والافلاس ولاذلتك يا قرقماس » . وهكذا وجد الناس فى حياة المرح نوعا من التنفيس عما كانوا يتعرضون له من شدائد وحرمان ، وظهرت هذه الروح قوية واضحة فى بعض الالقاب التى خلعهـــا عامة الناس على بعض أمراء المماليك ، مثل الامير عز الدين ايفان المعروف « بسم الموت »(١٢٢) والأمير قطلو بغا الفخرى « المعروف

---

(١١٧) المقريزى : كتاب المواعظ ، جـ ١ ص ٥٠ (بولاق) .
(١١٨) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(١١٩) أبو المحاسن . حوادث الدهور جـ ١ ص ٨٩ .
(١٢٠) جورج يعقوب : طيف الخيال جـ ٢ ص ٢٥ .
(١٢١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٥ .
(١٢٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٢٣ .

بالفول المقشر » والأمير طشتمر البدرى « المعروف بحمص أخضر »[١٢٣] ، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصرى « المعروف بالدم الأسود »[١٢٤] ، وناصر الدين متولى حسبة مصر « المعروف بفأر السقوف »[١٢٥] ! وتبدو هذه الروح قوية واضحة فى البلاليق ، وهى أنواع من النظم عرفت فى ذلك العصر ، تمتاز بخفة الروح وتتضمن كثيرا من ألوان المداعبات والفكاهة . وهنا نلاحظ أن روح المرح لم تقتصر على فئة دون أخرى من فئات المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، بل شملت جميع الفئات وطبقات المجتمع ، حتى المحافظين من الفقهاء وأهل العلم[١٢٦] . من ذلك ما رواه ابن بطوطة من أن قوام الدين الكرمانى — وهو من كبار علماء مصر — اعتاد أن يذهب الى مواضع الفرح والنزهات منفردا عن أصحابه بعد صلاة العصر[١٢٧] . وهكذا اكتسبت مصر فى ذلك العصر شهرة واسعة فى اللهو والمرح ، حتى أن الناصر بن صاحب اليمن[١٢٨] عندما أراد العودة الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد ما قضى بمصر أربعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصناع والمساخر وأرباب الملاهى »[١٢٩] . ولا عجب إذ وصف ابن بطوطة أهل مصر بأنهم « ذو طرب وسرور ولهو »[١٣٠] ، فى حين ذكر بيلوتى الكريتى أن ماء النيل من خصائصه أن يجعل الناس دائما مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان[١٣١] .

---

(١٢٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٣٤ .
(١٢٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٤١ .
(١٢٥) نفس المصدر والجزء ص ٦٤٤ .
(١٢٦) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ٥٩٣ — ٥٩٤ .
(١٢٧) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٩١ .
(١٢٨) كان صاحب اليمن فى هذه السنة هو الملك المجاهد سيف الدين على بن داود ، انظر زامباور ص ١٨٤ .
(١٢٩) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٧ .
(١٣٠) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٠ .
(١٣١) Dopp : L'Egypte...; p. 9.

وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس فى مصر فى العصر المماليكى . فمن هذه الوسائل خروج الناس الى الحدائق والمتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها(١٣٢) . كذلك اشتهرت جزيرة الروضة بأنها غدت منذ عهد الظاهر بيبرس « فرجا ومتنزهات »(١٣٣) حتى وصفها ابن بطوطة بأنها « مكان النزهة والتفرج »(١٣٤) . والواقع إن الناس فى عصر المماليك اهتموا اهتماما بالغا باستغلال النيل والتنعم بمناظره وهوائه ، فزرعوا على شواطئه الحدائق الغناء الغنية بأشجارها(١٣٥) ، ولجأ بعضهم — لا سيما أيام الفيضان صيفا — الى استئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغانى وجوقات العوالم معهم(١٣٦) . وتمتعت بولاق أيضا بشهرة واسعة فى ميدان اللهو فى ذلك العصر ، فقصدها الناس وأقاموا فيها الأخصاص (التى تقوم مقامها فى أيامنا الشاليهات والكبائن) ، وزرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام والدهان ، حتى بلغ ما ينفق على الخص الواحد منها بين ألفين وثلاثة آلاف درهم(١٣٧) . وهناك اعتاد أن يزدحم المتنزهون من الرجال والنساء ، ويتبعهم عدد عظيم من الباعة ، فيختلط الناس فى غير كلفة أو حجاب(١٣٨) .

---

(١٣٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .

(١٣٣) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١١٠ ، السيوطى : بلبل الروضة ، كوكب الروضة .

(١٣٤) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .

(١٣٥) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢١٤
Larrivaz : Op. cit., p. 51 &

(١٣٦) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ ، خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ .

(١٣٧) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠ .

(١٣٨) ابن اياس : بدائع الزهور (صفحات لم تنشر) ص ١١٥ سنة ٨٦٦ هـ .

كذلك اهتم الناس فى عصر المماليك اهتماما كبيرا بأنواع الموسيقى والغناء . ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة فى ذلك العصر ، تشجيع السلاطين واغداقهم على المغنيين والمغنيات ، ثم انتقال الأغانى الى الناس عن طريق السماع . وقد وصف أحد علماء الأزهـر فى ذلك العصر بأنه اشتهر بالتقشف والبعد عن زخرف الدنيا ، ولكن مع ميل « الى سماع المغانى والرقص واللهو »[١٣٩] . كذلك حكى عن أحد الفقهاء أنه سمع بمغنية شهيرة تغنى فى مكان معين ، فترك شيخه بعد الصلاة وتسلل خفية لسماعها ، فلما عرف شيخه سـبب غيابه قال له عند عودته « أمرها عندى خفيف »[١٤٠] ! . لذلك لا عجب اذا وجدنا أدباء عصر المماليك وشعراءه يكثرون من ذكر الغنـاء والمغنيات فى شعرهم ونثرهم[١٤١] . كذلك ترددت فى مصادر ذلك العصر أسماء كثيرين من المغنين والمغنيات ، يصحبها اشارات تدل على عظم مكانتهم فى المجتمع ، مثل عبد العزيز الحفنى المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، وقد وصف بأنه أعجوبة زمانه فى فن الغناء[١٤٢] ، وخديجة الرحابية المتوفاة سنة ٨٨٧ هـ وكانت ذات حظوة كبيرة عند أهل الدولة[١٤٣] ، وخوبى العوادة التى التى قيل عنها أنه لم يدخل مصر

---

(١٣٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٦ .

(١٤٠) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٦ .

(١٤١) من ذلك ما نظمه أحد الأدباء وقد استاذنت عليه مغنية فى الدخول :

ادخـل تدخـل علينا سرورا ... انت واللـه نزهـة العشاق

لا تميـلى الى الخروج سريعـا ... تخـرجى عن مكارم الاخـلاق

ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٦ ترجمة صفى الدين حجازى بن أحمـد .

(١٤٢) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٨٤ .

(١٤٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٣٣ ترجمة خديجة الرحابية ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٠٧ .

مثلها فى الغناء وضرب العود[١٤٤] ، وناصر الدين محمد المـــازونى « أستاذ فن النشـــيد »[١٤٥] . وقد ذكر المقريزى فى حوادث ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ أسماء « خمسة من المشهورين لم يخلفوا بعدهم مثلهم فى مغناهم »[١٤٦] .

وفرضت الدولة على المغنين والمغنيات فى ذلك العصر ضريبة عرفت باسم « ضمان المغانى » ، استمرت حتى ألغاها السلطان شعبان سنة ٧٧٨ هـ[١٤٧] . أما الآلات الموسيقية التى استخدمت فى عصر المماليك فكثيرة ومتنوعة منها « الطبول والزمور والكمنجة والقانون والعود والرباب والطنبورة والساجات والرق النقارات »[١٤٨] . وقد أدى اهتمام الناس بالموسيقى فى ذلك العصر أن ألف بعضـــهم « التصانيف المفيدة فى الموسيقى »[١٤٩] . وممن اشتهر بالبراعة فى فن الموسيقى فى ذلك العصر الأمير إشقتمر الماردينى المتوفى ســنة ٧٩١ هـ[١٥٠] ، والفقيه أحمد بن بركوت[١٥١] ، والأديب محمد بن على ابن عمر المازنى[١٥٢] .

ومن وسائل التسلية التى شاعت فى مصر على عصر المماليك بوجه

---

(١٤٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٩٥ ترجمة خوبى العوادة .

(١٤٥) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٥٤ .

(١٤٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٧٦ (تحقيق الباحث) .

(١٤٧) العينى : عقد الجمان سنة ٧٧٨ هـ ، ابن حجر : انباء الغمر ص ٧١ .

(١٤٨) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٤٩ ص ٨ .

(١٤٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٦١ .

(١٥٠) العينى عقد الجمان سنة ٧٩١ هـ ، وكذلك أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ سنة ٧٩١ هـ .

(١٥١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(١٥٢) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٧٨ .

خاص خيال الظل ، الذى قيل أنه انتقل من الهند الى الصين ومن الصين الى بلاد العالم الاسلامى[١٥٣] . وتعرف تمثيليات خيال الظل باسم البابات ومفردها بابة . أما طريقة عرض هذه التمثيليات فتتلخص فى عمل عرائس وصور من الجلد أوالورق المقوى وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الستارة ليراها النظارة من الوجهة الأخرى . والعرائس بها ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة الحركة ، ويحركها الذى يقدم البابة بعصا فى يده حسب الحوار الذى ينطق به صاحب البابة[١٥٤] .

واذا كان الناس فى أوائل القرن العشرين اعتبروا خيال الظل تسلية شعبية ، فانه فى العصور الوسطى كان تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع . فالسلطان صلاح الدين الأيوبى شغف بحضور تمثيليات خيال الظل ومعه وزيره القاضى الفاضل[١٥٥] . كذلك عرف عن بعض سلاطين المماليك — مثل قانصوة الغورى — خروجهم الى بر الجيزة ، ومعهم خيال الظل وجوق المغانى لتسليتهم[١٥٦] . وبعد أن فتح السلطان سليم العثمانى مصر جلس بجزيرة الروضة حيث أحضروا له خيال الظل « فانشرح السلطان سليم لذلك وأنعم على المخايل بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، وقال له اذا سافرناالى اسطنبول امض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك ! »[١٥٧] . على أن بعض سلاطين المماليك مثل الظاهر جقمق رأى فى تمثيليات خيال الظل ما ينافى الدين والاخلاق، فأمر بجمع « أصحاب الخيال » وأحرق جميع ما معهم من « الشخوص »

---

(١٥٣) Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt; p p. 31 — 34.

(١٥٤) محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ص ١٧٠ .

(١٥٥) Paul Kahle : p. cit; p. 34.

(١٥٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٤٧ .

(١٥٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٥ .

مع التنبيه عليهم بعدم العودة الى فعله(١٥٨) .

وتلهى الناس كذلك فى ذلك العصر بعدة ألعاب اتخذت طابع المقامرة مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك ، فيراهن الشخص على هذا الطير أو ذاك الكبش أو الديك ، فاذا فاز كسب الرهان(١٥٩) . ويدخل فى هذا النوع من الألعاب أيضا المعالجة — أى لعبة رفع الأثقال(١٦٠) — ، والمثاقفة — من الثقاف وهو الخصام والجلاد والطعان بالرمح — ، والملاكمة والمشابكة ، اذ كانت هذه الألعاب كلها تتم بطريق المقامرة والرهان(١٦١) . هذا كله عدا ألعاب البهلوانات والحواة التى تسلى بها الناس فى ذلك العصر ، والدبابة الذين يلعبون بالدببة والقرادة الذين يلعبون بالقرود(١٦٢) ، مما لا يزال بعضه باقيا فى مجتمعنا الحديث .

---

(١٥٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٣ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ١١٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٣ .

هذا ويقترن خيال الظل فى عصر المماليك باسم محمد بن دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، وهو الذى الف ثلاث بابات او تمثيليات هى طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم . وتعبر هذه التمثيليات عن الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر سلاطين المماليك تعبيرا قويا . وقد وصف ابن حبيب (درة الاسلاك جـ ١ ص ١٨٧) ما كتبه ابن دانيال بانه « ليس له فى الحقيقة مثال » . وامتازت مؤلفات ابن دانيال بالهزل والمجون ، وتوجد نسخة مخطوطة من كتابه « طيف الخيال » بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (١٦ العاب) كما قام بنشر بعض أجزاء هذه التمثيليات اثنان من المستشرقين هما باول كاله وجورج يعقوب .

(١٥٩) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٤١ .

(١٦٠) وقد ورد فى المقريزى (الخطط ٢ ص ٥٥ بولاق) أن أميرا من امراء المماليك كان « مشهورا بالعلاج يعالج بمائة وعشرة أرطال » . — انظر كذلك ما كتبه الاستاذ الدكتور زيادة فى السلوك جـ ٢ ص ٦٩٥ — ٦٩٦ — حاشية ١ .

(١٦١) انظر المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٦٤٢ سنة ٧٤٤ هـ .

(١٦٢) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٩ ص ٤١ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٤٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٥ .

أما الملاهى الهادئة فأولها الشطرنج . ويفهم من المصادر المعاصرة أن لعبة الشطرنج ظلت ذات شأن كبير فى عصر المماليك حتى نسب بعض الأشخاص اليها[١٦٣] ، كما ألف فيها فى ذلك العصر أكثر من كتاب[١٦٤] . واعتبر الناس فى تلك العصور الشطرنج لعبة أرستقراطية خاصة بالملوك والأمراء « لا الفقراء والأراذل » وقالوا فى ذلك « مثل الفقير الذى يلعب الشطرنج كمثل أعمى ينظر فى النجوم »[١٦٥] . ومع هذا ، انتشرت هذه اللعبة فى عصر المماليك بين مختلف الطبقات فلعبها السلاطين والأمراء والتجار والفقهاء وغيرهم[١٦٦] . وقد ذكر الأدفوى لعبة أخرى تلهى بها الفضلاء فى مجالسهم[١٦٧] ، وتفصيلها أن يجلس جماعة ويكتبون أوراقا فى بعضها صورة شخص صاحب متاع وفى البعض الآخر صورة لص . فاذا حصلت الورقة التى فيها صاحب المتاع لأحدهم قال « يا جماعة ، ضاع لى كذا وكذا وأريد فلانا يحضر لى اللص ... » . وفيما عدا هذه الألعاب ، كثيرا ما جلس الناس للحديث وسرد « نوادر مضحكة من نمط ما يحكى عن جحا »[١٦٨] ، أو عن « قراقوش وأحكامه »[١٦٩] . وربما اجتمعوا لسماع سيرة عنترة أو

---

(١٦٣) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٥٣ ترجمة أحمد بن محمد الشطرنجى .

(١٦٤) أبو زكريا الحكيم : كتاب فى الشطرنج ، وكذلك توجد بدار الكتب المصرية رسالة فى الشطرنج كتبت فى القرن التاسع الهجرى ولم يعلم مؤلفها .

(١٦٥) أبو زكريا الحكيم : كتاب فى الشطرنج ص ١٤ .

(١٦٦) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٩٦ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٣٠ ، زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٥٠ .

(١٦٧) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٢٧٨ .

(١٦٨) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٧٩ ترجمة أحمد بن محمد بن عثمان .

(١٦٩) ابن مماتى : الفاشوش فى أحكام قراقوش .

سيرة ذات الهمة أو سيرة الظاهر أو قصة أبى زيد[١٧٠] وغيرها من سير الأبطال والشجعان التى لا يملون سماعها ولا يسأمون تكرارها .

المـآتم والأحـزان :

وكما كثرت أنواع اللهو فى مصر المماليكية تفنن الناس كذلك فى كيفية إظهار الحزن على الأموات . فاذا مات فرد أقام أهله العـزاء عليـه أياما ، وحزنوا سنة كاملة لا تختضب فيها النساء بالحناء ولا يلبسن الثياب الحسان ، ولا يتحلين ولا يدخلن الحمام ، حتى ولو حـدث الاضطرار الى دخوله . فاذا انقضت السنة بادروا الى فعـل الأشياء السابقة ، وسموا ذلك « فك الحزن » ويجتمعون للاحتفال بذلك « حتى كأنه فرح متجدد »[١٧١] . أما المـآتم فتقام بالمغـانى والندابات اللاتى يضربن بالطارات والدفوف ، كما يلطمـن على وجوههن[١٧٢] ، وقد لطخن أذرعهن بالسخام[١٧٣] . وفى اللحظة التى يخرج نعش الميت لتشييع جنازته ، جرت العادة أن يصيح الرجال والنساء معا صيحة عظيمة عالية يعتبرونها وداعا للميت ، ويصحبها غالبا لطم الخدود[١٧٤] ، فاذا ما تحركت الجنازة أحاط المشـيعون بالنعش وهم يبكون ويصيحون ، ومنهم من يقطع ثيابه ، ويتبعهم عدد كبير من النسوة ينوحون وينعون فى الأسواق والشوارع[١٧٥] . وهناك جماعات عرفوا فى ذاك العصر ، وأطلق عليهم « الفقراء الذاكرون »

---

(١٧٠) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٨١ .

(١٧١) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢٧٦ .

(١٧٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٧١ .

(١٧٣) السخام : هو السواد (الهباب) .

(١٧٤) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢٤٦ .

(١٧٥) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٤٩ ، أبو المحاسـن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٣٣٤ ، العينى : عقد الجمان حوادث سـنة ٨٢٢ هـ .

بحضرهم أهل الميت ليذكروا أمام الجنازة ، كل جماعة منهم « على صوت ونغم خاص »[١٧٦] ، ويستمرون على ذلك حتى تصل الجنازة الى المسجد للصلاة على الميت ، وهناك يطوف المؤذنون بالنعش فى أركان المسجد رافعين أصواتهم بالتكبير[١٧٧] . وبعد الصلاة تستمر الجنازة فى سيرها على النمط السابق حتى موضع « درب الوداع » خارج الأسوار ، وعندئذ يقدم المشيعون عزاءهم واحدا بعد واحد . أما النعش فيحمله الحمالون ويجرون به فى سرعة بالغة نحو القبر[١٧٨] . ويقام عند القبر عزاء آخر يتوقف على مقدرة أهل الميت ، فمنهم من يأتى بجوق من النوائح المختلفة الأصوات ، كل واحدة منهن تنوح بقول يختلف عن غيرها ، وربما استمروا على هذا الوضع بضع ليال[١٧٩] ومنهم من يحضر المقرئين للتلاوة على القبر خمسة أيام « على العادة » أو أكثر[١٨٠] . وكثيرا ما احتفلوا باليوم الثالث أو السابع أو تمام الشهر أو تمام السنة للميت ، فيصنعون الأطعمة ويجمعون الأهل والمعارف عند القبر[١٨١] . فاذا كان الميت من الملوك مدت الأسمطة وأشعلت الشموع وفرقت الأطعمة على أهل الزوايا وجموع الناس المحتشدة[١٨٢] .

---

(١٧٦) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(١٧٧) نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٤٦ ، ٢١٩ .

(١٧٨) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٥٤ — ٢٥٧ .

(١٧٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٤٤٩ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٦٣٩ .

(١٨٠) العينى : عقد الجمان سنة ٦٩٣ هـ .

(١٨١) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(١٨٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ١١٥ — ١١٦ ، عبد الله الكاتب : الألطاف الخفية ص ١٧ — ١٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٤٨ .

القــرافة :

وفى عصر سلاطين المماليك عرفت قرافتان لأهل مصر والقاهرة ، يدفنون فيها موتاهم ، الأولى فى سفح المقطم ويقال لها القــرافة الصغرى ، والثانية فى مصر ويقال لها القرافة الكبرى[١٨٣] . ولم يقتصر استخدام القرافة فى تلك العصور على دفن الموتى وتشييد المقابر ، بل كثــيرا ما أقيمت فيها البيــوت والمســاجد والمــدارس والزوايا وغيرها[١٨٤] . وقد وصفت القرافة الكبرى فى عصر المماليك بأن فيها عمائر كثيرة ، وأن عمائرها قدر ثغر الاسكندرية ، فى حين وصفت القرافة الصغرى بأنها أعمر من الكبرى وأحسن هيئة وأنها تضــاهى مدينة حمص[١٨٥] ! ووصف البلوى المغربى قرافة مصر بأنهــا « بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها ... »[١٨٦] . أما ابن بطوطة فقد وصفها بأنها « عظيمة الشأن »[١٨٧] كذلك أطنب بيلونى الكريتى فى وصف القرافة ونظامها والحياة فيها[١٨٨] .

وأقبل الناس على زيارة القرافة والاقامــة بها لزيارة موتاهم والتبرك بأضرحة الأولياء الصالحين المدفونين بها[١٨٩] . ومن الأيام التى فضلت لزيارة القرافة يوم الأربعاء « لأنه يوم مبارك » ، وكذلك ليلة الجمعة[١٩٠] . كذلك وضع نظام وترتيب معين لزيارة القرافة .

---

(١٨٣) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٠٤ ، خطط المقريزى : جـ ٢ ص ٣٠٦ .

(١٨٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٥ ، ٧٤ ، خطط المقريزى جـ ٤ ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

(١٨٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

(١٨٦) رحلة البلوى المغربى ص ٥٩ ب — ٦٠ .

(١٨٧) رحلة ابن بطوطة ص ٧٤ .

(١٨٨) Dopp : L'Egypte... p. p. 34 — 35.

(١٨٩) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٧٩ ب ، المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٣٤٤ ، ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٧٧ .

(١٩٠) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٣٠ .

يقضى بأن يبدأ الزائر بمشهد السيدة نفيسة أو مشهد السيد الحسين ، ثم ينتقل الى غيره بالترتيب[١٩١] .

واعتبر الناس القرافة مكانا للهو والتفريج عن النفس ، فخرجوا اليها فى الليالى المقمرة وليالى المواسم والأعياد وليالى الجمع من كل أسبوع ، ومعهم الرياحين والزهور كالياسمين وغيره[١٩٢] . وهناك يدعون الأهل والأصدقاء ويقيمون الولائم ومعهم أولادهم ونســاؤهم[١٩٣] ، فيكثر الغناء والرقص ويحدث الفساد باختلاط النساء بالرجال[١٩٤] . وهكذا أصبحت القرافات على عصر سلاطين المماليك « معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم »[١٩٥] . واستنكر بعض الفقهاء المعاصرين ذلك الوضع[١٩٦] ، فحاول السلاطين الولاة أكثر من مرة منع النساء من الخروج الى القرافات ، ولكن ذلك لم يجد فى تحويل الناس عما ألفــوه[١٩٧] .

---

(١٩١) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٩ ، ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٣٠ ، ٣١ ، ١٥٩ ، خطط المقريزى : جـ ٣ ص ٣٤٥ .

(١٩٢) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. 51.

(١٩٣) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٤ .

(١٩٤) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٦٧ — ٢٧٠ .

(١٩٥) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣١٩ .

(١٩٦) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٦٧ ، جـ ٢ ص ١٧ .

(١٩٧) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢١٧ .

الفصل الرابع

الحيـــاة المنزليـــة

المنـــازل فى العصر المماليكى :

اهتم المماليك اهتماما خاصا بقصورهم ومنازلهم ، كما يتضح من البقايا القليلة التى بقيت من تلك القصور والمنازل ، ولم تقتصر تلك العناية على هندسة البيوت وتنظيمها ، وانما امتدت أيضا الى تجميلها وزخرفتها ، كما يتضح ذلك فى قصر الأمير بشتاك وسقفـــه المذهب والفسقية الرخامية التى تتوسطه ، وما فيه من تحف وأدوات خشبية ذات زخارف مخروطة أو محفورة ومطعمة[1] .

والواقع أن أهل مصر بوجه عام اهتموا اهتماما بالغا بتشييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة ، وقد بدت منازلهم فى مظهرها الخارجى صغيرة وبسيطة ، ولكنها فى الداخل مرتبـــة غاية الترتيب ومقسمة الى حجرات مختلفة ومزينة على خير صـــورة[2] . وذكر عبد اللطيف البغدادى عن أبنية المصريين أن فيها هندسة بارعة وترتيب الغاية « واذ أرادوا بناء ربع أو دار ملكية قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل »[3] . وقد وصف جيهان تنو Jehan Thenaud الدار التى أقام بها فى مصر سنة ١٥١٢ م ، فذكر ردهاتها الواسعة وجدرانها المزخرفة بالألوان الجميلة وأبوابها ذات المقابض المصنوعة من العاج ، هذا عدا الفسقية التى توجد بفناء الدار والتى تحيط بها الأشجار الباسقة[4] .

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٨٠ ، ص ٨٢ .

(٢) Bernard de Breydenbach : op. cit; p. p. 35 — 36.

(٣) عبد اللطيف البغدادى : اخبار مصر ص ٩٠ — ٩١ .

(٤) Carrè : op. cit; p. p. 3 — 4.

والفكرة الأساسية التى حرص عليها الناس فى هندسة بيوتهم عندئذ هى عدم تمكين أى فرد بالخارج من أن يرى شيئا مما بداخل المنزل . ويتضح ذلك جليا فى مدخل المنزل الملتوى وفى نظام المشربيات على النوافذ(٥) . ولكن ليس معنى ذلك حبس أهل المنزل فى جو مقبض غير صالح ، إذ لاحظ تافور أنه رغم حرارة الجو فى شوارع القاهرة ، الا أنه معتدل ولطيف داخل المنازل . وجرت العادة فى ذلك العصر أن الشخص اذا أتم تشييد دار جديدة احتفل بافتتاح هذه الدار احتفالا عظيما يتناسب مع مكانته وثروته ، ويعمل مهما كبيرا يدعو إليه الأهل والأصدقاء والجيران(٦) .

الحيــاة العــائلية :

أما الحياة العائلية داخل البيوت فلا نكاد نجد عنها شيئا فى المصادر المعاصرة يختص بطبقة المماليك ، سوى أسماء متناثرة لبعض الجوارى والنساء ، الأمر الذى جعل كثيرا من الكتاب يعتمدون على قصص ألف ليلة للوقوف على مظاهر الحياة العائلية فى ذلك العصر(٧) . ولعل السبب فى ندرة ما كتب عن أحوال المماليك العائلية ، هو أن المماليك أنفسهم لم تكن عندهم « حياة عائلية » بالمعنى المعروف رغم أنهم حاولوا تكوين أسرات . ذلك أن أسلوب المماليك فى الحياة

---

(٥) اتخذت هذه المشربيات فى واجهات البيوت لتلطيف الجو وادخال النسيم العليل ، وتمكين اهل الدار من رؤية من بالخارج دون ان يكون العكس ممكنا .

ويقول الدكتور زكى محمد حسن (فنون الاسلام ص ٤٧٠) ان المشربية تحريف مشربة بمعنى غرفة عالية ، أو بمعنى المكان الذى يشرب منه نظرا لانه كان يصنع فيها خارجات صغيرة مستديرة أو مثمنة تركب خارج المشربية وتوضع عليها القلل لتبريدها .

(٦) النويرى : الالمام بالاعلام جـ ٢ ص ٢١٦ ، خطط المقريزى : جـ ٣ ص ٨٦ وما بعدها .

(٧) Lane — Poole : Cairo; p. 22 & A Hist. of Egypt. p. 251.

لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى الأب والأم والأبناء ، وإنما قام على أساس الرقيق والمماليك الذين أحلوهم فى نظامهم محل الأبناء • فمن نظمهم البارزة أن الإبن لا يخلف أباه فى مركزه ولا يرثه فى ثروته ، وإنما المملوك هو الذى يحل محــل أستاذه ويرثه حتى فى الاستيلاء على حريمه[٨] • وحسبنا أن الأمير منهم كان لا يأكل مع أبنائه أو حريمه وإنما يفضل أن يأكل مع مماليكه[٩] • كذلك نص كثير من الحجج الخاصــة بالمماليك على أن الاستاذ أحق الناس بالتمتع بريع الوقف الذى يقفه المملوك • وقد ورد فى وثيقة وقف الســلطان الغــورى الدعاء للرســول والصــحابة ، وللأشرف قايتباى — أستاذ الغورى[١٠] • وهكذا أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على العلاقة بين الأمير ومماليكه أو بين المملوك وأستاذه • والاشارات التى لدينا عن حياة المماليك العائلية لا تتعدى ناحية ابراز احترام الابن أو البنت لأبيها • مثال ذلك أن والد برقوق حضر الى مصر ، فلما وقع نظر الأب على ابنه مد له يده ، فأخذها الأمير ووضــعها على رأسه[١١] • كذلك حدث عندما حضر الأمير تنكز والد زوجة السلطان الناصر محمد الى مصر سنة ٧٣٩ هـ ، أن أسرعت اليه ابنته وقبلت يده[١٢] •

هذا عن المماليك ، أما طبقات الشعب الأخرى من علماء وتجار وعوام وغيرهم ، فيبدو أن الطابع العام للاسرة الاسلامية لم يتغير كثيرا فى ذلك العصر ، سواء من ناحية مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه أو احترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم • وكل ما هنالك

---

(٨) Muir : The Mamluke or Slave Dynasty; p. 225.

(٩) المقرزيى : الخطط جـ ١ ص ٩٤١ •

(١٠) انظر حجة وقف السلطان الغورى ، أرشيف الاوقاف ٨٨٣ •

(١١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ •

(١٢) نفس المصدر جـ ٩ ص ١٢٩ •

هو وجود أمثلة قليلة لرجال فى عصر المماليك — لا سيما من طائفة التجار — ضعفوا أمام نسائهم ، « فلا يقدر أحدهم على مخالفة زوجته أبدا »[١٣] . وتبدو هذه الصورة واضحة فى قصة معروف الاسكافى من قصص ألف ليلة ، إذ كانت زوجة معروف « حاكمة عليه وفى كل يوم تسبه وتلعنه فاشتد خوفه منها »[١٤] .

واعتاد الرجل أن يقضى معظم نهاره فى عمله خارج المنزل ، حتى إذا انتهى من عمله عند غروب الشمس عاد الى منزله « حيث يتصافى مع زوجته ويتم نهاره فى بيته »[١٥] . أما الزوجة فتقوم بشئون منزلها ثم ترتدى الثياب الرقيقة المذهبة المصنوعة من الحرير الفاخر ، لتظهر أمام زوجها فى صورة كلها فتنة واغراء[١٦] ، وقد أكثر بعض فقهاء عصر المماليك من نصح النساء باستكمال زينتهن داخل المنازل وذلك بتسريح الرأس وتزيين الشعر والتطيب بالطيب أمام الزوج « حتى يطيب قلبه »[١٧] . كذلك أخذ الفقهاء المعاصرون على النساء عنايتهن بالزينة عند الخروج من المنازل ، واهمال أنفسهن داخلها أمام الأزواج[١٨] .

وعنى الآباء والأمهات فى عصر المماليك بتربية أبنائهم وتعليمهم ، فإذا ولد المولود فى بيت يسر تسلمته المراضع (والدادات) حتى يشب ، وعندئذ يقوم بتأديبه وتعليمه أحد مؤدبى الأطفال[١٩] . وتمتع

---

(١٣) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٥٥ .

(١٤) الف ليلة وليلة جـ ٤ ص ٢٢٨ « قصة معروف الاسكافى » .

(١٥) سيرة الظاهر بيبرس ص ٦٢ .

(١٦) Schefer : Voyage du Magnifique... p. 211.

(١٧) السيوطى : الايضاح فى عام النكاح ص ٥ — ٦ .

(١٨) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(١٩) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٨٠ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ١٥٨ ، سيرة الظاهر بيبرس جـ ٢٠ ص ٥٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ١٨٤ ترجمة عمر بن أبى الفتوح .

هذا المؤدب باحترام ومهابة تفوق مهابة الوالدين فى نفس الطفــل ، حتى اعتادت بعض الأمهات أن يلجأن إلى مؤدب الأطفال لشكوى أبنائهن اذا أخلوا بالأدب فى المنزل[٣٠] وأحيانا يقوم الوالدان بمهمة تعليم أولادهما بالمنزل ، فيحفظون القرآن ويتعلمون الخط والحساب والفنون والأدب « ولم يحتاجا الى ملعم »[٣١] .

النــــوم :

واهتم الناس فى تلك العصور اهتماما كبيرا باعداد أماكن النوم فى منازلهم فصنعوا أسرة من جريد النخل ووضعوا عليها وسائد مريحة محشوة بالقطن[٣٢] . وفى فصل الصيف اعتاد معظمهم النوم داخل الحجرات — لشدة الحر — ، بل فوق الأسطح وفى أحواش المنازل حيث يشيدون مصاطب خاصة لذلك الغرض ، وبذلك يتــاح لهم الاستمتاع بالهواء المنعش اللطيف[٣٣] .

هذا ، وقد نهى ابن الحاج عن بدعة تفشت فى أيامه ، وهى أن الزوجة اذا جاءت لتنام مع زوجها فانه يجب أن يعطيها أجرا معلوما — بحسب حاله — يسمى « حق الفراش » ، وقال ابن الحاج أن هذا التصرف منكر لأنه شبيه بالزنا[٣٤] .

الطعــــام :

أما عن نظم الطعام ، فالذى يوجب الالتفات هو أن الناس فى ذلك العصر لم يطهوا طعامهم فى منازلهم ، بل اعتادت الغالبية العظمى

---

(٣٠) الشربينى : هز القحوف ص ٣١ .

(٣١) الف ليلة وليلة — قصة قمر الزمان جـ ٤ ص ٢٣٨ .

(٣٢) Laurent d'Arvieux : op. cit, p. 222.

(٣٣) Dipp : L'Egypte... p. 108 & Schefer : Voyage... p. 213.

(٣٤) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٦٩ .

منهم — مهما يبلغ ثراؤهم — شراء ما يحتاجون اليه من الأطعمة المطهيــة التى تفيــض بها الأسواق والطرقات[٢٥] . وقد عــرف أهــل مصر فى ذلك العصر أنواعاً عديدة من الأطعمة مثــل المأمونية والخيطية والسفرجلية والرمانية والفوليــة والكمونية وغيرها[٢٦] . وتناول الناس الطعام فى منازلهم وهــم جلوس على الأرض[٢٧] . ولتناول الطعام آداب تمسك بها المعاصرون ، منهــا التسمية فى أول الأكل والحمد والشكر فى آخره ، ومنها الإتكاء عند الجلوس للاكل على الفخذ الأيسر ، ويكون الأكل بثلاثة أصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغة وعدم الكلام حين الأكل[٢٨] . كذلك روعى غسل الأيدى قبل الأكل وبعدَه ، وأحيانا يكون ذلك بماء الورد ، ثم تنشف الأيدى « بالمناديل والفوط الحرير »[٢٩] . وجرت العــادة فى ذلك العصر أن الزوجة والأبناء لا يشاركون رب الأسرة فى الأكل من وعاء واحد ، بل « للرجل طعام خاص به وزبدية خاصــة به وكوز خاص به »[٣٠] . وانتقد ابن الحاج ذلك الوضــع الذى شهده فى مصــر ، كما انتقد

---

(٢٥) Schefer : Voyage... p. 210 & Le Voyage d'Outremer p. 46 & Larrivaz : op. cit; p. 60 & Tafur : op. cit; p. 101. & Dopp : L'Egypte... 108.

(٢٦) زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ . وهناك كتب الفت فى ذلك العصر تشبه فى موضوعها وتنظيمها كتب التدبير والطهى فى عصرنا ، فيها شرح لجميع انواع الماكولات المعروفة لدى المعاصرين ، وطرق عمل كل نوع منها ، سواء الخضروات ام اللحوم والطيور أم المخللات ام الحلوى . (انظر كتاب الوصلة الى الحبيب — مخطوط) . هذا فضلا عن اسماء الماكولات العديدة التى وردت فى كتب الحسبة (ابن الاخوة : معالم القربة ص ٩١ — ١١٥) .

(٢٧) Dopp : Le Caire Vu. Tome 26; p. 114.

(٢٨) النويرى السكندرى : الالمام بالأعلام ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢٩) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣٠) نفس المصدر والجزء ص ٢١٦ .

ما حرص عليه كثيرون من ضرورة قيام خادم خلف الشخص الآكل لينش عنه الذباب[٣١] .

وامتاز عصر المماليك بكثرة الولائم المنزليــة ، فكل مناسبة من مناسبات الفرح مقرونة بوليمة للأهل والأصدقاء . أما هذه المناسبات فأهمها الزواج والولادة والختان وبناء دار جديدة والاحتفال بعودة مسافر أو حاج[٣٢] . ووضعت لهذه المآدب المنزلية آداب وقواعد ، منها أنه يجب على صاحب البيت أن يبدأ بالأكل إيناسا للضيوف ، ويعزم عليهم ، ولا يمعن فى الأكل حتى اذا شبع الضيوف أو قاربوا فحينئذ يأكل بانشراح . كذلك يجب عليه أن يقدم لهم — قبل الأكل وبعده — ما يغسلون به أيديهم ، ويستحسن أن يتولى ذلك بنفسه على أن يبدأ بالغسيل أفضلهم ويكون صاحب الدار آخر من يغسل يديه[٣٣] والملاحظ أنه عند تقديم ألوان الطعام أتبع الناس فى ذلك العصر النظام نفسه الذى نتبعه اليوم ، فيقدم الطعام أولا ، ثم الحلوى من بعده ، وأخيراً الفاكهة[٣٤] .

الاحتفـــالات العائليـــة :

ومن الخصائص البارزة التى اتصفت بها الحياة المنزلية فى عصر سلاطين المماليك كثرة الاحتفالات والأفراح ، والتفاخر فى إحياء هذه الأفراح ، حتى بلغ الأمر ببعض الناس أن يبيع الواحد ثيابه ويقترض الأموال بالربا ليتباهى أمام الناس ويقال طعام فلان أكثر من طعام فلان[٣٥] .

---

(٣١) نفس المصدر والجزء ص ٢١٧ .

(٣٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٤٤ ترجمة عثمان بن على ابن عمر ، النويرى : الالمام بالأعلام ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٣١ .

(٣٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣٥) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

وأول الأفراح العائلية الاحتفال بالزواج . وفى هذا النوع من الأفراح عمد كثير من المصريين الى المبالغة ، ولو أن ما فعلوه فى الواقع لـم يكن سـوى صورة مصغرة لمـا اعتاد أن يفعله سلاطين المماليك وأمراؤهم فى أفراحهم . وتفيض المصـادر المعاصرة بأخبار أفراح المماليك ، وما تنطق به هـذه الأفراح من ثروة واسراف . مـن ذلك ما يرويه المقريزى عن فرح الأمير آنوك ابن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، وكيف أن السلطان أمر « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى الى الدور السلطانية ، ووقع الشروع فى عمل الإخوان (الخوان) فأقام المهم سبعة أيام بلياليها ... فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع ، فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثين شمعة ، زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا .... حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى وهى تقدم ما أحضرت من التحف الفـاخرة والنقوط حتى انقضت تقادمهن جميعاً . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن فرقصن أيضا واحـدة بعد واحدة ، والمغانى تضربن بدفوفهن ، وأنواع المـال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقى على المغنيات ، فحصل لهن ما يجل وصفه ، ثم زفت العروس . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيل والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفاً ، وعمل فيـه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار ... »[٣٦] .

وقد قامت الخاطبـة فى ذلك العصر بدور كبير فى اتمام مهمة

---

(٣٦) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ — ٣٤٦ — حوادث سنة ٧٣٢ هـ .

الخطوبة . وصور هذا الدور بوضوح ابن دانيال الموصلى فى بابة « طيف الخيال » ، فوصف كيف يقصد راغب الزواج الخاطبة لأنها « تعرف كل حرة وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة » . ذلك أنها تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء ، وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على أسرار الحريم فتستطيع أن تأتى للعريس بالعروس التى تتفق مع رغباته ومطالبه[٣٧] . والغالب أن الفتاة لم يكن لها أى رأى فى اختيار شريك حياتها ، بل ظل الرأى الأول والأخير لوالدها ، وربما شاركته فى ذلك أمها[٣٨] . فإذا انتهى دور الخطوبة جاء الدور الثانى الخاص بعقد القران . وقد جرت العادة أنه فى حالة زواج أحد أبناء أو بنات السلاطين أو الأمراء أو أعيان الدولة ، أن تكتب له خطبة صداق تكون فى الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد[٣٩] . ويذكر ابن الحاج أن كثيرا من الناس فى عصره فضلوا عقد الأنكحة فى المساجد ، فيجتمعون فيها ومعهم المباخر المفضضة التى يحرقون فيها البخور ، وبعد كتابة العقد ينصرفون فى حفل كبير[٤٠] .

ثم تأتى الخطوة الثالثة بعد عقد القران ، وهى إعداد الشوار ونقله الى منزل العريس . ويتناسب الجهاز مع مركز أصحاب العرس ومدى ثرائهم ، ففى أفراح السلاطين والأمراء يحمل الجهاز أحيانا ما يزيد عن أربعمائة حمال[٤١] ، وربما استمرت البغال فى حمله ثلاثة أيام ، فى حين تبلغ تكاليف إعداده آلاف الدنانير[٤٢] . وفى هذه الحالة ينقل الجهاز إلى منزل الزوجية فى موكب كبير تسير فيه الأمراء

---

(٣٧) ابن دانيال : طيف الخيال ص ٣٩ — ٤٩ .
(٣٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٩١ .
(٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٠٠ .
(٤٠) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٤١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٤٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٣٣ هـ .

المقدمون والمماليك فى أفخر ثيابهم وبأيديهم الشموع[٤٣] . أما اذا لم يكن أصحاب الفرح من الأمراء ، فإنه يحتفل بنقل الشوار فى حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف ، وجرت العادة أن يكون فى ذلك الشوار ثلاث دكك إحداها من فضة والثانيـــة من نحاس أبيض والثالثة من نحاس أصفر[٤٤] . وتكفت الدكك النحاسية بالفضة ، ويوضع فوقها أوانى مختلفة من كاسات وأطباق وسرج وطشت وأبريق ومبخرة[٤٥] هذا عدا الشطرنج وغيره من الكماليات التى تدمل مع الجهاز[٤٦] .

وفى ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تسمى وليمة العرس ، وهمـــا فى الواقع وليمتان إحـــداهما للنساء وتقام فى بيت العروس والأخرى للرجال وتقام فى بيت العريس ، وأحيانا تقـــام الوليمتان فى بيت واحـــد . وبعد الطعام — أى فى المساء — يخرج العـــريس قاصـــدا بيت العـــروس فى موكب كبير يحف به الأهـــل والأصدقاء[٤٧] . وبوصول العريس إلى منزل عروسه يبـــدأ حفـــل الزفاف الذى تحييه عدة جوق من المغانى ، فيختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء[٤٨] . وتحرص المدعـــوات اللاتى يحضرن

---

(٤٣) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٧٩ ، ذيل الأعلام ج ١ ص ٢

(٤٤) ابن الحاج : المدخـــل ج ٢ ص ١٦٧ . وقد ذكر المقـــريزى (الخطط ج ٢ ص ١٠٥) انه اذا كانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو الأعيان فانها تجهز فى شورتها بسبع دكك . والدكة عبارة عن شىء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون وتبلغ قيمة الدكة زيادة على مائتى دينار ذهبا (زكى محمد حسن : فنـــون الاسلام ص ٥٥٣ — ٥٥٤) .

(٤٥) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٤٦) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٣٤ .

(٤٧) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٢ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤٨) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٠١ .

الفرح على ارتداء الملابس الفاخرة والتحلى بالمجوهرات الثمينة(٤٩) وكثيراً ما تباهى المدعوون والمدعوات بالمبالغة فى تقديم النقوط إلى المغانى(٥٠) ، وتقديم الهدايا من الشمع(٥١) ، والتحف الفاخرة(٥٢) ، والخراف والسكر والأوز وغيرها إلى أصحاب العرس(٥٣) . ويبدو أن تلك الهدايا اعتبرت ضريبة أو دينا لا بد من دفعه ، حتى تضايق بعض أمراء المماليك فى وقت من الأوقات بسبب كثرة الأفراح وقالوا « هذه مصادرة ! »(٥٤) .

أما العروس فتتصدر ذلك الحفل بعد أن تستكمل زينتها وبهاءها ، اذ يقوم بعض أهلها بتكحيلها وتمشيطها وتحفيفها ، ثم إلباسها أفخر الثياب المطرزة(٥٥) ، وتضع على رأسها شربوشا(٥٦) . ومن العادات الغريبة فى القرن التاسع الهجرى أن الناس فى مصر عملوا على إلباس العرائس لباس الرجال من جنـــدى وقاض وغيرهما(٥٧) . وفى نهاية الاحتفال يأخـــذ العريس عروسه من يدها وعندئذ تقبل العروس يد زوجها(٥٨) .ويبدو أن العادة جرت فى أفراح المماليك أن تقدم العروس

---

(٤٩) نفس المصدر والجزء ص ٤٢٦ .

(٥٠) العينى : عقد الجمان سنة ٧٣٣ هـ ، خطط المقريزى ج ٣ ص ٣١٧ .

(٥١) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ١٨٥ .

(٥٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٥٣) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٥٤) ابو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٢١٢ .

(٥٥) Dopp : Le Caire Vi ...Tome 23; pp. 139 — 140.

(٥٦) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤٧٩ .

(٥٧) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٤٧ .

(٥٨) سيرة الظاهر بيبرس ج ٩ ص ٢٣ .

لزوجها — فى اللحظة التى تجلى عليه — سيفا فاخرا تمسكه من طرفه فيتناوله العريس من مقبضه(٥٩) .

أما الفلاحون فاعتادوا أن يطوفوا بالعريس فى أنحاء القرية وسط ضرب الطبول ومدح المنشدين ، وحوله « الجدعان تخبط بالنبابيت » ولا يزالون به حتى يصل إلى بيت العروس حيث يقام حفل صاخب يشترك فيـه أصحاب الرباب ، والنساء يزغردن وينشرن الملح على العروس خوفا عليها من الحسد(٦٠) .

كذلك وجد فى القصص الشعبى المعاصر بعض اشارات الأفراح الأعراب ، عنـدما ترقص الجارية وسط جموع الرجال ، ثم تطوف عليهم وفى يدها الرق لتجمع « عوايدها من العرب »(٦١) .

أما أهـل الذمة فذكر ابن حجر أنه سمح لهم فى عصر المماليك بإقامة أفراحهم بالملاهى « والمغانى على عادتهم »(٦٢) .

ومن الاحتفالات العائلية ذات الأهمية الكبيرة فى عصر المماليك ذلك النوع الخاص « بالنفاس والولادة » . وقد جرت العادة أن يتفق قبل الوضع مع القابلة — التى أطلق عليها أيضاً اسم « الداية » —(٦٣) على أجر معلوم ، حتى لا يحدث نزاع « وكلام كثير » حول تحديد أجرها بعد الوضع . فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص واللهو واللعب ، فى حين تدوى المزامير والأبواق على أبواب المنزل « لتعمل

---

(٥٩) Dopp : Le Caire Vu ... Tome 22; p. 140.

(٦٠) هز القحوف ص ٩ — ١٠ .

(٦١) سيرة الظاهر بيبرس ج ٨ ص ٩ .

(٦٢) ابن حجر : انباء الغمر .

(٦٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٤٤ ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاون .

بما فى وسعها من الهرج والشهرة »[٦٤] . وعند قطع سرة المولود يجتمع حوله حشد كبير من صغار الأطفال وزعموا أن من لايحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعد ذلك تحول عيناه أو يبكى كثيرا فى طفولته[٦٥] . أما السكين التى تقطع بها سرة المولود فتبقى عند رأسه ما دامت أمه جالسة عنده ، فإذا قامت حملتها معها . وتظل تفعل ذلك أربعين يوما حتى لا يصيبها شىء من الجان[٦٦] . ويتضاعف الفرح اذا كان المولود ذكرا ، ففى هـذه الحالة يتعين على والده أن يقيـم « وليمة مولود ذكر »[٦٧] يدعو اليها الأهل والأصدقاء ، ويفرط فى عمل ألوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التى تضاعف لأم المولود فى هـذه الحالة[٦٨] . وتستمر هذه الأفراح عادة سبعة أيام لا تنقطع طوالها وفـود المهنئين والمهنئات ، وكل من جاءت للتهنئة جددوا لهـا اللهو واللعب والرقص . وعندما تحل الليلة السابعة ، وهى «ليلة السبوع» يضعون عند رأس المولود الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر . فإذا كان أهـل المولود من ذوى السعة ، عملوا رغيفـا كبيرا و « ابلوجة من السكر » ووضعوها مع طبق من الفاكهة « وقفة من النقل والشمع » عند رأس المولود . وفى صبيحة السبوع يفرق كل ذلك ، ويزعمون أنه بركة لمن أخذه وأنه ينفعه من الصداع ، كما يزعمون أن الملائكة تكتب بالدواة والقلم ما يجرى على المولود فى عمره إلى حين موته[٦٩] . واعتاد الناس أن يحتفلوا بيوم السبوع احتفالا كبيرا ، فتلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة ،

---

(٦٤) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٨٣ — ٢٨٨ .

(٦٥) نفس المصدر والجزء ص ٢٩٠ .

(٦٦) نفس المصدر والجزء ص ٢٩١ .

(٦٧) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٥٦٠ .

(٦٨) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ص ٣١٩ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٧ .

(٦٩) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٩٠ .

وتطوف بأنحاء الدار فى موكب كبير ، تحيط بها الشموع من كل جانب والقابلة أمامها تحمل المولود ، وأمام القابلة امرأة أخرى معها طبق به شىء من الملح المخلوط بالكمون تنشره فى البيت يمينا ويسارا . هـذا كله عدا إحراق نوع من البخور « مخصوص بالولادة » يحمى مـن الأمراض « والعين الجان » . ولا بد فى ذلك اليـوم من عمل ألوان معينة من الطعام كالزلابية والعصيدة ، وتفريقها على الأهل والجيران والمعـارف[٧٠] .

وتمسك النـاس فى عصر المماليك بهـذه العوائد « حتى تداين بعضهم لها » . ولم يخالف أهل العلم والمشيخة بقية طبقات الشعب فى ذلك[٧١] . ويتحدث السخاوى عن نفسه عندما رزق مولوداً سنة ٨٥٥ هـ ، فأقام وليمة كبيرة دعا إليها الفقراء والصلحاء وطلبة العلم وغيرهم ممن « توسم فيهم الخير »[٧٢] .

كذلك أجمعت مختلف الطبقات فى مصر المماليكية على الاحتفال بختان الطفل احتفالا عظيما . واستمرت المبالغة فى احياء هذا النوع من الحفلات حتى العصور الحديثة ، عندما أطنب كل من كلوت بك ولين فى وصف حفلات الختان على عهـد محمد على[٧٣] . وقد جرت العادة على أن يقوم بعملية الختان فى عصر المماليك « المزين »[٧٤] . وعندئذ يقيم أهـل الطفل حفـلا كبيراً يدعون إليـه سائر الأهـل والأصدقاء[٧٥] . ولا بد للمدعوين فى هذه المناسبة من تقديم النقوط

(٧٠) نفس المصدر والجزء ص ٢٩١ .
(٧١) نفس المصدر والجزء ص ٢٨٨ ، ٢٩٣ .
(٧٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٤٩ .
(٧٣) كلوت بك : لمحة عامة جـ ٢ ص ٥٥ — ٥٨ ،
Lane : op. cit, p. 57, 506.
(٧٤) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٧٦ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٦٦ .
(٧٥) ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٨٠ ، العينى : عقد الجمان سنة ٧٢٢ هـ .

لأهل الطفل ، فيضعون هذا النقوط فى « الطشت الذى يطاهر فيه الولد »[٧٦] • فإذا كان الختان خاصاً بأحد أولاد السلطان نادى المنادى بذلك فى القاهرة حتى يحضر الأمراء والناس أولادهم ليختنوهم بعد ابن السلطان • وبلغت أحيانا عدة الصغار الذين أحضرهم أهلهم لختنوهم بعد ابن السلطان أكثر من ألف وستمائة طفل من أبناء الفقهاء والعوام ، هذا عدا أبناء المقدمين والأمراء والجند[٧٧] • وكثيرا ما طالت الأفراح الخاصة بهذه المناسبة ، فاستمرت أحياناً بين ثلاثة أيام وسبعة[٧٨] ، يأمر السلطان خلالها بعرض الجند ولعب القبق إظهاراً للفرح ، كما يفرق كثيرا من الهبات والأموال والخلع[٧٩] •

ومن الاحتفالات العائلية أيضا ما اعتاد أن يفعله الناس عند سفر أحد أفراد الأسرة للحج أو عند عودته من الحجاز • فقبل خروج الحاج لأداء فريضة الحج تخرج بعض قريباته ومعارف الأسرة ليطفن بالطرق والأسواق على هيئة مواكب ويرفعن أصواتهن بنوع من الأناشيد يسمونها « التحنين » ، أى تشويق الناس للحج وزيارة مقام الرسول عليه الصلاة والسلام • وفى اليوم المحدد لخروج الحاج يركب جملا مزينا بالحلى من ذهب وفضة وأساور وقلائد ، هذا عدا كسوة حريرية فاخرة يلبسونها للجمل[٨٠] • فإذا ما قضى الحاج فريضة الحج ، ووصل المبشر يخبر سلامة الحجاج ، خرج أهل الحاج لاستقباله عند عقبة أيلة أو بركة الحاج وصحبتهم أنواع المأكولات

---

(٧٦) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٦٦ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٧٦ •

(٧٧) ابن دقاق : الجوهر ص ١١٧ •

(٧٨) العينى : عقد الجمان سنة ٧٢٢ هـ ، سنة ٧٧٧ هـ •

(٧٩) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥١٩ — ٥٢٠ ، ص ٦١٢ ، ص ٧٨٥ •

(٨٠) ابن الحاج : المدخل جـ ٤ ص ٢١٦ •

والعلف « على العادة »[٨١] . حتى اذا ما عاد الحاج إلى منزله أقيمت الأفراح والولائم وضرب على أبوابه بالطبـل والأبواق والمزامير ، ويسمون ذلك « تهنئة الحاج »[٨٢] .

هذا ، ويلاحظ فى جميع الأفراح الســابقة أنه كان لابد من الحصول على إذن ضامنة المغانى بعد دفع المال أو الرسم المقرر لها . فكان على النساء اذا تنفسن أو عرسن ، أو خضبت امرأة يدها بالحناء الحصول على ذلك الإذن . « ومن عمل فرحـا بأغان أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » . وقد ظل هذا الوضع سـائدا حتى سـنة ٧٧٨ هـ عنـدما أبطله السلطـان الملك الأشرف شعبان[٨٣] .

(٨١) السخاوى : التبر المسبوك ص ١١٤ .

(٨٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٨٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

الفصل الخامس

حيـاة المرأة ومكانتها فى المجتمع

وصف ابن ظهيرة ـــ من علماء القرن العاشر الهجرى ـــ نساء مصر بأنهن أرق نساء الدنيا طبعا وأحلاهن صورة[1] . والواقع أن المرأة المصرية فى ذلك العصر تفننت فى مختلف الوسائل التى تظهر جمالها وفتنتها ، فحرصت على العناية بنفسها وجسمها ، ودأبت على أن تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف وشعر حواجبها بالمساواة والزينة[2] . وقد استرعى نظر تافور بالقاهرة ذلك العدد الكبير من العبيـــد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة ويسيرون فى الشوارع صائحين . فلما استفسر عن حقيقة أمرهم قيل له أنهم يقومون بتحفيف النساء اللائى لا يرغبن فى اتمام هذه العملية فى الحمامات العامة[3] . أما ابن الحاج فأنكر على معاصريه من الرجال أن الواحـــد منهم يترك امرأته للمزين يحففها ويباشر بيديه خديهـــا وشفتيها ![4] .

ولم تقتصر نســـاء مصر فى عصر سلاطين المماليك على تخضيب أياديهن بالحناء ، بل اعتدن أيضا طـــلاء أظافرهن بطلاء أحمر اللون استرعى نظر بعض الرحالة الأجانب[5] . هـــذا خلاف الوشم الذى اعتادته كثيرات من النساء أن يزين به أجزاءً مختلفة من أبدانهن[6] .

---

(١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٨٠ ب .

(٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٦٧ ، جـ ٤ ص ١٠٧ .

(٣) Tafut : Travels ; p. 101.

(٤) ابن الحاج : المدخل جـ ٤ ص ١٠٧ .

(٥) Schefer : Voyage du Magnifique et ... p. 211.

(٦) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٦٧ .

فإذا أرادت الواحدة منهن الخروج إلى الطريق العـام ارتدت أفخر ثيابها وتزينت وتعطرت ولبست من الحلى كل ما تقدر عليه[٧] . ومن هذه الحلى القلائد المصنوعة من العنبر والتى سميت « العنبرية »[٨] والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة [٩] ، وفى اليدين الأساور المحلاة بالجواهر[١٠] ، وعلى الرأس العصائب المزخرفة بالذهب واللؤلؤ[١١] . هذا عدا الخلاخيل التى توضع فوق السراويل حتى تظهر للعيان « وقد تضرب برجلها فى الغالب فيسمع له حس »[١٢] .

ولجأت بعض النســاء فى عصر سلاطين المماليك إلى استغـلال جمالهن وحسنهن للايقاع بالرجال ، فتخرج الواحدة إلى الشارع وقد استكملت زينتها ، وتسير أمام الناس فى صورة ملفتة للنظر ، « ولهن فى مشيهن صنعة »[١٣] . فإذا طمع فيها أحد الرجال واستهوته وطلبها ردت عليه أنه لا يمكنها أن تذهب إلى أحد ، ولكنه يستطيع أن يتبعها إلى منزلها ! وهناك فى منزلها يدفع الرجل ثمن شهوته غاليا ، إذ وصل ذلك الثمن أحيانا إلى حد قتله وسلب ما معه من أموال[١٤] .

---

(٧) نفس المصدر والجزء ص ١٦٨ .

(٨) ابو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٢٩ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٦٦ . ويقول المقريزى ان هذا النوع من القلائد كان له سوق بالقاهرة يباع فيه العنبر يسمى العنبريين . واضاف انه لا يكاد يوجد بأرض مصر فى ذلك العصر امراة — وان سفلت — الا ولها قلادة من عنبر .

(٩) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٣٦ .

(١٠) نفس المصدر والجزء ص ٥٢٨ .

(١١) Dozy : Dictionnaire Detaillè ... p. 239.

(١٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٧٦ ، ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٦٨ .

(١٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٤٢٦ ، ٨٢٣ ، ابو المحاسن : مورد الطافة ص ٤٠ .

مكانة المرأة فى المجتمع :

أما عن مكانة المرأة فى المجتمع ، فيبدو أن المرأة تمتعت فى عصر سلاطين المماليك بقسط وافر من الاحترام ، سواء فى ذلك طبقة المماليك أم سائر طبقات الشعب . فالمماليك نظروا الى نسائهم نظـرة تفيض بالاجلال والتقدير وخصصوا لهن الألقاب مثـل خوند وخاتون[١٥] ، كما أضفوا عليهن فى مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيل ، مثلما يبـدو بوضوح فى مكاتبـات السلاطين لبناتهـم وزوجاتهـم وأخواتهم[١٦] . ولم يضن سلاطين المماليك على نسائهم بالمال والمتاع حتى أننا « لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجمل بيوتهن لاحتجنا الى عدة مجلدات »[١٧] . وحسبنا أن احدى الخوندات توفيت ، فلما حصرت ثروتها بلغت نيفا وستمائة ألف دينار[١٨] . أما ابنة الناصر محمد ــ وهى زوجة الأمير طاز ــ فخلفت ثروة طائلة تحدثت عنهـا المصادر ، ومن جملة هذه الثروة قبقاب مرصع قيمته أربعون ألف درهم أى ألفا دينار مصرية[١٩] . وقد اعتاد بعض السلاطين أن يستصحبوا حريمهم فى نزهاتهم الخلوية عند بر الجيزة أو غير ذلك من المواضع ، وعندئذ يخرج حريم السلطان على الخيول فى محفات مغشاة بالحرير الملون ، ويقود خيولهن بعض كبار الأمراء ، ويتبعهن أحمال عديدة من المحاير المغشـاة بالحرير ، ويحيـط بهن سائر الأمـراء والمماليـك

---

(١٥) كان لقب خوند خاصا بزوجات السلاطين ، ونراه فى بعض المواضع يخاطب به السلاطين انفسهم . اما لفظ خاتون فمعناه فى الأصل أميرة ثم أصبح يستعمل لتكريم المراة بصفة عامة ، مثل السـيدة أو الآنسة . (زبدة كشف الممالك ص ١٢١) .

(١٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٧ ص ١٦٦ .

(١٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

(١٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٩) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٨٨ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٠٤ .

والخدام[٢٠] . فإذا خرجت زوجة السلطان أو أمه للحج ، فانه يجهزها تجهيزاً عظيماً ، فتخرج فى برج كبير وعلى محفتها العصائب السلطانية والكوسات تدق معها ، ويتبعها « قطار » من الجمال المحملة بكل أصناف الكماليات ، فى حين يأمر السلطان عدداً من كبيرا من الأمراء بمصاحبتها فى الطريق[٢١] . وعند عودتها الى مصر بعد قضاء شعائر الحج يخرج السلطان لاستقبالها عند بركة الحاج خارج القاهرة ويحتفل بقدومها احتفالا عظيما[٢٢] . كذلك يسرع الأمراء الى تقديم الهدايا الثمينة والتقادم الفاخرة اليها[٢٣] . واذا سمع السلطان بمرض احدى زوجاته فانه يعودها مراراً . أما اذا وجد حالتها تستدعى « تغيير الجو » ، فانه يسمح لها بالنزول الى بولاق حتى تتمتع برؤية النيل « ويذهب عنها الوخم »[٢٤] . وعندما يتم شفاؤها يحتفل بذلك احتفالا عظيما فيتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاه والأكابر للتهنئة ويجمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهى ، وتعمل فى النيـل مرامى النفط والصواريخ . ثم تعود خوند الى بيتها بالقلعة فى موكب رائع وحولهـا المشاعل والشموع والفوانيس ، وخلفها عـدد لا يحصى من الخوندات ونساء الأمراء[٢٥] . أما اذا توفيت احدى زوجات السلطان أو الأمراء فعندئذ ينزل كل الأمراء للصلاة عليها « ويعمل مهما عظيما » ويكثر السلطان أو الأمير من توزيع الصـدقات والأموال على روح زوجته المتوفاة[٢٦] .

---

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، جـ ٩ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢١) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٢١ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢٣) ابن اياس : صـفحات لم تنشر ص ٥٠ — ٥١ (سـنة ٨٦٢ هـ) .

(٢٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٤٩ .

(٢٥) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٩ .

(٢٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٦٥ ، ١٧١ .

وعندما تحمل احدى زوجات السلطان ، فانه يركز كل آماله فى أن يكون المولود ذكراً « يحيى به ذكره وينشرح له صدره »[٢٧] . فاذا تم له ما يتمناه احتفل احتفالا كبيرا بالمولود ، كما تكرم أم المولود فيعمل لها بشخاناه ودائر بيت زركش ، وغير ذلك من مظاهر التكريم التى تكلفه آلاف الدنانير مع استمرار الفرح سبعة أيام[٢٨] .

ولم يقتصر ذلك الاحترام للمرأة على نساء السلاطين وأمرائهم ، فهناك من الشواهد ما يثبت احترام عامة الشعب المصرى فى عصر سلاطين المماليك لنسائهم . وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب العديدة التى أطلقها الناس على نسائهم وبناتهم مثل ست الخلق وست الحكام وست الناس وست القضاة وست الكل ... وذلك من باب « الفخر والتزكية والثناء والتعظيم »[٢٩] . واذا خرجت احدى النساء الى الطريق وكان زوجها مقتدرا فانه يحضر لها حمارا يقوده مكارى ويتبعها خادم[٣٠] . ورغم قلة الاشارات الى النساء وندرتها فى المصادر المعاصرة ، فاننا نجد كثيرا منها يعبر عن الثناء والتقدير . فالسخاوى يصف احدى النساء المعاصرات بأنها « ذات رياسة وقناعة واتقان » ، ويحكى أنه عند موتها شيعت « فى مشهد جميل »[٣١] والشعرانى — وهو من رجال الدين المحافظين — لا يتمالك شعوره نحو زوجته فيثنى عليها ثناء فياضا[٣٢] .

---

(٢٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكر جـ ٩ ص ٣٠٤ .

(٢٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١١٩ .

(٢٩) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٣٨ .

(٣٠) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٧ ص ٢٦ ،
Schefer : Voyage dn Magnifique : p. 211.

(٣١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٤ ترجمة آمنة ابنة على ابن أبى بكر البويطى .

(٣٢) زكى مبارك : التصوف جـ ٢ ص ٢٧٩ .

على أنه من المبالغة أن نصور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، وقد قدر المرأة على طول الخط وأحلها المكانة اللائقة بها فى المجتمع على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأيمن فى الحياة . فاذا رأينا بعض الاشارات والعبارات التى تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فان هناك فى المصادر نفسها من الاشارات ما يفهم منها أن المرأة ظلت « محل الازدراء والاستخفاف »[٣٣] . ومن المآخذ التى أخذها العامة على بعض القضاة فى عصر سلاطين المماليك أنه « اذا تحاكم اليه رجل وامرأته نصر المرأة » ، مما جعلهم يثورون على القاضى ويضربونه بالنعال وينهبون بيته[٣٤] .

ولم يتورع بعض سلاطين المماليك عن ضرب امرأة بين يديه وتشهيرها على حمارة فى الطريق العام وفى عنقها زنجير[٣٥] . كذلك حدث فى الفتنة بين منطاش والظاهر برقوق سنة ٧٩٢ هـ أن أمر منطاش بالقبض على أخوات الملك الظاهر وأخذهن حاسرات ومعهن جواريهن يسحبن بشوارع القاهرة ، فاختلط عويلهن ببكاء من شاهدهن من الناس[٣٦] .

الجوارى :

ومن هذا نفهم أن المرأة مهما قدرت فى المجتمع المصرى فى عصر المماليك إلا أن ذلك التقدير لم يصل الى الدرجة التى أصبح عليها فى المجتمعات الحديثة . ويرجع السبب فى ذلك الى أن نظرة المعاصرين الى المرأة قامت على أساس أن الله خلق المرأة للمتعة والاستغلال ليس الا . وظهرت هذه الفكرة بوضوح فى شغف الناس باقتناء الجوارى

---

(٣٣) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٨ هـ .

(٣٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٤٢ ترجمة حسين بن محمد ابن حسام الدين .

(٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٧ .

(٣٦) ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٤٩٢ .

الحسان ودفع الأموال الطائلة فى شرائهن ، حتى أن السلطان الناصر محمد تزوج بأربع فى حين وصلت حظاياه وجواريه الى أكثر من ألف ومائتين[٣٧] . وحكى الأمراء وعامة الأهالى سلاطين المماليك فى الإكثار من شراء الجوارى ، كل حسب سعته . وقد عرف فى ذلك العصر نوعان من الجوارى : البيض والسود ، وهناك من سلاطين المماليك — مثل الصالح اسماعيل — من فضل السود لعى البيض[٣٨] . وتوقفت قيمة الجارية ومنزلتها عند صاحبها على ما فيها من مميزات كحسن الطلعة أو جمال الصوت أو غير ذلك من المؤهلات[٣٩] . وكان بالقاهرة فى ذلك العصر أسواق لبيع الرقيق « كما تباع الأنعام والمواشى »[٤٠] . ولكل سوق منها دلال يجيد عرض « البضاعة » والترويج لها ، وإظهار محاسن الجارية ذات الوجه الجميل أو الصوت العذب ، أو غير ذلك من ضروب الفتنة والإغـراء[٤١] . وفـرض السلاطين على هؤلاء الدلالين ضريبة تعـادل نصـف الدلالة أو السمسرة ، وظلت هذه الضريبة حتى أبطلها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ[٤٢] .

وكثيرا ما تزوج السيد جاريته — الى جانب زوجته الحـرة — وفى هذه الحالة اشترط الفقهاء ضرورة عتق الجارية قبل العقـد عليها[٤٣] . ويتواتر فى المصادر المعاصرة أسماء كثيرات من الجوارى

---

(٣٧) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٢١٠ ، حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٣٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٣٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٣٩) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ سنة ٧٩٢ هـ .

(٤٠) Larrivaz : op. cit, pp. 50 — 51.

(٤١) سهير القلماوى : الف ليلة وليلة ص ٢٣١ .

(٤٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٤٥ .

(٤٣) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٩٦ ب .

قدر لهن أن يلعبن أدوارا هامة فى قصور السلاطين والأمراء ، بل حدث أن تزوج السلاطين بعضهن فارتفعن الى منزلة خوند الكبرى فى الآدر الشريفة ، كما حدث فى عهدى الظاهر خشقدم والأشرف برسباى[٤٤] . وكثيرا ما نسمع فى ذلك العصر أن شخصا اشترى جارية لخدمته فتحقد الجارية على سيدتها وتتملكها الغيرة وتعمد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدها[٤٥] .

وجرت العادة فى ذلك العصر أنه اذا دخل السلطان أو الأمير الحمام ، صحبته بعض الجوارى لخدمته فى الحمام[٤٦] . وفيما عدا اللذة الجنسية اقتنى السلاطين والأمراء الجوارى للغناء والطرب حتى أصبح من الأشياء المألوفة فى عصر المماليك أن يكون لكل ملك أو أمير جوقة مغان كاملة من الجوارى[٤٧] . ويروى المقريزى فى حوادث سنة ٧٤٨ هـ أن حدث فى تلك السنة أن « عرضت جميع الجوارى اللاتى بالقلعة ، ورسم بتزوج من أعتق منهن ، وفرق باقيهن »[٤٨] .

ولكن على الرغم مما ذكرته المصادر المعاصرة عن المكانة السامية التى تمتعت بها بعض الجوارى عند سادتهن[٤٩] ، إلا أن هناك اشارات عديدة فى هذه المصادر الى ما تعرضت له الجوارى أحيانا من الأذى والامتهان ، نتيجة لوضعهن الاجتماعى واعتبارهن سلعة لصاحبها مطلق التصرف فيها . وحسبنا ما جاء فى قصة مريم الزنارية —

---

(٤٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٧٣٨ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٦٩ ب ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٩٢ .

(٤٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٣٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٧٢ .

(٤٦) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٢١ ص ٣١ .

(٤٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٩٢ .

(٤٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٤٦ .

(٤٩) العينى : عقد الجمان سنة ٧٢١ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢٤ .

من قصص ألف ليلة — عندما عادت مريم الى أمها فسألتها عن حالها وهل هى بكر أم لا ، فردت الفتاة على أمها « يا أمى ! بعد أن يباع الانسان فى بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر يصير محكوما عليه ، فكيف أبقى بنتا بكرا ؟ ان التاجر الذى اشترانى هددنى بالضرب وأكرهنى وأزال بكارتى ثم باعنى لآخر ... »[٥٠] . هذا الى أن بعض السادة أكثروا من إيذاء جواريهم ، حتى حكى عن بعضهم أنه كان اذا ضرب احدى جواريه ، فان ضربه لها يتجاوز الخمسمائة عصاة[٥١] .

ويلاحظ أن الجوارى عشن فى قصور السلاطين والأمراء جزءا أساسيا من الحريم ، فطبق عليهم من قواعد العزلة والحجاب ما يطبق بالضبط على حريم السلطان أو الأمير . والفئة الوحيدة التى أبيح لأفرادها غشيان الحريم هى فئة الطواشية والخصيان ، بحكم ما لهم من وضع اجتماعى خاص[٥٢] .

المرأة والحياة العامة :

أما عن نصيب المرأة فى الحياة العامة بمصر على عصر سلاطين المماليك ، فهو بلا شك نصيب كبير يسترعى الانتباه . ذلك أنه رغم القيود الاجتماعية التى فرضتها التقاليد على المرأة فى ذلك العصر ، فانها أسهمت بنصيب وافر فى الحياة العامة . وحسبنا أن السخاوى أفرد جزءا كاملا من كتابه « الضوء اللامع » ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة ، كلها لنساء توفين فى القرن التاسع الهجرى ولمعظمهن نصيب كبير فى الحياة العامة بمصر فى ذلك القرن[٥٣] .

---

(٥٠) الف ليلة وليلة — قصة مريم الزنارية ج ٤ ص ١٠٨ .

(٥١) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٠٥ .

(٥٢) قال السيوطى — وهو معاصر — عن الخصيان أن نظـرة الخصى الى النساء « كنظرة الفحل الى المحارم » ، كما قال أن الخصى ينقضون الوضوء باللمس شأنهم فى ذلك شأن النساء (السيوطى : آكام العقيان فى أحكام الخصيان ص ١ ، ٢ ، ٣) .

(٥٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ .

ونسمع عن بعض السلاطين والحكام — كالسلطان إينـال — أنهم استسلموا لزوجاتهم ، حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير « من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة فى الدولة وطواعية السلطان لأوامرها »(٥٤) .وفى هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير « لا اختيار له معها »(٥٥) . كذلك وصف أبو المحاسن خوند زينب — زوجة السلطان إينال — بأنها « صار لها نصيب وافر مع السلطان فى كل هدية ورشوة »(٥٦) . كما وصفها ابن اياس بأنها « صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل »(٥٧) . ومثل هذه الأوصاف نجد لها أشباها كثيرة لبعض نساء المماليك ؛ كأم السلطان شعبان(٥٨) وزوجة السلطان برسباى وغيرهن(٥٩) .

وهناك أدلة واقعية كثيرة تثبت تدخل نساء السلاطين والأمراء فى شئون الحكم ومشاركتهم فى توجيه سياسة الدولة . وأول هذه الأمثلة شجر الدر التى وصفها المؤرخون بأنها كانت « صعبة الخلق قوية البأس »(٦٠) ، والتى استطاعت أن تنقذ البلاد وتدير شئونها فى فترة عصيبة من أحرج فترات التاريخ المصرى ، فضلا عن أنها تولت منصب السلطنة وقضت فيه ثمانين يوما برهنت فيها على كياسة عظيمة وذكاء وافر(٦١) . كذلك حدث سنة ٦٧٦ هـ عندما شب الخلاف بين الملك السعيد وأمرائه ، أن بعث الملك السعيد أمه لمفاوضة الأمراء

---

(٥٤) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٥٥) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٥٤ — ٥٥ ترجمة زينب بنة العلاء .

(٥٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٦٥ .

(٥٧) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٥٨) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٤ ص ٢١٤ .

(٥٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٧٩ .

(٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩١ .

(٦١) انظر كتاب « مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » للمؤلف ص ١٤ — ٢٢ .

فى الصلح ، فأظهروا لها كل احترام واشترطوا عليها شروطا كثيرة ، التزمت لهم بها وعادت الى ولدها لتخبره بنتيجة وساطتها[٦٢] . وتكررت هذه القصة فى دولة سلاطين المماليك أكثر من مرة عندما تدخلت نساء السلاطين للاصلاح بينهم وبين أمرائهم[٦٣] . ويروى المقريزى كيف تطرف بعض الولاة سنة ٧٣٧ هـ فى مصادرة التجار وانزال المظالم بهم ، فقام كثير من كبار الأمراء ليشفعوا للتجار ولكن السلطان لم يسمع لأحدهم قولا ، حتى اذا قامت ست حدق زوج السلطان الناصر محمد فى رفع الظلم عن التجار وعندئذ استمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فورا[٦٤] . وكثيرا ما تقرأ فى الكتب المعاصرة أن زوجة أحد السلاطين أو جاريته تسببت فى إلغاء مكس من المكوس ، كما قال ابن حجر عن طغاى زوج الناصر محمد « وبسببها أبطل الناصر عن مكة المكس الذى كان يؤخذ على القمح »[٦٥] . وعندما أدرك المعاصرون سلطة النساء ونفوذهم صاروا يوسطوهن لقضاء حوائجهم . فإذا تعذر على تاجر قضاء مطلب عند أهل الدولة ، بحث عن الطريق الذى يوصل به شكواه الى حريم السلطان ، وعندئذ تقضى حاجته فوراً[٦٦] . وقد حكى السخاوى عن العلم البلقينى أنه توصل الى منصبه عن طريق زوجته « لمزيد اختصاصها بخوند العظمى »[٦٧] .

ولم يقتصر نصيب المرأة فى الحياة العامة على التدخل فى بعض شئون الدولة ، وانما شاركت أيضا مشاركة فعالة فى الحياتين العلمية

---

(٦٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٦٣) زيتر شتين : تاريخ المماليك ٣٠ .

(٦٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤١٢ .

(٦٥) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ١٠١ ، الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٢١ ترجمة طغاى أم آنوك ، ابن قاضى شهبة : الاعلام جـ ٥ ص ٢٥ .

(٦٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١١٦ .

(٦٧) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٢٥ ترجمة خديجة ابنة امير حاج .

والدينية . ويسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن فى عصر سلاطين المماليك بالنحو وحفظن فيه الشىء الكثير ، كما نظمن الشعر(٦٨) . أما من اشتغلن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى . ودأبت الكثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر — شأن فقهاء ذلك العصر — للسماع من كبار المحدثين والعلماء(٦٩) . كذلك اشتهر بعضهن فى الحديث بصحيح البخارى فى قلعة الجبل ، الى جانب الفقهاء(٧٠) . وكثير من كبار فقهاء عصر المماليك سمعــوا من بعض المسندات الشهيرات اللائى أجــزن لهم(٧١) . ولم يأنف هؤلاء الفقهاء — مع عظم مكانتهم — من الاعتراف بذلك ، بل على العكس افتخــروا بأنهم سمعوا عــن فلانة وفلانة من المحدثات وأن بعضهن أجزن لهم . فابن حجر يذكر أنه حصــل على إجازتين الأولى من شمس بنت ناصر الدين محمد ، والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية(٧٢) . والسخاوى يصف كيف تزاحم طلبة العلم فى عصره على احدى المحدثات ، ويفخر بأنه ممن حملوا عنها كما أخذ عن غيرها(٧٣) . كذلك يذكر السخاوى أسماء كثيرات ممن أجزن له مثل آمنة ابنــة الشمس المتوفاه ســنة ٨٦٧ هـ ، وأمة الخالق ابنة الزين عبد اللطيف المتوفاة سنة ٨٨٣ هـ ، ورجب ابنة الشهاب أحمد المتوفاة سنة ٨٦٩ هـ وأم هانىء ابنة التقى محمد المتوفاة سنة ٨٨٥ هـ(٧٤) .

---

(٦٨) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٩٥ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٩ .

(٦٩) العينى : عقد انجمان سنة ٧١٦ هـ ، ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٧١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ١١٩ ترجمة احمد بن محمد بن عبد الرحمن القاهرى ، ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ٩٢ .

(٧٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٥٥٥ .

(٧٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٧٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ١٠ — ١١ ترجمة آنس ابنة عبد الكريم ، ص ١٣١ ترجمة هاجر ابنة المحدث الشرف ابى الفضل .

(٧٤) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٤ ، ٩ ، ١٣٤ ، ١٥٩ .

وفى عصر سلاطين المماليك ظهر بوضوح اقبال عامة النساء على مجالس العلم والدين، فحرصت كثيرات منهن على الذهاب الى المجالس حيث يجلسن فى مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية[٧٥] . وقد خص بعض الفقهاء والوعاظ النساء دون الرجال بعلمهم[٧٦] ، وحجتهم فى ذلك أن النساء لا يعلمهن أحد من أزواجهن شيئا ، ولذلك يجب اعطائهن عناية خاصة حتى يعرفن أحكام الدين وما لهن من حقوق وما عليهن من واجبات الزوجية والجيرة[٧٧] . والى جانب هؤلاء الوعاظ من الرجال ظهر عدد كبير من الوعظات اللائى تخصص فى وعظ النساء وتعليمهن وتحفيظهن القرآن[٧٨] .

كذلك سلكت بعض النساء فى عصر المماليك طريق التصوف ، فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن الشيخات[٧٩] ومن زوجات السلاطين — مثل خوند شكرباى زوجة الظاهر خشقدم — من وصفت بأنها « تميل الى طريقة الفقراء ولبست الخرقة الأحمدية »[٨٠] . ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التى خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن[٨١] كذلك حرصت الشيخات على أن يلبسن الصوف لمن تتوب على يدها وتدخل فى طريقتها ، مثلما يفعل

---

(٧٥) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢١٩ .

(٧٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٨٤٥ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ١١١ ترجمة ابو العباس أحمد الزاهد .

(٧٧) طبقات الشعرانى جـ ٢ ص ١١١ .

(٧٨) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٦٠ ترجمة اسماء بنت الفخر ابراهيم ، جـ ٢ ص ٢١٣ ترجمة حنيفة بنت المحدث ، وترجمة عائشة بنت ابراهيم ، جـ ٣ ص ٢٢٦ ترجمة فاطمة بنت عباس الواعظة .

(٧٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٨٤١ .

(٨٠) ابن اياس : صفحات لم تنشر ص ١٥٩ ، ١١٣ .

(٨١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٩ ، الخطط جـ ٤ ص ٢٩٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٦١ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٦٤ .

مشايخ الصوفية من الرجال . وقد عاب ابن الحاج على المتصوفات فى عصره رفع أصواتهن بالذكر ، وقال أن العجيب فى هؤلاء الشيخات أنهن لايمضين الى موضع لعمل الذكر فيه الا بعد دفع الرسم المقرر «لضامنة المغانى !!»[٨٢] .

أما عن نشاط النساء فى شوارع المدينة وأسواقها ومتنزهاتها فكان عظيما على عصر سلاطين المماليك . فمجالس الخلاعة بالقاهرة زخرت بالنساء الى جانب الرجال[٨٣] . ولاحظ سانوتو Sanuto الذى زار مصر فى عصر المماليك أن النساء يتمتعن بقسط وافر من الحرية ، حتى أن بعضهن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهار ، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن[٨٤] . كذلك ذكر ابن الحاج أن النساء فى عصره يباشرن معظم أمور الشراء من الأسواق « بل الغالب أن المرأة تشترى لزوجها ما يحتاج اليه فى لباسه لنفسه »[٨٥] . فاذا لم يكن لهن حاجة من السوق فانهن يذهبن الى الحمامات العامة حيث يأنسن ببعض ، أو يذهبن الى الأعراس التى لا انضباط فيها على القوانين الشرعية[٨٦] . وكثيرا ما خرجت النساء الى القرافات والبرك وشاطىء النيل وغيرها من أماكن اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ، ويختلط النساء بالرجال ، الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه[٨٧] . ولذلك حاول بعض السلاطين منع النساء من الخروج الى الطرقات أو الذهاب الى المقابر

---

(٨٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٨٣) الجويرى : المختار فى كشف الأسرار ص ٣٥ .

(٨٤) Schefer : Le Coyage d'Ontremer; p. 33.

(٨٥) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٥٥.

(٨٦) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٤٢ .

(٨٧) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٧ — ٢٣ .

ومواضع النزهة ، ولكن ذلك المنع لم يستمر الا زمنا محدودا يعود بعده الحال الى ما كان عليه من قبل[٨٨] .

هذا عن نساء المدن ونصيبهن فى الحياة العامة ، أما الفلاحة فى الريف فكانت فى عصر المماليك ـــ كما هى اليوم ـــ تنهض بنصيب فى الحياة لا يقل جهدا ومشقة عن نصيب زوجها . فعليها يقع عبء جلب مياه الشرب من النهر أو الترعة ، وغسل الملابس فيها ، وعمل «جواليس الجلة ليليسوا بها بيوتهم وأفرانهم » . هذا زيادة على ارضاع أطفالها واعداد الطعام لزوجها ، ووقيد الفرن لخبز الخبز « وتدميس الفول وطبيخ البيسار وتقمير البتاو »[٨٩] .

---

(٨٨) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٣ ، ص ١٢٠٩ ، سنة ٨٤٤ هـ (تحقيق المؤلف) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٠ .

(٨٩) الشربينى : هز القحوف ص ٥٤ .

الفصل السادس

الحيـــاة العلمية والدينيـــة

نشـــاط الحياة العلمية

أصبحت مصر على عصر سلاطين المماليك محـــورا لنشاط علمى كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقيها وغربيها وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم فى مختلف العلوم والفنون • ومما جعـــل مصر محورا للنشاط العلمى ما أصاب المسلمين فى القرن السابع الهجـــرى من كوارث على أيدى المغول فى العـــراق والشام وعلى أيدى المسيحيين فى الأندلس ، اذ تحول كثير من علماء تلك الأقطار الى مصر واختاروها محلا لإقامتهم ونشاطهم • ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما حدث فى غرب أوربا بسبب ســقوط القسطنطينية فى أيـــدى العثمانيين سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م ، لأن ســقوط بغـــداد فى أيـــدى المغـــول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م جعـــل علماءها يهاجرون الى مصـــر وغـــيرها من البـــلاد الواقعة بين بغـــداد والقـــاهرة • ثم ان احيـــاء الخـــلافة العباسية بمصر على أيـــدى المماليـــك ســـنة ٦٥٩ هـ هيـــأ القـــاهرة لأن تـــرث بغداد وتصبح مركز النشاط العلمى والدينى فى العالم الاسلامى[1] •

ولم يكن سلاطين المماليك وأمراؤهم بعيدين كل البعد عن ذلـــك النشاط العلمى الذى ساد مصر فى عصرهم • وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه « كان يميل الى التاريخ وأهله ميلا زائدا

---

(١) ذكر ابن حجر ان بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الاسلامية ، قدموا عن بلادهم « هذا بلد ضيق عن علمى » وهجروها الى مصر • (ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ١٦٨ ب) •

ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب[٢] . كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان الغورى مثــلا — من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع[٣] . وقــد بحثت فى تلك المجــالس مختلف المسائل والمشاكل العلميــة والدينية وتناقش فيها الحاضرون من كبار العلمــاء والفقهاء . وكثيرا ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة ، فتبدأ كل مسألة بعبارة « قال حضرة مولانا السلطان .. » ثم يأتى الرد على سؤاله من جانب العلماء ويتضح من دراسة هذه الأمثلة أنها لم تقتصر على ناحية واحدة من نواحى المعرفة ، بل تناولت النواحى الدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها[٤] . كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبــة والتدريس لهم[٥] . ويكفى أن أذكر القارىء بأن اثنين من المؤرخين الذين اعتمدت على مؤلفاتهم فى وضع هذا الكتاب يرجعان الى أصل مماليكى ، هما أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى وبيبرس الدوادار .

المــدارس :

وأعظم دليل على النشاط العلمى فى عصر المماليك كثرة المدارس التى أنشأها السلاطين من عهد السلطان بيبرس فصاعدا حتى عهــد السلطان الغورى . ولا مبالغة فى قول القلقشندى أن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس « ما مــلأ الأخطاط وشحنها »[٦] . كذلك ذكر ابن بطوطة عن مدارس مصر فى القرن الثامن أنه « لا يحيط أحد بحصرها

---

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٢ .
(٣) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ص ٤٩ .
(٤) الكوكب الدرى فى مسائل الغورى .
(٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .
(٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

لكثرتها »[٧] ، وعدد منها الكثير فى مختلف المــدن المصرية بالصعيد والوجه البحرى[٨] .

والواقع أنه لا يمكن القــول بوجود سياسة تعليمية للدولة أو السلاطين فى عصر المماليك ، وكل ما هنالك هــو أن سلاطين المماليك وأمراءهم أمعنوا فى بنـــاء المدارس والمكاتب والمساجد (التى قامت أحيانا بوظيفة المدارس) مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل منها التقوى والزلفى ، واستخدامها فى محاربة المذهب الشيعى ، ومنها اتخاذ المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم فى أيديهم ودعم مركزهم فى أعين الشعب[٩] .

وجرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بافتتاحها ، فينزل السلطان اليها فى جمع من أمرائه ، ويجتمع الفقهاء والقضاة والأعيــان فى صحن المدرسة حيث يمــد سماط زاخر بمختلف ألوان الأطعمة من لحوم الخيل والخراف والأوز والدجاج فضلا عن الحلوى والفواكه ، كما تملأ فسقية المدرســة بشراب السكر والليمون فيأكل جميع المدعوون ، وتنهب العامة بقية السماط . ثم يخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين[١٠] ، كما يعين للمدرسة موظفيهــا من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والفراشين وغيرهم[١١] .

وقد وصف المقريزى الاحتفال بافتتاح المدرسة الظاهرية التى

---

(٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ص ٩٦ — ١٠٠ .

(٩) Ibrahim Salama : L'Enseignement Egypte, pp. 60 — 64.

(١٠) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٨١ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٦٤ .

(١١) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٧٧٢ ، ابن حبيب : درة الاســلاك ج ٣ ص ١٥٩ .

بدأ السلطان الظاهر بيبرس عمارتها سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) واستغرق بناؤها سنتين ، فذكر كيف اجتمع أهل العلم فيها «وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب فى ايوانهم ، وفوض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن ... وتدريس الشافعية للشيخ تقى الدين محمد ابن الحسن ... ، والتصدير لاقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلى ، والتصدير لافادة الحديث النبوى للشيخ شرف الدين عبد المؤمن ... وذكروا الدروس ومدت الأسمطة ، وأنشد جمال الدين ... »(١٢) .

كذلك يفهم من الوصف الذى ذكره النويرى للمدرسة الناصرية التى شيدها السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٣ هـ أن المدرسة كان بها أربعة أواوين ، كل منها خاص بأحد مدرسى المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكى اختص بالايوان القبلى والشافعى بالايوان البحرى والحنفى بالايوان الشرقى والحنبلى بالايوان الغربى(١٣) .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر ، يخلع السلطان على صاحبها(١٤) ويكتب له توقيعا من ديوان الانشاء يختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس ان كانت تفسيرا أو حديثا . وفى هذا التوقيع يقدم السلطان النصح للمدرس بأن يظهر « مكنون علمه » لطلاب ، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر ليستميل اليه طلبته « ويربيهم كما يربى الوالد ولده »(١٥) . كذلك طلب من المدرس « أن ينظر فى طلبته ويحثهم كل وقته على الاشتغال »(١٦) . وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج الى

---

(١٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٤ .
(١٣) النويرى : نهاية الارب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها .
(١٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠٤ .
(١٥) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .
(١٦) النويرى : نهاية الارب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها .

الشرح[١٧] . وقد نصت حجة وقف المدرسة الناصرية على أن يعين ناظر الوقف لكل مدرس من مدرسى المدرسة « من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد ، وينتصب كل معيد ممن عين فى جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته ؛ ويشرح لمن احتاج الشرح درسه ويصحح له مستقبله ويرغب الطلبة فى الاشتغال ، ولا يمنع فقيها أو مستفيدا ما يطلب من زيادة تكرار وتفهم معنى ، ولا يقدم أحدا من الطلبة فى غير نوبته الا لمصلحة ظاهرة » . أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التى يدرسونها بحيث « لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبـة بما يختاره من أنواع العـلوم الشرعية[١٨] » . وكثيرا ما اعتمد هـذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية ، فابن حجر مثلا — وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجرى — اعتاد أن يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والمستملين[١٩] . ويظل الطالب يحضر دروس أحد المدرسين أو الشيوخ حتى يأخذ منه كفايته فينتقل الى آخر ، وهكذا حتى قال السيوطى عن نفسه « أخذت العلم عن ستمائة شخص »[٢٠] . كما أخذ السخاوى العلم عن أكثر من أربعمائة نفس[٢١] . وتطلبت هـذه الطريقة من طالب العلم أن يجول فى مختلف البلاد والأقطار ليسمع من مشاهير العلماء فيها . لذلك كان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر أن يطوف طالب العلم بمختلف مدن العالم الاسلامى ليتتلمذ على هذا الفقيه أو ذاك المحدث[٢٢] .

وقـد ألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع اليهـا المدرسون

---

(١٧) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٠٠ حاشية ٣ ، الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٣ ص ١٦٤ .

(١٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ١٥ .

(١٩) Ibrahim Salama : op. cit, p. 81.

(٢٠) الشعرانى : ذيل لواقح الأنوار ص ٣ ب .

(٢١) العيدروسى : النور السافر ص ١٦ — ١٧ .

(٢٢) الدمشقى : ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ .

الطــلاب فى البحث والاستقصاء[٢٣] . وقام بالاشراف على خزانة الكتب بالمدرســة « خازن الكتب » الذى عهــد اليه بترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحبكها وترميمها بين حين وآخر ، فضلا عن ارشاد القراء الى ما يلزمهم من مراجع . لذلك كان يختار لخزانة الكتب فى المدرسة فقيها أو عالما يراعى فيه سعة العلم والأمانة . وضمت خزائن الكتب بالمدارس أنواعا عديدة من المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون « من تفسير وحديث وفقــه ولغة ومعان وبيان وبديع وأصول فقــه وأصول دين ومنطق وغير ذلك من نحو وصرف وغيرها »[٢٤] . وأطلقت حجة وقف المدرسة الناصرية اسم « شاهد خزانة الكتب » على الأمين أو الخازن ، وحددت عمله بأن « يحفظ ما فيهــا من الكتب ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها ، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة . »[٢٥] أما حجة وقف الغورى فقد نصت على أن يقوم الخازن بفتح الخزانة (المكتبة) يومين فى الأسبوع لطلبة العلم ، « ومن طلب منه كتابا فى علم من العلوم أو فن من الفنون يدفع له لينتفع به فى المدرسة ، ولا يمكنه من الخروج به من المدرسة ولو دفع اليه شيئا يساوى أضعاف قيمته » على أنه يستفاد من بعض الوثائق الأخرى التى ترجع الى عصر المماليك أنه سمح باعارة الكتب خارج المدرســة لطلبتها أو لمن يوثق به « بعد أخذ خطة منه ، ولم يكن يسمح الا باعارة كتاب واحد فاذا أعاده مسح اسمه ، وألا تتأخر الكتب عند المستعير حتى لا يحصل النسيان ، بل يتعهدها الخازن بالسؤال »[٢٦] .

فاذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه

---

(٢٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٤٦٧ .

(٢٤) حجة وقف الغورى (ارشيف الاوقاف) .

(٢٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها .

(٢٦) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية ج ١ تحقيق ٦٢٨ .

ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الاجازة وغير ذلك[٢٧] . وهناك أنواع أخـرى من الاجازات عرفها المعاصرون ، منها الاجازة « بعراضة الكتب » ، فيحفظ الطالب كتابا فى الفقه أو النحو مثـلا ثم يعرضه على أحد مشايخ عصره ، فيفتح الشيخ الكتاب ويستقرأ الطالب فى عـدة أماكن متفرقة ، فاذا مضى الطالب فيها من غير توقف أو تلعثم كتب له شهادة بذلك « عرض على فلان ... »[٢٨] . وتتوقف قيمـة الاجازة على سمعـة الشيخ الذى صدرت عنه ومكانته العلمية . وهناك من أساتذة وشيوخ ذلك العصر من وصف بأنه « عسر على الطلبـة » بمعنى التشديد عليهم وعدم الاجازة لهم فى سهولة[٢٩] .

ولم تخل الحياة العلمية فى مدارس العصر المماليكى من ضروب الترويح عن النفس ، فأقيمت بالمدارس بين حين وآخر حفلات لمختلف المناسبات العلمية كختم البخارى[٣٠] أو الفراغ من تصنيف كتاب[٣١] وفى مثل هـذه الحفلات المدرسية يقوم الداعى باحضـار « الحلوى والمخبوز والتفاح والفاكهة والبخور » حتى تصل نفقات الحفلة أحيانا الى خمسمائة دينار . ويجلس أهل المدرسة ومعهم الأعيان والقضاة وغيرهم حيث يمضون بعض الوقت فى أحاديث ومناقشات علمية مفيدة وربما صرفت المدرسة على الحفلة من أوقافها .

والواقع أن الأوقاف والأحباس هى التى ثبتت أركان المدرسة ودعمت نظامها ومكنتها من القيام برسالتها فى عصر المماليك . وقد

---

(٢٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ — ٣٢٦ .
(٢٨) نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ .
(٢٩) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٢٣ ص ١٤١ .
(٣٠) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١٦ .
(٣١) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٥ — ٨٦٠ ، السـخاوى : الذيل على رفع الاصر ص ٨٣ — ٨٤ .

بلغت الأراضى المحبوسة على المدارس والمساجد والزوايا فى عهد الناصر محمد بن قلاوون مائة وثلاثين ألف فدان[٣٢] . ولم تقتصر الأوقاف على الأراضى بل شملت كثيرا من البيوت والأسواق والمعاصر وغيرها[٣٣] . وهكذا جرت العادة فى ذلك العصر بأن ينشىء السلطان أو الأمير المدرسة أو المكتب ويقف على ذلك الأوقاف الواسعة من أراضى ودور وغيرها لينفق من ريعها على مرافق المدرسة أو المكتب وعلى موظفيها من المدرسين والشيوخ ، فضلا عن طلبة المدرسة من ذوى المذاهب أو تلاميذ المكتب من الايتام ، حتى ينصرف الجميع الى رسالتهم فى جو من الاطمئنان وراحة الفكر . بل كثيرا ما نصادف بعض الواقفين فى الوثائق المعاصرة ، وقد وقف الممتلكات على منشآت غيره التعليمية وذلك طلبا للمغفرة وحسن الثواب[٣٤] . فاذا عين شيخ فى التدريس باحدى المدارس فانه يأخذ ما هو مقرر له فى شروط الوقف من مرتب شهرى يصل فى المتوسط الى أربعين دينارا ، عدا مقادير الخبز واللحم التى تصرف له يوميا . أما بالنسبة للطلبة فلم يكن التعليم فى ذلك العصر مجانيا فحسب، بل كفل لهم أيضا المسكن والكساء فضلا عما تقرر لهم من مقررات نقدية وعينية تصرف « فى كل شهر من شهور الأهلة » وفق شروط الواقف[٣٥] . ويبدو أن هذه المقررات لم تكن واحدة لجميع طلبة المدرسة ، وانما اختلفت وفق ما يراه ناظر الوقف « من التسوية والتفضيل »[٣٦] . وقد أدى ذلك الى التحاسد بين الطلبة بسبب نقص مقرر أحدهم عن زميله فيقول

---

(٣٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٣٣) Iblahim Salama : op. cit. p. 67.

(٣٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية مجلد ٢ ص ١٤٥ .

(٣٥) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٣٤١ ومابعدها .

(٣٦) المصدر السابق .

« كيف يأخذ فلان كذا وكذا بينما أنا أكثر منه بحثا وقد حفظت الكتاب الفلانى ... »[٣٧] .

والواقع أن الحياة العلمية فى عصر المماليك لم تخل من عيوب ، أظهرها التباغض والتحاسد بين العلماء « والمواطأة لبعضنا بعضا »[٣٨] . ذلك أن بعضهم كره أن يعرف تلميذه غير شيخه الذى يعمل معه ؛ فيوهم كل شيخ تلاميذه أنه وحيد عصره وفريد زمانه فى العلم ، وأن من سواه جهلاء لم يأتوا من العلم إلا قليلا[٣٩] . وتطلب ذلك الوضع من طالب العلم أن يطيع أستاذه طاعة عمياء ؛ فيأخذ كل ما يرويه الإستاذ على أنه قضية مسلم بها ، حتى قيل « من لم يز خطأ شيخه صوابا لم ينتفع به »[٤٠] . ثم إن بعض الشيوخ فى ذلك العصر تشوقوا الى المناصب وبذلوا الأموال فى الوصول إليها ، حتى قال السخاوى أن أحد المدرسين توصل الى منصبه ببذل مائة دينار[٤١] . وقد أحس المعاصرون بهذه المفاسد فنقدوها وطالبوا باصلاحها فى شعرهم ونثرهم[٤٢] .

---

(٣٧) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٣٨) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٩ .

(٣٩) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٦٩ .

(٤٠) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٩٨ .

(٤١) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٦١ ، ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٥٧ .

(٤٢) من ذلك ما قاله الادفوى (ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٣٦) :

ان الدروس بمصرنا فى عصرنا
طبعت على لفظ وفرط عياط
ومباحث لا تنتهى لنهاية
جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها
نشأت عن التخليط والأخلاط

وثمة ملاحظة أخيرة على المدارس فى ذلك العصر ، هى أن المدرسة لم تكن فى كثير من الحالات بناءا مستقلا قائما بذاته ، وإنما كانت جزءا ملحقا بالقبة التى بناها السلطان أو الأمير ليدفن فيها بعد وفاته . من ذلك أن الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس أمر سنة ٦٧٦ هـ « ببناء مدرسة لدفن أبيه فيها حسب وصيته »[٤٣] كذلك أنشأت ابنة السلطان الناصر محمد المدرسة الحجازية « وأقامت بجوارها قبة من داخلها لتدفن فيها »[٤٤] . ومن الواضح أن هذا التفكير مصدره طلب الرحمة لصاحب المدرسة بوصفها مكانا تدرس فيه العلوم الدينية المتنوعة . هذا الى أن المدرسة كان بها دائما مسجدا له عدد من المؤذنين « عارفين بالأوقات يعلنون بالأذان الشرعى فى المئذنة التى تنشأ على الباب ، ليلا ونهارا ، وإقامة الصلوات والتسبيح والتذكار فى الأسحار ، على ما يراه الناظر متناوبين أو مجتمعين ، وعلى ما يراه من ترتيبهم فى القبة والمدرسة .. »[٤٥] .

كذلك كان للمدرسة ساقية تقوم باجراء الماء « من البئر الى الصحن أمام إيوان القبة والى الفسقية التى بوسط المدرسة والى الميضأة التى بالمدرسة » . وحددت شروط الوقف الخاص بالمدرسة كيفية الانفاق على هذه المرافق وغيرها مما « تحتاج اليه المدرسة

=

ومحدث قد صار غاية علمه
أجزاء يرويها عن الدمياطى
والفاضل التحرير فيهم دابة
قول ارسطاطاليس او بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة
هذا زمان فيه على بساطى

(٤٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٢٦٣ .

(٤٤) محمود أحمد : العمارة العربية ص ٩ .

(٤٥) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها .

المذكورة من الحصر والقناديل والبصاقات الزجاج والأطباق النحاس والسلاسل والأباريق والجرار ... »[٤٦]

المكاتب :

واذا كانت المدارس في ذلك العصر تمثل المعاهد العليا أو الجامعات في عصرنا ، فان المكتب نهض عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم . ويفهم من المصادر المعاصرة أن الغرض الاساسى من إنشاء المكتب في عصر المماليك كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك سارع الخيرون الى انشاء المكاتب وحبس الأوقاف عليها للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم[٤٧] . ويقال إن السلطان الظاهر بيبرس أقام مكتبا لتعليم الأيتام ورتب لكل طفل بالمكتب جراية فى كل يوم وجامكية فى كل شهر وكسوة فى الشتاء وأخرى فى الصيف[٤٨] . وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن[٤٩] . وأطلق أحيانا على المؤدب اسم الفقيه ، واشترط فيه عدة شروط خلقية واجتماعية وعلمية ، كأن يكون متزوجا صحيح العقيدة متدينا عاقلا « من حملة كتاب الله العزيز ، عالم بالقراءات السبع وروايتها وأحكامها ، صالح لتعليم القرآن والحديث والخط والآداب والاستخراج ؛ وأن يكون ممن اشتغل بالحديث والعلوم الشرعية ، وأن يعلم الأطفال ما يطيقون تعلمه ، وأن يعاملهم بالاحسان والتلطف والاستعطاف فيما يرغبهم فى القراءة ويطيب لهم الاشتغال بالعلم .. ومن أتى منهم بما لا يليق أدبه ويفعل ما أباحه الشرع

---

(٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١ ، بولاق .

(٤٨) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٢١ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٩ ص ٣٠ (مخطوط) .

(٤٩) Ibrahim Salama : op. cit; pp. 104 — 109.

ولا يضرب الضرب المبرح .. »[٥٠] . أما العريف فاشترطت فيه الشروط الخلقية والدينية نفسها المطلوب توافرها فى المؤدب ، وطلب اليه معاونة الأطفال المتخلفين عن غيرهم كما كان يراجع ألواح الاطفال فى غيبة المؤدب[٥١] .

أما عن طريق التربية والتدريس فى المكاتب . فقد اشترط على المؤدب « أن يترفق بالصغير ، وأن يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل ، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعا ، ثم يعرفه عقائد السنن ثم أصول الحساب ، وما يستحسن من المراسلات . وفى وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخط على المثال ، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظا غائبا لا نظرا . ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة .. ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة ، والسلام عليهما وتقبيل أياديهما عند الدخول اليهما . ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام ، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والبيض والنرد وجميع أنواع القمار . ولا يضرب صبيا بعصى غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لا تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا . ويتخذ مجلدا عريض السير ، ويعتمد بضربه على الالايا والأفخاذ وأسافل الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة وينبغى للمؤدب أن لا يستخدم أحد الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عار على آبائهم ، كنقل التراب والزبل وحمل الحجارة وغير ذلك .. »[٥٢] .

فاذا أتم الولد حفظ القرآن احتفل به احتفالا كبيرا يسمى « الإصرافة » ، فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقفه بالحرير ، ويقوم

---

(٥٠) حجة جمال الدين الاستادار (١٠٦ أرشيف المحكمة الشرعية) .

(٥١) عبد اللطيف ابراهيم على ، دراسات تاريخية واثرية جـ ٢ ص ١٤٦ .

(٥٢) ابن الاخوة : معالم القرية ص ١٧٠ — ١٧١ .

أهل الصبى صاحب الإصرافة بزينته « كما يزينون النساء » ، فيحلونه بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها ثياب من حرير وعمائم . ويسير بين يديه بقية صبيان المكتب ، ينشدون طوال الطريق الى أن يوصلوه الى بيته . وعندئذ يدخل الشيخ ويعطى اللوح الأم صاحب الإصرافة ، فتعطيه ما تقدر عليه من مال[٥٣] .

أما من يظل بالمكتب حتى البلوغ دون أن يحفظ القرآن فكان يصرف ليحل محله أحد صغار الأيتام . وكان الطبيب يزور المكتب فى كل شهر « عند تنزيل الأيتام ، ويكشف من يظن به البلوغ منهم ، فمن وجده بلغ أخبر بحاله فيقرر الناظر غيره مكانه »[٥٤] ولم يستثن من ذلك الا حالات قليلة ، كأن يظهر أحدهم نبوغا وميلا للدرس مما يبشر بفلاحه ، فعندئذ كان يستمر بالمكتب ويسمح له بالاشتغال بالعلم[٥٥] .

هذا ، ويبدو أن هذه المكاتب الخاصة بتعليم الأطفال اختصت الصبيان دون البنات ، فلم يصادفنى فى وثائق عصر المماليك أو مراجعة ما يشير الى وجود مكاتب لتعليم البنات ، بل على العكس جاء فى كتابات المعاصرين أن « لا يعلم الخط امرأة ولا جارية ، فقد ورد النهى بذلك ... وقيل إن المرأة التى تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سما »[٥٦] .

---

(٥٣) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٣ .

(٥٤) حجة وقف الغورى ، ٨٨٣ أوقاف .

(٥٥) عبد اللطيف ابراهيم على ، دراسات تاريخية وأثرية ج ١ ص ٥٤ تحقيق ٦٥٦ .

(٥٦) ابن الاخوة : معالم القربة ص ١٧١ — ١٧٢ .

النشــاط الدينى والتشــيع

أما عن الحياة الدينية ، فمن المعروف عند علماء الاجتماع أن الدين دائما يكون ركنا أساسيا فى بناء المجتمع ودعمه ، حتى قــال بعضهم أن الدين فى المجتمع شبيه بالأسمنت الذى يربط أجـــزاء البناء(٥٧) . وقد شهدت مصر فى عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير خدمة للسنة . غير أنه برغم الجهود التى بذلها سلاطين الأيوبيين فى مصر للقضاء على الشيعة والتشيع ؛ فان الكثير من آثار المذهب الشيعى ظلت باقية واضحة فى عصر المماليك . مثال ذلك ما قيل من أن بلدة أصفون — القريبة من الأقصر — وجد بها فى القـــرن الثامن الهجرى « طائفة من الاسماعيلية والرافضة والامامية وطائفة من الدرزية والحاكمية »(٥٨) . ويقول ابن حجر عن أحد أدباء مصر فى عصره أنه فاضل وأديب « ولكنه يميل الى الرفض »(٥٩) . وحكى بعض أهالى الصعيد أيام أبى المحاسن « أن غالب مزارعى بلـــدنا أشرافا علوية »(٦٠) . وهؤلاء الأشراف الذين ظلوا موضع رعاية سلاطين المماليك لأنهم من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم(٦١) ، كما ميزوهم بعلامة خضراء فى عمائمهم تشريفا لهــم(٦٢) ، « كان معظمهم شيعة زيدية ويتجاهرون بذلك »(٦٣) ، ووصف ابن حجـــر

---

(٥٧) Gillin : op. cit. 282.

(٥٨) شمس الدين الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٣٣ .

(٥٩) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٤١٥ ترجمة عبد الملك بن الأعز الاسنائى .

(٦٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣٩ .

(٦١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١١ ص ١٦٢ ، زيترشتين : تاريخ المماليك ص ٢١٧ .

(٦٢) العينى : عقد الجمان سنة ٧٣٣ هـ ، أبو المحاسن : النجـــوم جـ ٥ ص ٢١٦ (كاليفورنيا) .

(٦٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢٨٦ (كاليفورنيا) .

بعض معاصريه من أهل الاسكندرية بأنه « شديد فى مذهب التشيع من غير سب ولا رفض »[٦٤] . وحدث أكثر من مرة فى عصر سلاطين المماليك أن ثار بالقاهرة جماعة من « السودان والركبدارية والغلمان » فيشقون المدينة صائحين « يا آل على ! »[٦٥] .

ولعل ظهور تيار التشيع بعض الأحيان بهذا الشكل هو الذى حدا بالسلطان بيبرس أن يأمر سنة ٦٦٥ هـ باتباع المذاهب السنية الأربعة « وتحريم ما عداها » ، وأن يأمر ألا يولى قاضى ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لاحدى وظائف الخطابة أو الامامة أو التدريس « ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ! »[٦٦] . وتظهر الروح العدائية من جانب سلاطين المماليك وفقهائهم ضد طوائف الشيعة فى الفتوى التى أصدرها ابن تيمية — من علماء القرن الثامن الهجرى — والتى وصف فيها بعض طوائف الشيعة بأنهم أكفر من اليهود والنصارى وأفتى بالقضاء عليهم ومحاربتهم[٦٧] . وتفيض وثائق وحجج ذلك العصر بأخبار الحرب السافرة بين السنة والشيعة فى مصر ، الأمر الذى استمر الى ما بعد الفتح العثمانى لمصر ، عندما نصت احدى الحجج الشرعية على « ألا يسكن الرباط بمكة أو المدينة إلا أهل السنة والفقراء دون الروافض والشيعة ، فلا يعطى أحد منهم حجرة وإن كانت خالية وتبقى خاوية ! »[٦٨] .

---

(٦٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ١٣٠ ترجمة على بن المظفر الاسكندرانى .

(٦٥) العينى : عقد الجمان سنة ٦٥٩ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٤٠ .

(٦٦) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٦١ .

(٦٧) Guyard : Le Fetwa d'Ibn Taimiyyah sur les Nostiris pp. 159 — 179.

(٦٨) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية ، المجلد الأول ص ٢٩ .

ومن هذا كله يبدو أن إحياء الخلافة العباسية بمصر لم يكن سببه حرص سلاطين المماليك على تكوين سلطة روحية يسندون اليها سلطنتهم فحسب ، بل مناهضة التشيع فى مصر كذلك . وعبر السيوطى عن ذلك بأن مصر منذ أصبحت دار الخلافة العباسية « علت فيها السنة وعفت منها البدعة »[٦٩] . ومن الأدلة على ذلك أيضا قول الادفوى — عند استعراضه لبلاد الصعيد فى عصره — إن التشيع كان فى إسنا « فاشيا والرفض ماشيا فجف حتى خف » ، وقوله عن بلدة اصفون أنها كانت معروفة « بالتشيع البشع ، لكنه خف بها وقل »[٧٠] .

على أن ذلك كله لا يدل على شىء سوى تضاؤل الجماعات التشيعية مع استمرار بقائها ، بدليل أن الناس كانوا اذا أرادوا أن يكيدوا لشخص فى عصر المماليك « دسوا عليه من رماه بالتشيع » فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والاهانات « حتى يظهر التوبة من الرفض »[٧١] . كذلك ظلت المشاحنات مستمرة بين أهل السنة والشيعة طوال عصر المماليك . وتمثل ذلك بوضوح فيما نظمه بعض شعراء ذلك العصر[٧٢] .

الخلافة العباسية فى القاهرة :

أما الخليفة العباسى فظل منذ إحياء الخلافة العباسية بمصر سنة ٦٥٩ هـ وخلافته « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير

---

(٦٩) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٦ .

(٧٠) الأدفوى : الطالع السعيد ص ١٧ .

(٧١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٤٦ ترجمة جلال الدين حسن بن منصور .

(٧٢) محمد كامل حسين : التشيع فى الشعر المصرى فى عصر الايوبيين والمماليك ص ٧٣ — ٧٤ .

المؤمنين »[٧٣] • وذلك أن الذى استقر عليه حال الخلفاء العباسيين بالديار المصرية أن يفوض الخليفة الأمور العامة الى السلطان ، ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، فى حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد[٧٤] • وكثيرا ما لجأ بعض سلاطين المماليك الى تحديد إقامة الخليفة ، فيظل فى بيته بعيدا عن الاختلاط بالناس ، كما فعل الظاهر بيبرس مع الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى سنة ٦٦٣ هـ ، وكما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفى بالله سنة ٧٣٦ هـ[٧٥] •

القضـــــاة :

أما القضاة فتمتعوا بمنزلة رفيعة لم يتمتع بها الخلفاء فى عصر سلاطين المماليك • وقد روعيت فى اختيار القاضى شروط معينة هى « البلوغ والعقل والحرية والذكورة والاسلام والعدالة والسمع والبصر والعلم » • فاذا عين السلطان أحدهم فى منصبه خلع عليه ، ثم ينزل القاضى من القلعة فى موكب حافل وبرفقته أمراء الدولة ، وسائر القضاة ونوابهم ، ويسير الموكب من القلعة الى بيت القاضى وسط الشموع والقناديل وغيرها من مظاهر التكريم[٧٦] • ومع أن قضاة القضاة أصبحوا أربعة منذ عهد السلطان بيبرس[٧٧] ، إلا أن

---

(٧٣) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٩٤ •

(٧٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٥ •

(٧٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٩ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١١٥ ، ابن حجر : تحفة اخوان الصفا ص ١٣١ أ ، ١٢٦ ب •

(٧٦) ابن حجر : رفع الاصر ص ٩ — ١٠ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩١ هـ ، سنة ٧٩٣ هـ •

(٧٧) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٤١٩ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٢١ •

قاضى القضاة الشافعى ظل محتفظا بمكانة ممتازة طوال عصر سلاطين المماليك . وقد رتب غرس الدين خليل القضاة فى ذلك العصر حسب منزلتهم فوضع الشافعى فى المقدمة ويليه الحنفى ثم المالكى فالحنبلى(٧٨) . كذلك انفرد قاضى القضاة الشافعى مدة من الزمن يلبس الطرحة فى المواكب(٧٩) ، ولا يخطب أو يصلى بالسلطان إلا القاضى الشافعى(٨٠) كما اختص أيضا بالتولية فى بلاد الريف دون غيره من القضاة(٨١) .

ومن الأحكام التى أصدرها ابن خلدون أن القائمين بأمور الدين — كالقضاة — لا تعظم ثروتهم فى الغالب ، لأن أعمالهم لا ترتبط بالأعمال الضرورية فى العمران »(٨٢) . غير أن هذا الحكم لم ينطبق على قضاة مصر فى عصر سلاطين المماليك ، اذ لبسوا الملابس الفاخرة وركبوا الخيل الهائلة المسومة ، وصار فى اسطبل الواحد منهم نحو العشرين من الخيل والغزلان والنعام « وتشبهوا بأهل الدولة »(٨٣) . فاذا ركب القاضى حمارا ضرب به المثل فى التواضع الجم(٨٤) . واستتبع ذلك زيادة نفوذ بعض القضاة عند الخاصة والعامة ، كالقاضى عمر بن رسلان البلقينى المتوفى سنة ٨٠٥ هـ ، الذى أتته الفتاوى من بعيد كما اعتد برأيه السلاطين حتى صاروا لا يعقدون المجالس الا به(٨٥) .

على أنه يبدو — رغم ذلك — أن القضاة فى عصر سلاطين المماليك

---

(٧٨) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٩٢ .

(٧٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ١٢٧ .

(٨٠) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٢٦٥ .

(٨١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٤١٩ ، جـ ١١ ص ١٧٤ .

(٨٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٠ .

(٨٣) ابن حجر : رفع الاصر ص ٧٣٣ ا ، ب .

(٨٤) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٠ ص ١٨ .

(٨٥) ابن فهد : لحظ الالحاظ ص ٢٦ — ٢٠٨ .

كثيرا ما تعرضوا لضغط من سلاطين المماليك ، نتيجة لتدخل السلاطين فى شئون القضاة عن طريق الشفاعة لهذا أو ذاك ، مما دفع بعض الصالحين من الفقهاء ورجال الدين الى التهرب من منصب القضاة اذا عرض عليهم ، بل الاختفاء فى مكان مجهول حتى لا يضطرون الى قبول ذلك المنصب ، كما فعل الشيخ شمس الدين القاياتى سنة ٨٤٩ ه(٨٦) . واشترط بعض القضاة على السلاطين عدة شروط ، منها ألا يعارضه أمير فيما يحكم به ، ولا يرسل اليه السلطان شفاعة فى قضية من القضايا ولا يسأله فى عدالة أحد ... فاذا قبل السلطان هذه الشروط رضى الفقيه بتولى منصب القضاء وخلع عليه ، كما حدث مع الشيخ ناصر الدين سنة ٧٨٩ ه(٨٧) .

واحتفظ كل قاضى بعدة مساعدين يساعدونه فى القيام بأعباء وظيفته . وقد روعى عند اختيار هؤلاء المساعدين توافر صفات الصلاح والأمانة والعلم فيهم(٨٨) . ومن هؤلاء المساعدين التراجمة الذين يقومون بدور الوسيط فى التفاهم بين المتقاضين بعضهم وبعض أو بينهم وبين القاضى اذا كانوا لا يعرفون العربية أو لا يحسنونها . واشترط فى الترجمان الأمانة والعلم وأن يكون مسلما دينا لا يحرف الكلم عن مواضعه بل ينقله بتحفظ ودقة(٨٩) . كذلك احتفظ كل قاضى بعدد من النواب يجلسون بحوانيت الشهود وبالشوارع للتكسب من الحكم بين الناس ومقاسمة الشهود فيما يتكسبونه من تحملهم الشهادات(٩٠) . أما هؤلاء الشهود فكانوا يتعرفون أحوال الناس

---

(٨٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ١١٥ .

(٨٧) تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ١٤ ، ١٥ ، سنة ٧٨٩ ه .

(٨٨) السبكى : معيد النعم ص ٢٥ ، ٨٦ .

(٨٩) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ص ٢٥ .

(٩٠) المقريزى : السلوك سنة ٧٨١ ه جـ ٣ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ (تحقيق المؤلف) ، ابن فهد : لحظ الألحاظ ص ٢٦٨ .

ويشهدون فى القضايا ، ولهم حوانيت معلومة فاذا احتاج المتقاضون الى شاهد أحضروه القيام بالشهادة مقابل أجر معين[٩١] . ويلاحظ أنه كان لكل قاض شهود معينون ، كما كان القاضى والمتقاضى على مذهب واحد ، وفى القضايا التى تحتاج الى خبرة فنية — كتلك الخاصة بالمبانى وغيرها — كان القاضى يأخذ برأى الفنيين والخبراء المختصين ، فيكلف أحد المهندسين بالمعاينة والادلاء برأيه[٩٢] .

ويبدو أن بعض القضاة فى عصر المماليك أكثروا من نوابهم بالقاهرة ومصر ، مما دفع السلاطين فى بعض الأحيان — كما حدث سنة ٧٩٤ هـ وسنة ٨٢٩ هـ — الى أن يحددوا لكل واحد من القضاة عددا معينا من النواب لا يجوز له أن يتخطاه[٩٣] . وجاء هذا الاجراء من جانب سلاطين المماليك نتيجة لكثرة شكاوى الناس من هؤلاء النواب والشهود ، نظرا لما تضمنته تصرفاتهم من الأمور الشنيعة « حتى أصبح أكثرهم فى زماننا حالهم معلوم فلا حاجة الى شرحه »[٩٤] .

ولم يقتصر المعاصرون على توجيه النقد الى الشهود ونواب القضاة فحسب ، بل تعدوهم الى القضاة أنفسهم . فأبو المحاسن ينتقد قضاة عصره ، ويعيب عليهم اهمالهم فى شئون الأوقاف ، والمدارس التى يلون نظارتها ، ويقول ان ذلك الاهمال « قد شاع فى الأقطار عن قضاة زماننا ! »[٩٥] . ويبدو أن هذا التراخى جاء نتيجة طبيعية للجاه الذى أصبح فيه القضاة ، وحياة الدعة والترف التى انتقلوا اليها بعد أن غلبت شئون الدنيا على الدين ، فساد التنافس والتحاسد بينهم ، حتى

---

(٩١) السبكى : معيد النعم ص ٦٣ — ٦٤ .

(٩٢) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية مجلد ١ ص ٢٦ .

(٩٣) تاريخ ابن الفرات : سنة ٧٩٤ .

(٩٤) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٩٥) أبو المحاسن : حوادث الدهور سنة ٨٤٩ هـ .

أن المجالس السلطانية نفسها لم تخل من منازعات بين القضاة تصل الى درجة « السباب والفحش فى القول ! »[٩٦] .

الجوامع والمساجد :

وقد استلزم النشاط الدينى فى مصر فى عصر سلاطين المماليك الإكثار من تشييد المساجد أو « ما لا يكاد يحصى منها »[٩٧] . وقدر المقريزى عدد المساجد التى تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً[٩٨] ، على حين قدرها خليل بن شاهين الظاهرى بأكثر من ألف مسجد[٩٩] . وفى عهد السلطان الناصر محمد شيد السلطان وأمراؤه ثمانية وعشرين مسجداً[١٠٠] . وهكذا أثارت كثرة المساجد فى مصر المماليكية دهشة الرحالة الاوربيين ، فقال برنارد بريدنباخ أن روما لا يوجد بها مثل ذلك العدد من الكنائس[١٠١] . فاذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له إمام وخطيب وخدم واحتفل بافتتاحه احتفالا كبيراً[١٠٢] .

على أن استعمال المسجد فى عصر المماليك لم يقتصر على الغرض الأساسي الذى شيد من أجله وهو العبادة ، وانما استخدم فى أغراض أخرى كثيرة منها التدريس . وقد عدد ابن الحاج مواضع التدريس فجاءت ثلاثة : البيت والمدرسة والمسجد . وقال أن المسجد أفضلها جميعا لأن الفائدة من التدريس أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة

---

(٩٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٢١ ، ٣٦٠ .
(٩٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٦ .
(٩٨) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٥ ، بولاق .
(٩٩) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .
(١٠٠) زيفرشتين : تاريخ المماليك ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(١٠١) Larrivaz : op. cit; p. 55.
(١٠٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٧ ، المقريزى : السلوك ج ٢
(١٠٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٧ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥ .

أو يتعلم به حكم من أحكام الدين ، والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد لأنه موضع مجتمع من الناس[١٠٣] . على أن التدريس بالمساجد لم يقتصر على العلوم الدينية ، بل تخطاها الى غيرها من العلوم كالطب[١٠٤] . كذلك أقيمت المحاكم فى المساجد بعض الأحيان فى ذلك العصر . فيجلس القاضى بالمسجد ويأتى اليه الناس من نساء ورجال ليحتكموا اليه ، فتكثر الخصومات وترتفع الأصوات والصيحات[١٠٥] . واختار بعض الناس المساجد مكانا لاقاماتهم ، فليجأون اليها وينامون فيها ، ويخيطون بها قلوع المراكب ، ويجلسون بها لقص رؤوسهم ويتناولون فيها الطعام ... الى غير ذلك من الأفعال التى استنكرها بعض الفقهاء المعاصرين[١٠٦] .

أما الجامع الأزهر فقد استعاد أهميته ومجده فى عصر سلاطين المماليك . والمعروف أن الجامع الأزهر ظل معطلا من صلاة الجمعة منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ، حتى إذا ما ولى منصب السلطنة السلطان الظاهر بيبرس ، فعمل على إصلاحه وترميمه وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء وأقيمت به صلاة الجمعة لأول مرة فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ[١٠٧] .

وقد بلغ عدد الفقراء الذين أقاموا به أوائل القرن التاسع الهجرى سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزيالعة ومغاربة ، فضلا عن أهل ريف مصر . وكان لكل طائفة من هؤلاء رواق يعرف بهم ويشتغلون فيه بالعبادة والعلوم الدينية . وظل الأثرياء يقصدون الجامع الأزهر بأنواع البر من الأموال والأطعمة والحلاوات —

---

(١٠٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٨٥ .

(١٠٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٧٥ .

(١٠٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢٢٧ ، ص ٢٦٤ .

(١٠٦) نفس المصدر والجزء ص ٢٢٥ — ٢٣٥ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٦٠ .

(١٠٧) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٦ .

ولا سيما فى المواسم — وذلك إعانة للمجاورين[١٠٨] • كذلك عكف كثير من الناس فى عصر المماليك على المبيت بالجامع الأزهر طلبـا البركة ، ولا سيما فى ليالى الصيف وليالى شهر رمضان[١٠٩] • واستمر ذلك حتى سنة ٨١٨ هـ عندما وضع الجامع الأزهر تحت نظر الأمير سـودون ، فأمر بإخراج من كان فيه من المجاورين ومنع الناس من المبيت بـه[١١٠] •

والأمثلة كثيرة على ازدهار الجامع الأزهر طوال عصر سلاطين المماليك • من ذلك أن الذى تولى شئونه عادة كان أحد الأمراء أو أحد كبار القضاة[١١١] • وعند حدوث مجاعة أو انتشار وباء فى البـلاد ، جرت العادة بأن يجتمع فى الجامع الأزهر القضاة والقراء والفقهاء حيث يضرعون إلى الله أن يكشف عنهم الغمة[١١٢] • فإذا كان السلطان فى ميدان الحرب وجاء الى مصر بلاغ يبشر بانتصاره ، جمع النـاس بالجامع الأزهر حيث يقوم أحـد كبار القضاة بقراءة ذلك البلاغ عليهم[١١٣] •

التصـــوف :

وثمة ظاهرة واضحة اتصفت بها الحياة الدينية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، هى انتشار التصوف واتساع نطاقه • ومن المبادىء التاريخية والاجتماعية المسلم بها أن أية حركة روحية تقوى وتشتد نتيجة لتأنيب ضمير الفرد على أخطائه ، الأمر الذى يأتى مصحوبا برغبة خالصة فى التوبة والتوجـه إلى الله والزهـد فى

---

(١٠٨) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٥٣ — ٥٤ •
(١٠٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٦٥ وما بعدها •
(١١٠) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٥٤ — ٥٥ •
(١١١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٦٥ •
(١١٢) تاريخ ابن الفرات جـ ١ سنة ٧٩٠ هـ •
(١١٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٤٨ •

الدنيا[١١٤] . ولا شك فى أن العالم الاسلامى بوجه عام أحاطت به فى القرن السابع الهجرى أحوال قاسية ، منها هجوم التتار من ناحية الشرق والمسيحيين الغربيين من ناحية الاندلس ، على حين ظـل الصليبيـيون قابعين فى منطقة الشرق الأدنى يمثـلون خطرا مباشرا على البلاد الاسلامية . هذا إلى أن أصناف الحكومات فى البـلاد الإسلامية وقتذاك لم تخفف من هذه الأحوال القاسية . فالمماليك فى مصر والشام مثلا ظلوا منفصلين عن أهل البلاد ، ناعمين بالثروة وحياة الترف دون بقية السكان . وكان أن وفد على مصر فى القـرن السابع الهجرى كثير من مشايخ الصوفية مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى[١١٥] .. فوجدوا عامة المصريين فى ضيق وكمد بسبب سطوة المماليك وضغطهم على الشعب ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ، هذا عدا كثرة المجاعات والأوبئة مما دفع كثيرين الى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية . وليس معنى ذلك أن المصريين لم يكن لهم عهد بالتصوف قبل عصـر سلاطين المماليك ، فهناك اصطلاحات وألفاظ عديدة استعملها الصوفية فى عصر المماليك وقرر الباحثون أنها استعملت من قبل فى العصـــر الفاطمى ، مما يتفق مع ما قرره ابن خلدون من أن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع[١١٦] . وإذا ثبت أن الفاطميين استغلوا ناحية التصوف لنشر مذهبهم ، فمن الثابت أيضا أن صلاح الدين الأيوبى استغل هذه الناحية نفسها للقضاء على آثار المذهب الشيعى عن طريق

---

(١١٤) وهناك عدة آراء بخصوص اشتقاق كلمة « تصوف » أهمها الرأى القائل بأنها مشتقة من الصوف وهو لباس الصوفية المفضل ، ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ٢ ص ٢٦٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢ . وهناك رأى آخر يقول انها مشتقة من الصفاء لتصفية القلوب (السيوطى : اتمام الدراية ص ٢٠٣) .

(١١٥) ابراهيم نور الدين : حياة السيد البدوى — المقدمة لأمـين مرسى قنديل .

(١١٦) زكى مبارك : التصوف جـ ٢ ص ٣٥ ، كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع (القاهرة ، ١٩٦٩) .

« التصوف السنى » . وهكذا يتضح أن المجتمع المصرى عرف التصوف قبل أن يعرف حكم المماليك ، ولكنه ظل تصوفا هادئا قليل الأثر ولم يشتد تياره فى الحياتين الاجتماعية والدينية إلا فى عصر سـلاطين المـماليك[١١٧] .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها ، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوى وشـعارها اللون الأحمر[١١٨] ، والرفاعية نسبت إلى أبى العباس أحمد المعروف بابن الرفاعى وشعارها العمائم السوداء[١١٩] . وعند موت شـيخ الطائفة يخلفه خليفة فى رئاسة طائفته . وقد جرت العادة فى عصـر سلاطين المماليك أن تصدر تولية هذا الخليفة من السلطان ، فيخلـع عليه وينزل من القلعة فى حفل كبير يحيط به سائر فقراء طائفته[١٢٠] . واتخذ الصوفية فى ذلك العصر اصطلاحات خاصة بهم ، فقالوا مثلا روح الأعظم وهى العقل الأول ، وروح الضامن وهى النفس الكلية ، والرياضة وهى تهذيب الأخلاق النفسية بمجاهدة النفس ، وغير ذلك كثير[١٢١] .

وأطلق الصوفية على أنفسهم اسم « الفقراء » ، وذلك « لأن الفقر شعار الصالحين » . ولكل واحد من هؤلاء الفقراء شيخه الذى يرتبط به وبطريقته وبأوامره . فإذا ارتبط أحدهم بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة التصوف وعندئذ تصبح العلاقة بين المريد وشيخه كما عبر عنها السيد ابراهيم الدسوقى

---

(١١٧) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٩ .

(١١٨) Vollers : Ahmed al-Badawi.

(١١٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤ .

(١٢٠) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨ .

(١٢١) ابن جهضم : بهجة الاسرار . ومن الواضح أن اصطلاحات الصوفية كثيرة جدا ومتعددة بحيث يصعب حصرها فى هذا البحث الموجز ، وقد ذكرنا هذه الأمثلة الثلاثة على سبيل المثال لا الحصر .

بقوله « إن المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ولا يعمل شيئا إلا بإذنه ، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك »[١٢٢] . وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر سلاطين المماليك ، فاشترطوا فى العهد الذى يأخذونه على مريديهم أن المريد لا يبقى له تصرف فى ماله ولا زوجته ولا نفسه[١٢٣] !! وقال الشيخ أحمد أبو العباس المرسى : « ينبغى للمشايخ تفقد حال المريدين ويجوز للمريدين إخبار الاستاذ بما فى بواطنهم ، إذ الاستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة ، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى »[١٢٤] . وكان عنوان إخلاص المريد لشيخه المداومة على حضور مجلسه ، فإذا انقطع المريد عن مجلس الشيخ لخجله بسبب زلة وقع فيها أمام الشيخ « كان ذلك كالطلاق الرجعى » فللشيخ أن يقبله إذا رجع لأن حرمة الشيخ فى نفس المريد لا تزال باقية[١٢٥] . ويبدو أن هذه الرابطة بين الشيخ ومريديه تعدت نطاق الحياة إلى الممات ، إذ حرص كثير من الصوفية على أن يدفنوا بجوار مشايخهم وأوصوا بذلك[١٢٦] . كذلك اتخذ الصوفية فى عصر سلاطين المماليك قرافات خاصة بهم ، وأحاطوها بأسوار حتى لا يشاركهم فيها غيرهم[١٢٧] .

وقامت حياة الصوفية على أساس التقشف فى الملبس والمأكل وغير

---

(١٢٢) الشعرانى : لواقح الانوار جـ ١ ص ٢٤٢ .

(١٢٣) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٢٠٧ .

(١٢٤) الشعرانى : لواقح الأنوار جـ ٢ ص ٢١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٠ .

(١٢٥) المصدر السابق والجزء نفسه ص ١٧٦ .

(١٢٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٢٩٥ ، السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٩ ، ٢٦ .

(١٢٧) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٣٢ .

ذلك من أركان الحياة . وقد عبر عن ذلك السيد ابراهيم الدسوقى بقوله أن « قوته الجوع ومطره الدموع ووطره الرجوع »[١٢٨] . أما السيد على — ولده — فقال أن البيت الذى يسكنه الصوفية سمى « خانقاه » من « الخنق » لتضييقهم على أنفسهم[١٢٩] ، وأن لفظ الفقراء أطلق عليهم لافتقارهم فى كل أحوالهم إلى الله تعالى[١٣٠] . ففى الملبس بالغوا فى التخشن وآثروا لبس الصوف والمرقع من الثياب[١٣١] . وفى المأكل حكى عن السيد البدوى أنه اعتاد أن يمكث أربعين يوما أو أكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام[١٣٢] . ومهما يكن فى هذه الأمثلة من مبالغة واضحة فإنها تكشف لنا جانبا عن المثالية الصوفية ومستويات الحياة عند هذه الفئة من المتعبدين . أما نشاطهم فقد وجهوه كله نحو العبادة والذكر ، ليسلموا من البطالة والكلام فيما لا يعنى .

وقد تطرف بعض الصوفية فى آرائهم وأفعالهم ، فنشأت عن ذلك طائفة أطلق عليها « المجاذيب »[١٣٣] أو « الدراويش »[١٣٤] . واشتهر هؤلاء الدراويش فى عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التى زعموا أنها من الدين . وشهد الرحالة تافور جماعة من هؤلاء الدراويش فى مصر وقد حلقوا رؤوسهم ولحاهم وشعر حواجبهم كما أزالوا رموش أعينهم « فبدوا فى صورة مزعجة تشبه المجانين ويزعمون أن ذلك ضرب من

---

(١٢٨) الشعرانى : لواقح الانوار جـ ١ ص ٢٣٤ . وانظر كذلك كتاب : السيد احمد البدوى ، شيخ وطريقة ، (المؤلف) .

(١٢٩) الشعرانى : لواقح الأنوار جـ ٢ ص ٤٢ ، وسنذكر فيما بعد أن لفظ خانقاه فارسى الأصل .

(١٣٠) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ١٨٤ .

(١٣١) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٦٩ .

(١٣٢) الشعرانى : ذيل لواقح الأنوار جـ ١ ص ٢٤٦ ، Vollers : op. cit.

(١٣٣) السخاوى : الذيل على رفع الأصر ص ٣٧ .

(١٣٤) الشربينى : هز القحوف ص ٧٦ .

التقوى والعبادة »[١٣٥] . ويبدو أن هذه الطائفة من الصوفية هى التى تسمى القلندرية أو القرندرية ، الذين شاهد ابن بطوطة زاوية لهم فى دمياط وقال عنهم « وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم »[١٣٦] . كذلك كانت لهم زاوية بالقاهرة خارج باب النصر ذكرها المقريزى فى خططه وقال أن الذى أنشأها هو الشيخ حسن القلندرى الجوالقى ، أحد فقراء العجم القلندرية[١٣٧] .

ومن أفعال بعض أولئك المجاذيب أن يركب الواحد منهم فى قفص على رأس حمال ويتعمم « بشرطوط طويل جدا » ، ويعاشر الحرافشة ويزعم أن ذلك من الدين[١٣٨] ! . ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة ، بعد أن يصور لها وجها وعينين وأنفا وفما ، ويمسك بيده شيئا كأنه سوط ، ويربط الجريدة بسير أو خيط كأنه لجام ، ويجرى على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة وهو يضرب « دابته »[١٣٩] . ومنهم من اتخذ فى يديه سوارين من الحديد ، أو حمل فى عنقه طوقا من الحديد ، ووضع فى أذنيه حلقا ، وسار

(١٣٥) Tafur : op. cit. p. 71.

(١٣٦) انظر ما كتبه أستاذنا محمد مصطفى زيادة فى هذا الموضوع (السلوك ج ١ ص ٦٥٥ حاشية ٤) .

(١٣٧) وصف المقريزى هذه الطائفة وصفا مسهبا فقال : « وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة الا الفرائض . ولم يبالوا بتناول شىء من اللذات المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة . والتزموا الا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا على ذلك ... » .

(المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ ، بولاق) .

(١٣٨) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣٢ ص ٧٥ .

(١٣٩) السخاوى : الذيل على رفع الاصر ص ٣٧ .

والأعلام على رأسه(١٤٠) • وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الطائفة من الصوفية بقوله : « ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون ، أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين »(١٤١) •

وشايع كثير من سلاطين المماليك بمصر حركة التصوف ، وشاركوا عامة الشعب فى الاعتقاد فى الصوفية والعطف عليهم • فالسلطان برقوق رتب للمدرسة التى أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية وقرر لهم المرتبات الكثيرة(١٤٢) • بل إن خوند شكرباى الأحمدية — زوجة السلطان خشقدم — غلب عليها التصوف ، فاتبعت الطريقة الأحمدية ونسبت إليها ، وذهبت أكثر من مرة لزيارة ضريح السيد أحمد البدوى بطنطا • وعندما ماتت « لم يغط نعشها ببشخاناه على عادة الخوندات ، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء ، وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية ، وذلك بوصية منها »(١٤٣) • أما عن أمراء المماليك ، فحكى عن الأمير حسام الدين لاجين أنه « يحب الفقراء ويجمعهم على سماطه »(١٤٤) • بل إن الأمير طوقاى العمرى المتوفى سنة ٨٠٠ هـ « كان نقيب الفقراء »(١٤٥) • فإذا بلغ اعتقاد السلاطين والأمراء فى الصوفية هذه الدرجة ، فلا عجب إذا آمن كثير من عامة الشعب المصرى فى عصر سلاطين المماليك بالصوفية ومشايخهم إيمانا راسخا ، فقصدوهم لمشاركتهم فى أذكار أو لقضاء حوائجهم(١٤٦) • وإذا تعرض

---

(١٤٠) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ١٧٩ — ٢٠٥ •
(١٤١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٤ — ١٢٥ •
(١٤٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٠٠ •
(١٤٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٠٩ •
(١٤٤) ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ١ ص ٣٣ •
(١٤٥) العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٠ هـ •
(١٤٦) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٢ ص ٤١ — ٤٢ ، ذيل الاعلام جـ ٢ ص ١٨٩ •

للصوفية أحد بما يمسهم ، قام العامة عليه وأرادوا قتله[١٤٧] ، حتى وصفوا هؤلاء الفقراء بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »[١٤٨] .

على أنه من الضرورى أن نشير إلى أن انتشار التصوف والمتصوفة فى مصر على عصر سلاطين المماليك كان له أثر خطير فى الحياة الاجتماعية . ذلك أنهم بالغوا فى صبغ القيم والمثل العليا بصبغة الزهد والرغبة عن الدنيا ومتاعها ، والاتجاه نحو الآخرة ، والعمل لها . وترتب على هذه الاتجاهات نشر روح الاستكانة والقناعة والتذلل بين عامة الناس ، مما ظلت بقاياه فى نفوس الكثيرين أمدا طويلا .

الخوانق والربط والزوايا :

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية فى عصر سلاطين المماليك أن أخذت الخانقاه تحل محل المدرسة تدريجيا[١٤٩] ، فكثر عدد البيوت التى خصصت للصوفية والتى أطلق عليها خوانق وربط وزوايا .

والخانقاه لفظ مأخوذ عن الفارسية ، ومعناه البيت الذى ينزل فيه الصوفية . أما الرباط فهو فى الأصل البناء المحصن الذى يقام قرب الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء ودفع خطرهم . وأكثر المسلمون من إقامة الربط على أطراف دولتهم ، لا سيما فى الشام والمغرب والأندلس . وكان أهل الرباط أو المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية ، حتى ضعف خطر المسيحية على الاسلام فى المشرق وعندئذ أخذ الرباط يفقد طابعه الحربى وتغلبت عليه الصفة

---

(١٤٧) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، ترجمة احمد ابن محمد الحنبلى .

(١٤٨) النويرى : الالمام بالاعلام جـ ٢ ص ٥١٧ — ٥١٨ .

(١٤٩) Ibrahim Salama : op. cit; p. 121.

الدينيـــة • ولم يلبث انتشـــار التصـــوف أن خلق مبررا لبقاء الربط (Raison D'Etre) ، فتحولت إلى دور للمتصوفة ، وبالتالى أصبح الرباط يطلق على المكان الذى ينزل به الصوفية(١٥٠) • ويبدو لنا من كتابات المعاصرين أن الرباط غلبت عليه صفة الملجأ ، فقد ذكر المقريزى أن بيبرس الجاشنكير بنى رباطا قرر به مائة من الجند وأبناء الناس « الذين قعد بهم الوقت »(١٥١) • كذلك نفهم أن الغرض الأســـاسى من إنشاء الربط الخاصة بالنساء هو أن تكون « كالمودع للنساء الأرامل » ، كما سيلى بعد قليل فى شىء من التفصيل • أما الزاوية ، فقصد بها فى الأصل مبنى أو مسجد صغير للصلاة والعبادة ، وما زالت بعض المساجد الصغيرة بمصر حتى اليوم يطلق عليها اسم زوايا • ولكن لفظ زاوية تطور معناه فى المغرب الاسلامى ، فأصبح يقصد به الخانقاه أو منـــزل الصوفية(١٥٢) •

وهكذا نجد الخانقاه والرباط والزاوية تشابهت معانيها فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، حتى اختلط الأمر على المعاصرين ولم يستطيعوا التفرقة بين مدلول هذه الألفاظ الثلاثة • فابن الحاج يقول أن الرباط هو المسمى فى عرف العجم خانقاه(١٥٣) • وابن بطوطة يقول أن الخانقاه هى الزاوية ، وأن المصريين يطلقون على زواياهم اســـم خانقاوات أو خوانق(١٥٤) • أما المقريزى فقد فرق فى تعداده بين الخوانق والربط والزوايا ، وذكر كل نوع فى قائمة مستقلة خاصة به ، ولكنه فى تعريفه لكل نوع لم يخـــرج عن معنى واحد هو أنها كانت جميعا « بيت الصوفية ومنزلهم »(١٥٥) •

---

(١٥٠) Marcais : Ribat.

(١٥١) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٧٦ •

(١٥٢) Proveacal : Zawiya.

(١٥٣) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ١٨٥ •

(١٥٤) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧١ •

(١٥٥) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٧١ — ٣٠٠ •

ومهما يكن الأمر ، فقد أثارت كثرة هذه المؤسسات الخاصة بالصوفية دهشة الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى عصر المماليك وشبهها بعضهم بالملاجىء[(١٥٦)] والحق إن هذا التشبيه جاء صادقا إلى حد بعيد ، لأن منازل الصوفية فى ذلك العصر لم تكن بيوت عبادة فحسب ، بل اتخذت أيضا مأوى لطوائف المريدين يقيمون فيها ليلهم ونهارهم ، كما اتخذت كذلك مأوى لأصحاب العاهات وكبار السن والعميان ، فضلا عن المطلقات من النساء[(١٥٧)] .

وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم ببيوت الصوفية فشيدوا منها الكثير وحبسوا عليها الأوقاف السخية ، حتى قال ابن بطوطة عن أمراء مصر فى القرن الثامن الهجرى أنهم « يتنافسون فى بناء الزوايا »[(١٥٨)] . فإذا تم بناء إحدى الزوايا افتتحها السلطان أو بعض كبار الأمراء فى حفل كبير يحضره رجال الدين والقضاة ومشايخ الصوفية[(١٥٩)] . واعتبرت مشيخة الخوانق من الوظائف التى يصدر بها (قرار) من ديوان الإنشاء السلطانى ، وكل خانقاه يعامل شيخها فى المكاتبة حسب أهمية الخانقاه التى يتولى مشيختها[(١٦٠)] . ويقال إن السلطان شيخ اعتاد النزول بين حين وآخر إلى إحدى الزوايا لحضور السماع « فتتراقص وتتواجد الصوفية بين يديه » وهو يرى ويسمع ويكرر منها ما يعجبه ، وفى آخر الليل ينعم على الصوفية ببعض المال ثم يعود إلى القلعة[(١٦١)] .

---

(١٥٦) Dopp : Le Caire Vu ... Tome 26; p. 102.

(١٥٧) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٥٧ .

(١٥٨) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧١ .

(١٥٩) زيترشتين : تاريخ المماليك ص ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٧٩ — ٨٤ ، ابن حبيب درة الاسلام جـ ٢ ص ٢٩٣ .

(١٦٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٧٠ .

(١٦١) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٣٤٠ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ١٣٥ ، العينى : عقد الجمان سنة ٨١٨ هـ .

وجرت العادة أن يعين لكل زاوية أو خانقاة شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية[١٦٢] . أما شيخ الخانقاه فاشترط فيه أن يكون « من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة »[١٦٣] . وتمتعت معظم الخانقاوات بأوقاف، يصرف عليها من إيرادها ، وكثيرا ما نصت شروط الوقف على تقديم الأفقر والأحوج للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتى الفقراء المغتربين . كذلك كان يفضل الأعزب على المتزوج للمبيت فى الخلاوى ، حتى يكون منقطعا للعبادة متفرغا لها .

كذلك حرصت معظم الحجج المعاصرة الخاصة بأوقاف الزوايا على وضع الشروط الكفيلة بانقطاع الصوفية للعبادة وعـدم تغيبهم عن الخانقاه أكثر من ثلاثة أيام فى الشهر الواحد « لا يقطع لهم فيها معلوم ، وإن غاب الصوفى أكثر منها قطع معلومة ووفر للخانقاة »[١٦٤] ولم يكن من مصلحة أهل الزاوية أن يزداد عددهم ، لأن الوقف ثابت فتؤدى زيادة العدد الى انخفاض مستوى معيشة الأعضاء[١٦٥] . كذلك ظهرت عصبية طائفية بين صوفية الزوايا المختلفة ، بمعنى أن المريد الذى ينتقل من شيخ الى آخر أو من زاوية الى أخرى يتهم بأنه أراد الدنيا ولم يرد الدين ، وذلك لاختلاف الزوايا فى ليونة العيش باختـلاف الأوقاف الموقوفة عليها وأقدار أشياخها . فبعض الزوايا يهدى لأهلها الخبـز القفار ، والبعض الآخر يحمل الى أهلها اللحوم والفواكه وعسـل النحـل[١٦٦] .

---

(١٦٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ص ٢٨ .

(١٦٣) حجة وقف بيبرس الجاشنكير (المحكمة الشرعية — ٢٣) .

(١٦٤) حجة وقف الأشرف برسباى (دار الكتب المصرية) .

(١٦٥) ذيل الأعلام بتاريخ أهل الاسـلام ج ١ ص ١٠٧ ، خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٧٥ .

(١٦٦) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٥٩ .

ويتضح من دراسة نظم الخانقاوات أن كلا منها كونت وحدة قائمة بنفسها ، وبداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية ، وألحق بالخانقاه حمام ومطبخ . وقد ألحق ببعض الخوانق خزانة للأشربة والأدوية ، وعين بحمامها حلاق لتدليك الأبدان وحلق الرؤوس ، وبذلك تتوافر لأهل الخانقاه الضروريات التى تغنيهم عن العالم الخارجى(١٦٧) . كذلك خصص لكثير من الخانقاوات طبيب وجرائحى وكحال لعلاج الصوفية ، فنصت حجة وقف الغورى — مثلا — على تخصيص طبيب يتقاضى فى الشهر خمسماية درهم « يتفقد مرضى الصوفية ويصف لكل منهم ما يناسبه من الأدوية ويحسن علاجه »(١٦٨) . وللصوفية فى معيشتهم داخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية ، فقسم بعض مشايخ الخوانق مريديهم من الصوفية ثلاثة أقسام ، كهول وشباب وأطفال ، وجعلوا لكل فئة قسما خاصا بحيث لا يختلط أهله بغيرهم ولا يجتمعون إلا يوما واحدا فى الاسبوع ليتناقشوا فيما وقع بينهم طوال الاسبوع . ذلك أنه أخذ عليهم العهد ألا يثأر أحدهم لنفسه إذا اعتدى عليه زميله ، بل يعفو عنه ويشكو للشيخ فيفعل فيه ما يشاء . وقد بلغ بهم الأمر أن الصوفى إذا جاءه أبوه أو أخوه من البلاد بعد غيبة طويلة فإنه يراه ولكنه لا يستطيع أن يسلم عليه حتى يشاور النقيب(١٦٩) . وأفاض ابن بطوطة فى وصف معيشة أهل الزوايا بمصر على عصر سلاطين المماليك وقال : « إن ترتيب أمورهم عجيب » ! ففى الصباح يأتى خادم الزواية الى الفقراء فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل واحد خبزه ومرقه فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان فى اليوم . وكان معظم الصوفية أعزاب ، وللمتزوجين منهم زوايا خاصة بهم واشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية .

---

(١٦٧) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٨٥ .

(١٦٨) حجة وقف السلطان الغورى (٨٨٣ — أوقاف) .

(١٦٩) الشعرانى : لواقح الأنوار جـ ٢ ص ١٢٠ — ١٢١ .

ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة به[١٧٠] . وللصوفية « هيئة فاضلة » يوم الجمعة ، عندما يخرجون فى موكب إلى الجامع والخادم يحمل لهم جميع سجاجيدهم ، وبعد الصـــلاة وقراءة القرآن ينصرفون مجتمعين ومعهم شيخهم[١٧١] . ومن عادتهم مع الغريب القادم إليهم أنه يأتى بباب الزاوية فيقف به مشـــدود الوســط ، وعلى كاهله سجادته وبيمناه العكاز وبيسراه الأبـــريق . فيخرج إليه خادم الزاوية ، ويسأله من أى البلاد أتى وبأى الزوايا نزل فى طريقه ، ومن شيخه ، فاذا تأكد من صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به[١٧٢] . وقد تطرف بعضهم فى هذه القواعد التى اتبعوها مع القادم الغريب فيخرجون إليه أولا بعض الشبان ليؤذونه بالشتم والسب ، وربما يخرقون حرمته ويكســرون أبريقه ، فإذا يئسوا من غضبه سمحوا له بالدخول . ويعللون ذلك بضرورة التأكد من حسن خلقه وتحمله للأذى وكظمه للغيظ ، فاذا غضب منهم لا يدخلونه الزاوية . كذلك يأمرونه عند دخول الزاوية أن لا يسلم على أحد ، ولا يسلم أحد عليه خوفا من أن يكون على غير وضوء . فإذا توضأ وصلى ركعتين يأتى إليه أهل الزاوية ويسلمون عليه ويبسطون له الأنس ، ويقوم هو إليهم ويعانقهم ، ثم يتكلمون بالكلام « الذى لا يخلو فى الغالب من التنميق والتزكية »[١٧٣] .

أما الربط الخاصة بالنساء ، فالغرض الأساسى من تشييدها هو

---

(١٧٠) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧١ — ٧٢ .

(١٧١) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٧٤ ، رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٣ .

(١٧٢) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٣ .

(١٧٣) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ١٨٥ — ١٩٠ .

(١٧٤) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٧٦ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٢ ص ٢٥ ترجمة خديجة ابنة أمير حاج ، ص ٤٤ — ٤٥ ترجمة زينب ابنة العلاء .

أن تكون « كالمودع للنساء والأرامل » أى ملاجىء لهـن[١٧٤] . وفى تلك الربط حاكت النساء الرجال فى لبس المرقعات من الصوف[١٧٥] . ووصف المقريزى بعض هذه الربط بشدة الضبط وغاية الاحتـــراز والمواظبة على وظائف العبادات « حتى أن خادمة الفقـيرات كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق ببزبوز وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه »[١٧٦] .

على أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أواخر عصر المماليك ، فتغير وضعهم من الصلاح الى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس ، فصارت أذكارهم بصوت مسموع ويشترك فيها جماعة ومن ثم سميت السماعات[١٧٧] . ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات الأساسية ، « فإذا دب معه (المتصوف) الطرب قليلا حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء ، ثم اذا تمكن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره ، فيقوم ويرقص ، ويعيط وينادى ويبكى .. ويدخل ويخرج ويبسط يده ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها ، ويخرج الرغـوة أى الزبـد من فيـه ، وربما مـزق بعض ثيـابه وعبث بلحيته ! ... »[١٧٨] .

كذلك أنشأ مشايخ الخانقاوات يمدون الأسمطة الفاخرة ويجمعون فى مجالسهم « الأراذل وأصحاب المغانى والملاهى »[١٧٩] . ومنهم من اعتاد أخذ أموال الوقف ليصرفها فى اللهو والخمر ، مع التجاهر بذلك[١٨٠] . بل إن بعضهم استحضر المرد فى مجالسهم وزينوهم

---

(١٧٥) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٨٠ .
(١٧٦) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٩٤ .
(١٧٧) : ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ١٠٤ .
(١٧٨) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢ — ٦ .
(١٧٩) العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٢ هـ
(١٨٠) الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ وفيات سنة ٧٤١ هـ .

بالحلى والصبغات وزعموا أنهم إنما أرادوا الاستشهاد على قدرة الله . والاستدلال بالصنعة على الصانع !! »[١٨١] . كذلك قيل أن تعاطى الحشيش ساد بين الصوفية حتى نسب إليهم فسمى « حشيشة الفقراء »[١٨٢] ، وعلى عاتقهم تقع مسئولية نشر هذه الآفة بين الجماهير[١٨٣] .

ويبدو أن انتشار الفقر والفاقة واليأس من الحياة فى أواخر العصر المماليكى جعلت كثيرين يقبلون على التصوف فرارا من ظلم المماليك ، مضمت الخوانق والربط والزوايا كثيرا من الدخلاء الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة فى الانقطاع للدين وإنما فرارا من قسوة الحياة ورغبة فى الهناء دون عناء[١٨٤] . وهكذا أخذ الصوفية يحيون حياة مترفة بالنسبة لبقية الناس ، اذ لا شك فى أن الدنيا شغلت أذهانهم فلم تخل منها قلوبهم[١٨٥] ، فانصرفوا عن الذكر والعبادة إلى البحث عن المال والمتاع فى ظل الأوقاف الواسعة التى تمتعت بها الخوانق ، حتى وجد من الصوفية من ارتبط بأكثر من خانقاه طمعا فى المال[١٨٦] .

واستنكر كثير من المعاصرين ذلك الوضع الذى آل إليه أمر

---

(١٨١) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٩٥ — ١١٩ .

(١٨٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٠٥ .

(١٨٣) زكى مبارك : التصوف جـ ٣ ص ٢٠٥ .

(١٨٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية جـ ١ ص ١٥٩ .

(١٨٥) توفيق الطويل : التصوف فى مصر ص ١٥١ — ١٥٢ .

(١٨٦) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية جـ ١ ص ١٦٠ . محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٢٠٤ — ٢٢٣ .

الصوفية(١٨٧) ، كما اشتد السلطان جقمق فى منع الصوفية من عمل « ما لا يجوز فى زواياهم »(١٨٨) ، ولكن جهـودهم ذهبت أدراج الرياح . وهكذا تطور أمر الصوفية حتى أصبحوا — على قـــول المقريزى — « لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى ! »(١٨٩) .

---

(١٨٧) ومما قيل فى ذلك (السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢٠) :

صـــوفية احدثوا فى ديننـــا لعبا	وخالفوا الحق دين المصطفى العربى
من اقتـــدى بهم قد ضـــل مثلهم	سحقا لمذهبهم ولو كان من ذهب
اهل المراقص لا تاخـــذ بمذهبهم	فقد تمادوا على التمويه والكذب

(١٨٨) ابو المحاسن : حوادث الدهور سنة ٨٥٢ هـ .

(١٨٩) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٧٢ .

الفصل السابع

الأعيـــاد الدينيـــة والقوميـــة

فلما مضى شهر من شهور السنة طوال عصر سلاطين المماليك دون أن تشهد البلاد عيدا دينيا أو قوميا أو احتفالا سلطانيا أو موسما من المواسم التى اشترك فى إحيائها المسلمون والمسيحيون من أهـــل البلاد . ولم يكن فى هذا جديد على المجتمع المصرى فالفاطميـــون حرصوا على الاحتفال بالأعياد والمواسم احتفالات واسعة إمعـــانا فى الدعاية لمذهبهم الشيعى . ولم يعرف عن الأيوبيين أنهم أبطلوا من الأعياد والمواسم إلا ما كان منها شيعيا واضحا . وسار المماليك على نهج الأيوبيين فى العناية بالأعياد والمواسم ، بل استحدثوا فيها وأضافوا إليها وشجعهم على ذلك وفرة المال والثروة .

رأس السنة الهجرية :

أما الأعياد الدينية فأولها عيد رأس السنة الهجرية ، ويحتفل به فى غرة المحرم ، فيطلع الخليفة والقضاة الأربعة الى القلعة ليهنئوا السلطان « بالعام الجديد »[1] . ويخصص السلطان — بهذه المناسبة — أرزاقا ومنحا اضافية لأرباب الرواتب ، وذلك « لاستقبال المحرم »[2] على أن التهنئة بأول كل شهر عربى جرت مجرى العادة كذلك ، فينهض القضاة ومشايخ العلم لتهنئة السلطان[3] . وقد جـــرص العلماء والتجار وعامة الناس على تبادل التهنئة أول المحرم وفى اليوم

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٩ ، ج ٣ ص ٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٦٥ .

(٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

الأول من كل شهر عربى ، كما اعتاد أصحاب السعة منح العطايا لكل وارد عليهم « يوم تهنئة الشهر »[٤] .

عاشـــوراء :

أما يوم عاشوراء — وهو اليوم العاشر من المحرم — فاعتبره فقهاء عصر المماليك من المواسم الشرعية الرئيسية[٥] . وقد اعتـاد الناس فى ذلك اليوم التوسعة على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين ، حتى بلغ الأمر ببعض الأثرياء أن يتصـدق بألف دينار فى يـوم عاشوراء[٦] . ومن وجبت عليه الزكاة فى شهر آخر من أشـهر السنة يؤجلها حتى يخرجها فى عاشر المحرم[٧] . وتمسك الناس فى عصر المماليك بعادات خاصة بيوم عاشوراء — ما زال بعضها باقيا حتى اليوم مثل طبخهم الحبوب وزيارة القبور وشراء البخور لأنه يبرىء من « العين والنظرة » فى ذلك اليوم[٨] . كذلك اعتادت النساء فى عصر المماليك زيارة الجامع العتيق بمصر (الفسطاط) فى يوم عاشوراء ، والإقامة به من أول النهار حتى الزوال ، لا يشاركهن فيه الرجال . وهناك يقضون يومهم فى التبرك بجدران المسجد[٩] ، أما الشيعة فقد حرصوا فى يوم عاشوراء على إقامة عزاء الحسين فينشد شعراؤهم قصائد الرثاء وفق ما جرت به العادة فى مصر الفاطمية[١٠] . هذا فى حين يناظر شعراء أهل السنة شعراء الشيعة ، وتخرج نساؤهم الى

---

(٤) الشعرانى : ذيل لواقح الانوار ص ٣٢ أ .

(٥) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٨٩ .

(٦) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٢٥ .

(٧) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

(٩) نفس المصدر والجزء ص ٢٩٠ .

(١٠) محمد كامل حسين : التشيع فى الشعر المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك . ص ٧٣ — ٧٤ .

الطريق وقد كحلن أعينهن وخضبن أيديهن بالحناء « فمن لم تفعلها فكأنها ما قامت بحق عاشوراء »[(١١)] .

المولد النبــــوى :

ثم يأتى بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوى فى شهر ربيع الأول ، وهو أول الأعياد الدينية العامة فى جميع البلاد الاسلامية . وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال بهذا العيد احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة . ففى مستهل ربيع الأول يبـدأ الاحتفال بالمولد النبوى ، حتى إذا ما حلت الليلة الكبرى — وهى ثانى عشر ذلك الشهر — أقام السلطان بالحوش السلطانى بالقلعة خيمة ذات أوصاف خاصة ، سماها المعاصرون خيمة المولد[(١٢)] . وأول من صنع هذه الخيمة السلطان قايتباى فكلفها ثلاثين ألف دينار ، حتى جاءت « من جملة عجايب الدنيا »[(١٣)] . وقيل فى وصف خيمة المولد أنها زرقاء اللون ، وشكلها شكل قاعة فيها ثلاثة أو اوين وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة[(١٤)] . وبعد الانتهاء من إقامتها يوضع عند أبوابها أحواض من الجلد تملأ بالماء المحلى بالسكر والليمون ، ثم تعلق حولها الأكواب الفاخرة المصنوعة من النحاس الأصفر والمزينة بالنقـوش الجميلة ، وتربط هذه الأكواب بسلاسل من النحاس ، ويصطف حولها طائفة من غلمان الشرابخاناه ، لمناولة الوافدين من الناس ، لا فرق بين كبير وصغير[(١٥)] . ويبدأ الاحتفـال بعد الظهر وينتهى عند ثلث الليـل[(١٦)] . وعندما يستقر السلطان فى صدر خيمته يجلس عن يمينه

---

(١١) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .
(١٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٦ — ١٧ .
(١٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٢ .
(١٤) الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ص ١١٨ .
(١٥) السندوبى : الاحتفال بالمولد النبوى ص ١٢٥ .
(١٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٤١٢ — ٤١٣ .

شيخ الإسلام وعن يساره قضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم ، فى حين يأخذ الأمراء أماكنهم على مسافة من السلطان[١٧] . ويبدأ الاحتفال بتلاوة آى الذكر الحكيم فيتعاقب المقرئون ، وكلما فرغ أحدهم من التلاوة أنعم عليه السلطان « بخمسمائة درهم فضة » وبعد ذلك يأتى الوعاظ واحدا بعد آخر ، وكلما فرغ أحدهم من الوعظ ناوله السلطان « صرة فيها أربعمائة درهم فضة ومن كل أمير شقة حرير »[١٨] . وبعد صلاة المغرب تمد أسمطة الحلوى السكرية المختلفة الألوان ، فتؤكل « وتخطفها الفقهاء »[١٩] ، للتوسعة على أبنائهم . وامتازت الصحون التى توضع على هذه الأسمطة بالاتساع والكبر ، حتى أن أحد الفقراء أخذ صحنا منها ووزنه فزاد على ربع قنطار[٢٠] .

ثم إذا انتهى الطعام أخذ المنشدون فى الإنشاد فميدحون الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويذكرون مولده حتى ثلث الليل[٢١] . وبعد ذلك يأتى الخليفة والقضاة والأمراء والجند طائفة بعد أخرى ليقبلوا الأرض أمام السلطان فينعم عليهم جميعا «من الشريف والوضيع» بالخلع ، كما « يجبر خاطرهم » بالمنح[٢٢] . أما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الفقراء طائفة بعد أخرى ومعهم رئيس المغنين ورئيس المشببين ويستمرن فى الرقص[٢٣] ،

---

(١٧) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٧٣ .

(١٨) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٧٥ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٣٦ — ٣٧ .

(١٩) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٧٣ .

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٧٥ .

(٢١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٧٣ ، السلوك جـ ٤ ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢٢) الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ص ١٢١ — ١٣٠ .

(٢٣) تاريخ ابن الفرات جـ ١ ص ٢٦ سنة ٧٩٠ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٨٧ .

والسلطان جالس « ويده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه ، والخازندار يأتيه بكيس بعد كيس ، حتى قيل أنه فرق فى الفقراء ومشايخ الصوفية والزوايا فى تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار »[٢٤]. كذلك بلغ مقرر بعض المادحين والمغنين فى ليلة المولد من السلطان ألف درهم[٢٥] . وفى صباح يوم المولد النبوى يوزع السلطان كميات من القمح على الزوايا والربط[٢٦] . واعتاد كثير من سلاطين المماليك الاحتفال بمولد النبى فى الدور السلطانية الخاصة بزوجات السلطان ، وذلك صبيحة اليوم التالى للاحتفال الكبير . لكن يبدو أن هذا الاحتفال لم تكن له صفة رسمية ، فلا يحضره أحد من القضاة أو مقدمى الألوف[٢٧] .

ويترقب عامة الناس أيضا الاحتفال بالمولد النبوى « فيعملون الولائم لذلك ، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ، ويزيدون فى المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم »[٢٨] . كذلك اعتاد كثير من الناس إحياء الذكرى الكريمة فى بيوتهم ، وتطرف بعضهم فى هذه الحفلات فجاءوا بالمغانى وآلات الطرب وتسابقوا فى اللعب بالدف والشبابة[٢٩] . وأقيمت أمثال هذا الاحتفال بالمولد النبوى للنساء خاصة « فتكثر البدع والمخالفات »[٣٠] . وجرت العادة أن المدعوين إلى مثل هذه الحفلات « ينقطون » صاحب الدار ببعض الدراهم من باب المجاملة ، على أن يردها لهم فى إحدى حفلاتهم أو أفراحهم المقبلة[٣١] .

---

(٢٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥٧٥ .
(٢٥) ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ ص ٣٣ .
(٢٦) عبد الله الكاتب : الالطاف الخفية ص ٦٢ .
(٢٧) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٤ ص ٧٥٢ .
(٢٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٣ ، ١٤ .
(٢٩) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٢ — ٦ .
(٣٠) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١ .
(٣١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥ .

دوران المحمل :

وفى النصف الأخير من شهر رجب تحتفل القاهرة ومصر بدوران المحمل[٣٢] . والواقع أن الاحتفال بدوران المحمل فى عصر سلاطين المماليك كان يحدث مرتين فى السنة ، الأولى فى شهر رجب والثانية فى شوال[٣٣] . أما الدورة الأولى — التى أطلق عليها « دوران المحمل الرجبى »[٣٤] فأول من استحدثها فى مصر هو السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ[٣٥] . وقد قيل أن الغرض من تدوير المحمل فى هذا الوقت المبكر من السنة هو إعلام الناس أن الطريق من مصر الى الحجاز آمن ، وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق[٣٦] ، وبذلك « تهيج العزمات وتبعث الأشواق وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء فى التأهب للحج »[٣٧] .

وكان الاحتفال بدوران المحمل من أجل الاحتفالات التى ينتظرها الناس ، فينادى قبل موعده بثلاثة أيام أن يزين الناس حوانيتهم ودورهم[٣٨] . وفى الليلة المحددة للاحتفال يحرق النفط وتعمل الصواريخ[٣٩] ، فيخرج الناس من كل مكان للفرجة ، ويتغالون فى

---

(٣٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٢٧٢ .

(٣٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٣٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٨٨ ، ٣٠١ .

(٣٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٨ ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٢٩ .

(٣٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٤٥٠ سنة ٨٣١ هـ ،
السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٥ سنة ٨٤٨ هـ .

(٣٧) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٩٣ .

(٣٨) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٥٠٧ ، حوادث الدهور جـ ٣ ص ٥٣٨ .

(٣٩) ابن اياس : صفحات لم تنشر ص ١٧٣ سنة ٨٧١ هـ .

اكتراء البيوت والحوانيت مغالاة كبيرة[٤٠] ، وربما قضوا ليلتهم فى الطريق ، حتى النساء « يبتن فى الحوانيت حتى ينظرن المحمـل من الغد »[٤١] . ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بشقق الحـرير والحـلى[٤٢] . ولا يكون دوران المحمـل غالبا إلا يـوم اثنين أو خميس[٤٣] ، وعندئذ توضع الكسوة — وهى من الحـرير النفيس المطرز بالذهب والقصب — على جمل « فى هيئة لطيفة » ، ويبدأ الموكب من عند باب النصر وأمامه الوزير والقضاة الأربعـة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم[٤٤] .كذلك يركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة وهم فى ملابس الحرب وبأيديهم الرماح ، ويظل الموكب يتهادى فى طريقه حتى يصل الى القلعة ، حيث يلعب المماليك برماحهم ثم ينصرف المحمل بعد ذلك الى الفسطاط[٤٥] . ويقال أن الذى أحدث اللعب بالرمح عند دوران المحمل هـو السـلطان قلاوون[٤٦] . وهكذا يتم دوران المحمل فى « يوم مشـهود ...

---

(٤٠) ابو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ١٨٠ .

(٤١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٧٠ حوادث سنة ٨٧٥ هـ .

(٤٢) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٧٣ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧٥ .

(٤٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤٦) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩٨ ، ٢١٠ .

ويذكر أبو المحاسن أن الطواف بالمحمل وكسوة الكعبة انما يرجع الى عصر السلطان المنصور قلاوون ، فيقول فى حوادث سنة ٦٨١ هـ « وأظن هذا هو أول ابتداء سوق المحمل المعهود الآن ، فاننا لم نقف فيما مضى على شىء من ذلك مع كثرة التفاتنا الى هذا المعنى ، ولهذا غلب على ظنى من يومذاك بدأ السوق المعهود الآن . ولم يكن اذ ذاك على هيئة يومنا هذا ، وانما ازداد بحسب اجتهاد المعلمين ، كما وقع ذلك فى غيره من الفنـون والملاعيب والعلوم ، فان مبدأ كل أمر ليس كنهايته ، وانما شرع كل معلم فى اقتراح نوع من انواع السوق ، الى أن انتهى الى ما نحن عليه الآن ،

بشهد فيه كل ما بالديار المصرية من التحف والغرائب »[٤٧] .

ويخرج بعض الحجاج الزيارة فى شهر رجب ، وهؤلاء يطلق عليهم « الحجاج الرجبية » . ولكن الخروج للزيارة فى شهر رجب لم يتخذ صورة منتظمة ، فقد تصادف فى عصر المماليك أن مضت ذات مرة ثمان عشرة سنة متتالية لم يخرج فيها أحد من الحجا ج الرجبيبة . أما الموسم الرئيسى لخروج الحجاج الى الحجاز فهو شهر شوال[٤٨] ، على أن الاحتفال بدوران المحمل لم يخل من مفاسد كثيرة ، شأنه شأن كثير من الاحتفالات العامة فى عصر سلاطين المماليك . وتسبب فى هذه المفاسد غالبا جماعة المماليك الذين ينتهزون فرصة ازدحام الطرقات بالمارة ، وينبثون وسطهم لخطف عمايمهم وصفع أقفيتهم وحرق لحاهم بالنار ، وربما تعدى الأمر الى خطف النساء والصبيان[٤٩] . وقد دأبت المماليك على أن يمثلوا فى هذه المناسبة ما أسموه « عفاريت المحمل » وهم جماعة من « أوباش المماليك السلطانية » يغيرون لباسهم بزى مضحك بشع ويركبون خيولا فى هيئة مزعجة ويأخذون فى إزعاج الناس . واستن هذه البدعة بعض العوام بقصد اضحاك الناس دون التعرض لهم أو إيذائهم ، فلما اختص بها المماليك ساءوا فهمها[٥٠] ،

=

ولا سبيل الى غير ذلك . وعلى هذه الصيغة أيضا اللعب بالرمح فان مماليك قلاوون هم ايضا أحدثوه ، وان كانت الأوائل تلعبه .. » .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١١) .

وجدير بالذكر أن المقريزى ذكر فى حوادث سنة ٦٦٤ هـ على عهد السلطان الظاهر بيبرس ، « وجهز المحمل وخلع على المتوجه به الى الحجاز ... » .

(السلوك جـ ١ ص ٥٤٤) .

(٤٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك — الفصل السابع .

(٤٨) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٢٧ .

(٤٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٨٠٠ ، ٨١٨ .

(٥٠) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٥٣٨ .

فصاروا يدخلون دور الأمراء والناس وحوانيت التجار ويفرضون عليهم وعلى المارة مبالغ معينة يجبونها منهم غصبا ، ومن يمتنع منهم أذوه وأنزلوا به ضررا بليغا « حتى صار الناس يترقبـون فراغ المحمـل ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة »[٥١] . وقد اعتاد « عفاريت المحمل » — بعد أن صاروا من المماليك — أن يشنوا غاراتهم على الناس قبل دوران المحمل بيوم أو يومين غالبا ، ولكنهم بعد ذلك أصبحوا يبكرون فى القيـام بحملتهم قبل دورانه بأيام « ليطول تحكمهم فى النـاس »[٥٢] .

ليـالى الوقـود :

وهناك عدة ليالى فى العام الهجرى اعتاد المسلمون أن يحتفلوا بها ، أهمها أول ليلة من شهر رجب وليلة السابع والعشرين منه — وهى ليلة المعراج — وليلة نصف شعبان[٥٣] . وحرص كثير من الناس على إحياء هذه المواسم بالصيام — لا سيما صيام نصف شعبان[٥٤] — وبزيادة وقود القناديل والشموع بالجوامع[٥٥] ، والاجتماع بها للذكر والقراءة ، والخروج الى المقابر . كذلك اعتاد الناس شراء الحلوى فى هذه المواسم . فيكتظ سوق الحلاويين بأشكال مصنوعة من السكر

---

(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٥٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٣١٦ ، النجوم جـ ٧ ص ١٠٨ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٩٦٣ .

(٥٣) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٩١ — ٣١٢ .

(٥٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٢٢ .

(٥٥) وناحية زيادة الوقود فى هذه الليالى مأخوذة عن الفاطميين ، الذين اختصوا أربع ليالى فى السنة ، هى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه ، وسموها « ليالى الوقود » (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٠١) . وظلت هذه البدعة قائمة حتى عصر المماليك ، رغم استنكار العلماء ذلك التصرف لضياع المال عبثا . (السيوطى : منتقى الينبوع ورقة ١ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ق ٣ ص ٣٥٣ ، ٣٤٤ ، ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٣ ص ١٢٢) .

كالخيول والقطط وغيرها ، يشتريها الناس ليهدونها للأطفـال[٥٦] أو الأقارب والأصهار ، لا سيما إذا كانت المصاهرة جديدة[٥٧] .

احيـاء رمضـان :

واحتفل سلاطين المماليك بشهر رمضان احتفالا كبـيرا يتفق ومكانته الدينية عند المسلمين . وقد وصف ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين فى القرن الثامن الهجرى برؤية هلال رمضان ، وكان ذلك بمدينة إبيار ، فقال أنه فى يوم الركبة — وهو يوم ارتقاب هـلال رمضان ويوافق التاسع والعشرين من شعبان — اجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر بدار القاضى الشافعى . ووقف على باب الدار نقيب المتعممين ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومضى بين يديه قائلا « باسم الله سيدنا فلان الدين » فيقوم له القاضى ومن معه ، ويجلسه النقيب فى موضع يليق به . فاذا تكاملوا هنالك ، ركبوا جميعا وعلى رأسهم القاضى ، وتبعهم من بالمدينة من الرجـال والصبيان ، حتى اذا ما انتهوا الى موضع مرتفع خارج المدينة — وهو مرتقب الهلال عندهم — ينزل القاضى ومن معه يرتقبون الهلال ، ثم يعودون بعد صـلاة المغرب وبين أيديهم الشـموع والمشـاعل والفوانيس ، فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية الهلال[٥٨] . أما اذا حدث ارتباك بسبب كثرة السحب ، أو رؤية الهلال فى بعض الجهات وعدم رؤيته فى البعض الآخر ، فان الحاضرين يكتفون بشهادة اثنين من الرجـال[٥٩] . وبعد ثبـوت الرؤية يوقد التجـار الشـموع بحوانيتهم[٦٠] ، وتكثر الأنـوار فى الطرقات والدروب والمساجد[٦١] ،

---

(٥٦) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٦١ .
(٥٧) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٩٦ .
(٥٨) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٥٤ .
(٥٩) السخاوى : التبر المسبوك سنة ٨٤٥ هـ ، ٨٤٩ هـ .
(٦٠) ابن بطوطة جـ ١ ص ٥٤ .
(٦١) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٢٠٢ .

وبذلك يتحول الليل نهارا طيلة شهر رمضان • وقد شهد برنارد دى بريدنباخ ليالى رمضان فى القاهرة ، فوصف وسائل السرور عند الناس ومنها الغناء ودق الطبول طول الليل حتى تعذر عليه النوم(٦٢) • أما فابر الذى زار مصر سنة ١٤٨٣ م فدهش ليـلة دخوله القاهرة لكثرة الأنوار والمشاعل فى الطرقات والفوانيس المختلفة الأشكال والألوان التى يحملها الكبار والصغار ، ولما استفسر عن سبب كل هذه الجلبة قيل له أن الشهر رمضان وأن المسلمين يحتفلون به على ذلك الوجه(٦٣) كذلك لحظ الرحالة سيمون سيجولى أن الحوانيت — لا سيما محلات الطعام والمطابخ — تظل أبوابها مفتوحة طوال ليالى شهر رمضان(٦٤) •

وقد اختلفت المدن فى طريقة التسحير ، ففى القاهرة ومصر جرت العادة أن يطوف أصحاب الأرباع وغيرهم بالطبلة على البيوت وهم يضربون عليها • أما أهل الاسكندرية فاعتادوا أن يكون التسحير بدق الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة عليهم(٦٥) • ويقال أن بعض العلماء اقترح على السلطان برسباى سنة ٨٣٠ هـ عدم إطفاء القناديل فى رمضان إلا قبيل طلوع الفجر ، إيذانا بآخر فرصة للتسحير(٦٦) •

وكانت قراءة صحيح البخارى بالقلعة من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر رمضان فى ذلك العصر • وقد جرت العادة أيام السلطان شعبان أن يبتدأ بقراءة البخارى فى أول يوم من شهر رمضان بين يدى السلطان ، ويحضره طائفة من قضاة القضاة والفقهاء • ولم يزل الأمر على ذلك حتى تسلطن المؤيد شيخ ، فجعل قراءة البخارى بالقلعة

---

(٦٢) Larrivaz : op. cit. p. 47.

(٦٣) Schefer : Le Voyage d'Outremer p. XXIII.

(٦٤) Dopp : Le Caire Vu ... Tome 24; 139.

(٦٥) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٢٥٥ •

(٦٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٥١ •

تبدأ من أول شعبان وتستمر حتى السابع والعشرين من رمضان[٦٧] . وزاد السلطان شيخ على ذلك أن دعا لحضور ذلك المجلس جمعا كبيرا من مشايخ العلم والطلبة ، حتى زاد عددهم سنة ٨١٩ هـ على ستين فقيها « صرف لكل منهم ألف درهم فلوسا »[٦٨] . وكانت تدور في هذه المجالس بحوث ، ربما اشتدت فيها المناقشات والجدل حتى يسيء بعضهم الى بعض . فينقلب المجلس الى صياح وشتائم ، مما جعل المقريزى يصف هذه المجالس بأنها « منكر في صورة معروف ومعصية في زى طاعة » ، وذلك نظرا لما تثيره من حزازات بين رجال العلم والدين[٦٩] . وقد عالج السلطان جقمق هذا الإشكال سنة ٨٤٢ هـ بأن منع الحاضرين من البحث وحرم عليهم المناقشة أثناء المجلس « فانكفوا عن ذلك والحمد لله ! »[٧٠] . فاذا تم ختم البخارى — وذلك عادة في الثلث الأخير من شهر رمضان — احتفل السلطان بذلك احتفالا كبيرا في القلعة ، فترسل الخلع الى القضاة والعلماء والفقهاء ، وتوزع الأموال « والصور » على الناس[٧١] .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بالتوسع في الإحسان والصدقة طيلة رمضان . فالسلطان برقوق اعتاد أن يذبح طوال سلطنته في كل يوم من أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة ، يصدق بلحومها — مع ما يطبخ من الطعام وما يخبز من آلاف الأرغفة — على أهل الجوامع والخوانق والربط والسجون ، بحيث يخص كل فرد رطل لحم مطبوخ وثلاثة

---

(٦٧) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٧٢ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٥٧٩ .

(٦٨) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٠٦ .

(٦٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٨٢٣ .

(٧٠) نفس المرجع والجزء ص ٨٩١ .

(٧١) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٣٠ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٥٤٠ .

أرغفة[٧٢] • وحاكى السلطان برقوق فى ذلك من أتى بعده من السلاطين ، فأكثروا من ذبح الأبقار وتفريق لحومها[٧٣] • أما المساكين والمعدمون ، فرتب لهم سلاطين المماليك فى شهر رمضان مطابخ لإفطار الصائمين وتوزيع الصدقات عليهم[٧٤] • وقد بلغ عدد الطاعمين فى هذه المطابخ أيام السلطان بيبرس خمسة آلاف نفس فى كل يوم من أيام شهر رمضان[٧٥] • كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يعتق الواحد منهم فى شهر رمضان ثلاثين نسمة ، أى بعدد أيام الشهر[٧٦] • يضاف إلى ذلك كله أنواع التوسعة على العلماء وأصحاب الجامكيات الذين تصرف لهم رواتب إضافية فى شهر رمضان[٧٧] ، وبخاصة من السكر الذى تتضاعف كمية المستهلك منه فى هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى • وقد بلغ راتب العسكر أيام الناصر محمد فى رمضان سنة ٧٤٥ هـ ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار ، منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية[٧٨] •

وحاكى أمراء المماليك سلاطينهم فى الإكثار من الصدقة والإحسان فى شهر رمضان • من ذلك أن الأمير طشتمر البدرى عرف عنه حرصه على الإكثار من ذبح البقر والغنم فى ليالى رمضان[٧٩] • كذلك حرص

---

(٧٢) ابو المحاسن : مورد اللطافة ص ٩٩ ، ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ١٤٧ — ١٤٨ •

(٧٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ •

(٧٤) العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٢ هـ ، بيبرس : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٨٠ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٨١ •

(٧٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٣٩ •

(٧٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥١٣ حاشية ٣ •

(٧٧) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٣٣ ، العينى : السيف المهند ص ٢٠٤ •

(٧٨) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣٧٥ •

(٧٩) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ١ ص ٣٠—٣١ •

السلطان برقوق على فعل ذلك أيام إمارته قبل أن يصبح سلطانا[٨٠] .

أما عامة الناس فقد كثرت اجتماعاتهم وزياراتهم فى شهر رمضان. فاذا تخلف أحدهم عن زيارة قريبه أو صاحبه أو معلمه فى شهر رمضان أدى ذلك الى سوء تفاهم بين الطرفين[٨١] . وعمد كثير من الناس الى إحياء رمضان فى الجوامع والمساجد بقراءة صحيح البخارى أو صحيح مسلم أو بالذكر أو بالصلاة ، لاسيما صلاة التراويح[٨٢] . وجرت العادة فى عصر المماليك أنه عند ختم القرآن بأحد المساجد فى شهر رمضان يحتفل بذلك احتفالا كبيرا ، فتقرأ القصائد ويجتمع المؤذنون ليكبروا جماعة فى موضع الختم ، ثم يؤتى بفرس أو بغلة ليركبها القارىء الذى تولى قراءة الختمة ويزفوه الى بيته فى موكب هائل وأمامه القراء يقرأون والمؤذنون يكبرون والفقراء يذكرون ، وربما أضاف بعضهم الى ذلك ضرب الطبل والدف والأبواق[٨٣] .

عيد الفطر :

وبعد ذلك يحل عيد الفطر الذى يستغرق الثلاثة أيام الأول من شوال . ويستعد الناس أتم الاستعداد لهذا العيد ، فيسهرون ليلة العيد حتى ساعة متأخرة من الليل فى صقل الملابس وإعداد الزخارف[٨٤] . أما الكعك وغيره من أصناف الحلوى فيصنعها الناس فى أواخر شهر رمضان ليتبادلوا بها التهنئة فى العيد[٨٥] . ويبدو أن العادة الموجودة اليوم عند كثيرين من تفضيل أكل السمك المجفف

---

(٨٠) ابو المحاسن : مورد اللطافة ص ٩٩ .

(٨١) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٠٩ ، ٣٣٧ ، الشعرانى : ذيل لواقح الأنوار ص ٩٦ (أ ، ب) .

(٨٣) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٨٤) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٨٥) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٥٩ .

(الكعك) . فى عيد الفطر ، مستمدة من الأوضاع التى سادت فى العصور الوسطى عندما كان المصريون فى عصر سلاطين المماليك يفضلون أكل « السمك المشقوق » فى ذلك العيد[٨٦] . وفى الصباح المبكر لأول أيام العيد يجتمع أهل الحى أمام منزل الامام الذى سيصلى بهم صلاة العيد فى المسجد ، فاذا خرج اليهم زفوه حتى المسجد وبأيديهم القناديل وهم يكبرون طوال الطريق . وبعد انتهاء الصلاة يعودون به الى منزله على الصورة نفسها التى أحضروه بها[٨٧] .

أما مواطن الأنس التى اعتاد الناس أن يهرعوا اليها فى الأعياد فأهمها القرافة والنيل ، فيخرجون الى القرافة زرافات ومعهم نساؤهم وأولادهم ، أو يقصدون شاطىء النيل حيث يستأجرون المراكب للنزهة . وفى كلتا الحالتين تحدث مفاسد كثيرة تتعارض مع مبادىء الأخلاق والدين ، مما حدا بحكومة المماليك الى المناداة فى شوارع القاهرة ليلة العيد بمنع الناس — لا سيماء النساء — من الخروج الى القرافة وركوب المراكب بالنيل طوال العيد ، ويهدد من يفعل ذلك بتوسيطه هو والمكارى والحمار فى الحالة الأولى أو باحراقه هو والنوتى والمركب فى الحالة الثانية[٨٨] .

واحتفلت الدولة المماليكية رسميا بعيد الفطر . ففى آخر أيام رمضان يصعد ناظر الخاص الى القلعة فى موكب كبير وبصحبته عدد عظيم من الحمالين يحملون خلع العيد لحملها الى السلطان[٨٩] . وفى هذه الليلة — ليلة العيد — يدخل الأمراء جميعا على السلطان « للتهنئة

---

(٨٦) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٨٨ .

(٨٧) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٨٨) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٧٢ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٣ هـ ص ٢٦٦ ، ذيل الاعلام جـ ١ ص ٦٩ .

(٨٩) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٧٤ .

وتقبيل يده »[٩٠] . فاذا ما أصبح اصباح واستهل أول أيام العيد ، نزل السلطان الى الحوش السلطانى لتأدية صلاة العيد ، وذلك فى موكب من أفخم المواكب السلطانية . وبعد أن يصلى السلطان صلاة العيد ويسمع الخطبة ، يعود الى الإيوان الكبير حيث يمد سماط حافل بلغت تكاليفه فى بعض السنوات خمسين ألف درهم . وأخيرا يخلع السلطان على الأمراء وأرباب الوظائف[٩١] ، كما يفرج عن بعض المساجين « بمناسبة العيد المبارك »[٩٢] .

خـروج المحمـل :

وبعد عيد الفطر بأيام — أى حوالى منتصف شوال — يكون الاحتفال بسفر المحمل والحجاج ، فيدور المحمل فى احتفال كبير كالذى وصفناه فى الدورة الرجبية ، الا انه بعد وصوله الى القلعة لا يتوجه منها الى الفسطاط وانما يعود من القلعة الى باب النصر ، ومنه يخرج الى الريدانية للسفر الى الحجاز[٩٣] . ويكون عى رأس المحمل أمير الحج وصحبته بعض الكبراء الذين يطلق عليهم « باشوات المحمل »[٩٤] ، ويتبعهم جمع كبير من الحجاج والجمال التى تحملهم وتحمل أمتعتهم[٩٥] .

---

(٩٠) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٢٦ ، السلوك جـ ٣ ص ٣٨٦ .

(٩١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٨١ ، الخطط جـ ٣ ص ٣٧٢ .

(٩٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٩٧ ، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٤ ص ١٧٩ .

(٩٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٥٨ .

(٩٤) ذكر أبو المحاسن عن نفسه انه حج سنة ٨٤٦ وكان « باشا » فى المحمل (حوادث الدهور جـ ١ ص ١٩) ، كما ذكر السخاوى سنة ٨٥١ أن باش الميمنة فى الحج كان قاضى الحنفية وباش الميسرة كان الناصرى محمد ابن السلطان (التبر المسبوك ص ١٨٥) .

(٩٥) Dopp : L'Egypte ... pp. 44 — 45.

عيد الأضحى :

وفى شهر ذى الحجة — يحل عيد الأضحى ، فيصلى السلطان صلاة العيد فى موكب حافل ، وبعد الصلاة يقصد الايوان وبصحبته جمع من الأمراء لتذبح أمامه الأضاحى ، ثم يتوجه من الإيوان إلى باب الستارة حيث ينحر به أيضا ويفرق ما يذبحه ، وأخيرا يتوجه الى الحوش السلطانى ويذبح به(٩٦) • كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يفرقوا عددا كبيرا من الخلع « على من جرت عادته بالخلع فى يوم النحر »(٩٧) •

ووزع السلاطين فى عيد الأضحى الأضاحى الكثيرة ، حتى بلغ ما خص كل مملوك من مماليك السلطان سنة ٨٢٤ هـ رأسين من الغنم(٩٨) • فإذا لم يوزع السلطان الأضاحى على مماليكه واكتفى بتوزيع المال عليهم ، غضبوا وربما رجموا السلطان(٩٩) ، واختص الأمراء بنصيب وافر مما يوزعه السلاطين من الأضاحى • ويحكى عن السلطان الناصر محمد أنه اعتاد أن يبعث فى يوم النحر الى أمرائه أغنام الضحايا والنوق « ويترقب ما ينعم به كل أمير على رسله »(١٠٠) • كذلك حاكى أمراء المماليك سلاطينهم فى الإنعام على مماليكهم بأضاحى العيد ، حتى بلغ ما وزعه الأمير قوصون الناصرى (ت ٧٤٢ هـ) على مماليكه وحاشيته فى كل عيد ألف رأس غنم وثلاثمائة رأس بقر(١٠١) •

---

(٩٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٦٦ (كاليفورنيا) •

(٩٧) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٨٤١ •

(٩٨) المصدر السابق ونفس الجزء ص ٥٩٠ (تحقيق المؤلف) •

(٩٩) ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٨٦٦ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٧٧ •

(١٠٠) ابو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١٧١ •

(١٠١) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ ص ٣٤ •

فإذا حل عيد الأضحى والسلطان خارج القاهرة فى الحرب أو الصيد أو غير ذلك ، استاء الناس وحزنوا « لفقدهم ما كانوا يألفونه من تفرقة الأضاحى لغيبة السلطان والأمراء »[١٠٢] . والواقع إن احتفال عامة الناس بعيد الأضحى لم يقل عن احتفالهم بعيد الفطر ، فيذهبون الى النيل أو الى القرافات وتتزين النساء « بغاية الزينة » . ويتحدث ابن الحاج عن مفسدة كبرى كانت تحدث فى الأعياد — وبخاصة عيد الأضحى — وهى أن تخرج جماعة من الفتيات يطلق عليهن « بنات العيد » الى الطرقات ، بعد أن يتزين ويكشفن وجوههن ، ثم « يأخذن فى الغناء » والضرب بالدفوف ، ويطفن بالأسواق والحوانيت والبيوت لجمع ما يجود به الناس عليهن[١٠٣] .

* * *

الاحتفالات القومية :

هذا ما كان شأن الاحتفالات الدينية الاسلامية ولكن هناك نوع آخر من الأعياد اشترك فى الاحتفال بها المسلمون وغير المسلمين من المصريين على عصر سلاطين المماليك ، مما يغلب الطابع القومى عليها . ونستطيع أن تقسم هذه الاحتفالات القومية فى عصر المماليك الى ثلاثة أقسام : القسم الأول منها مرتبط بشخص السلطان كالاحتفال بتولية سلطان جديد أو إبلال السلطان من مرض أو عودته من سفر أو حرب ، والقسم الثانى يرتبط بالنيل والاحتفال بوفائه ، والقسم الثالث يشمل الأعياد التى كانت فى أصلها خاصة بأهل الذمة ولكن لم يلبث أن شاركهم فيها إخوانهم المسلمون فتحولت من أعياد دينية خاصة بالذميين الى أعياد قومية يشترك فى إحيائها جميع المصريين .

---

(١٠٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٣٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١١٠ .

(١٠٣) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٨٦ .

الاحتفالات السـلطانية :

جرت العادة فى عصر المماليك عند موت أحد السلاطين أن يحتفل بتولية السلطان الجديد قبل الشروع فى دفن السلطان الراحل[١٠٤] • أما عن صورة ذلك الاحتفال فهى أن يجتمع الخليفة والقضاة والأمراء بدار العدل بالقلعة ، ويجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت وعليه خلعة خضراء ، وعلى رأسه طرحة ســوداء مرقومة بالبياض • وعندما يتم الاجتماع يأتى السلطان فيقوم له الجميع إجلالا ، ثم يجلس السلطان على الدرجة الأولى من التخت دون الخليفة • ويقرأ الخليفة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان •• » الى آخر الآية ، ويلقى خطبة يوصى فيها السلطان بالرفق بالرعية واقامة الحق واظهـــار شعائر الدين الاسلامى ونصرته • وبعد ذلك يبايع الخليفة السلطان فيقول له « فوضت إليك جميع أمر المسلمين وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين » • ويقرأ الآية الكريمة « إن الذين يبايعونك إنما يبايعـون الله ••• » ، ثم يخلع الخليفة على السلطان خلعة سوداء وعمامة مرقومة الطرف بالبياض ويقلده سيفا ، ويؤتى بالعهد المكتوب من الخليفة للسلطان فيقرأه كاتب ، وعند الانتهاء من قراءته يناوله للخليفة فيكتب عليـه « فوضت إليك ذلك » ويوقع ، كما يكتب القضاة الأربعـة تهنئتهم بالتولية[١٠٥] • وبعد ذلك يمد سماط عظيم ، كما يتقدم جميع الأمراء فيقبلون الأرض ويقبلون يد السلطان ويحلفون له ، فيخلع السلطان عليهم وعلى غيرهم « ممن له عادة بلبس الخلع عند تولية الملك »[١٠٦] • ثم تضرب البشائر فى القلعة اعلانا بتولية السلطان الجديد ويأخـذ

---

(١٠٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٨٢١ (كاليفورنيا) ، حوادث الدهور جـ ٣ ص ٦٥٧ •

(١٠٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ، أبـو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٢ — ٦ •

(١٠٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٥٦ — ٥٧ ، زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٣٣ •

أرباب الحوانيت « فى تزيين البلد »[١٠٧] ، وترسل المكاتبات بالبشارة بجلوس السلطان الجديد الى جميع الولاة فى مختلف جهات الدولة[١٠٨] . وبعد ذلك يخرج السلطان الجديد الى ظاهر القاهرة حيث يلبس خلعة السلطان ، ويدخل من باب الفتوح أو باب النصر راكبا ، والوزير بين يديه على فرس حاملا عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء مشاة . ولا يزال هذا الموكب حتى يخرج من باب زويلة ، وعندئذ يركب بقية الأمـراء والعساكر[١٠٩] . وبعد ذلك يتجه الموكب الى قلعة الجبل[١١٠] ، وفى القلعة يمد سماط هائل للأمراء[١١١] .

وإذا ألم بالسلطان مرض ثم عوفى احتفل بذلك احتفالا كبيرا[١١٢] . ففى القلعة تضرب البشائر ويتخلق الخدام بالزعفران ، وتوزع زوجات السلطان على الخـدم والخاصكية وأعيان الناس البنـود الحرير الأصفر[١١٣] . ويستمر الأمر على ذلك سبعة أيام ، والأفراح مستمرة بالقلعة وسائر بيوت الأمراء وكذلك البشائر والكوسات تضرب[١١٤] . وعندما يطلع الأمراء لتهنئة السلطان بشفائه يتخلقون جميعا بالزعفران ، فيخلع عليهم السلطان كما يقيم لهم سماطا حافلا[١١٥] . أما عـامة الأهالى فيسرعون فى هذه الحالة الى اقامة الزينات « على جـارى

---

(١٠٧) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٢ ص ٨٦ .

(١٠٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٤٢ .

(١٠٩) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ١٧٤ .

(١١٠) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٥٧ .

(١١١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤١ .

(١١٢) تاريخ ابن الفرات : سنة ٧٩٩ هـ .

(١١٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(١١٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ٦٤ .

(١١٥) المصدر السـابق ، وكذلك زيتر شتين : تاريخ المـماليك ص ٢٢٠ .

العـــادة »(١١٦) ، وأحيانا تستمر هـذه الأفراح الشـعبية عشرة أيام(١١٧) ، ويتفاخر فيها الناس بالزينة « ويتفنن أهل القاهرة ومصر فى أنواع الترف »(١١٨) . وقد شهد ابن بطوطة أفراح أهل القاهرة لمناسبة شفاء السلطان الناصر محمد من كسر أصاب يده ، فوصف تفنن تجار الأسواق فى تزيين أسواقهم ، فعلقوا بحوانيتهم الحلل والخلى وثياب الحرير « وبقوا على ذلك أياما »(١١٩) . كذلك جـرت العادة فى مثل هذه المناسبات أن توزع الصدقات من الخبز والملابس « مع جملة من المال » ، ويجتمع أصحاب الملاهى بأمر السـلطان بالقلعة ، ويعمل النفط بسوق الخيل فيأتى الناس من كل مكان للفرجة ، فى حين تركب طوائف العربان بخيولها وهداياها وتخرج طـوائف المماليك للعب بالرمح تحت القلعة(١٢٠) .

وعند عودة سلطان المماليك من رحلة خارج البلاد — كالشام أو الحجاز — يحتفل باستقباله فى عاصمة ملكه احتفالا كبيرا ، فينادى فى القاهرة ومصر بتبييض الحوانيت وتزيينتها(١٢١) ، وتضرب الكوسات بالقلعة والطبلخاناه بدور الأمراء عدة أيام(١٢٢) . ثم يدخل السلطان عاصمته ، فتصطف له المغانى من النساء فى الدكاكين(١٢٣) ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، حتى إذا ما طلع السلطان الى القلعـــة استقبلته خوند الكبرى بنثر خفائف الذهب والفضة على رأسه(١٢٤) .

---

(١١٦) ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ٣ ص ٣٩ أ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٤ هـ سنة ٣٠٥ م ، زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ١٨١ — ١٨٢ .

(١١٧) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٤٥٣ .

(١١٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣١٨ .

(١١٩) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٠ .

(١٢٠) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١٦٢ .

(١٢١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٧٦ ، ٦٨١ .

(١٢٢) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ١٨٦ .

(١٢٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١١٠ .

(١٢٤) نفس المصدر والجزء ص ١٩٣ .

ويكون الاستقبال أشد بهجة وأعظم روعة عند عودة السلطان منتصرا من الحرب . ففي هذه الحالة يسبق السلطان أحد الأمراء بالبشارة ، وعندئذ تصدر الأوامر « بإحضار سائر مغاني العرب من أعمال مصر كلها »[١٢٥] . كذلك تدق البشائر ويأمر كل من له ملك أو حانوت بتبييضه ، فيسرع الناس الى تنفيذ ذلك[١٢٦] ، ويتفاخرون في الزينة ونصب القلاع — وهي أقواس النصر — أما كبار الأمراء فيتقاسمون شوارع القاهرة من باب النصر حتى القلعة ، بحيث يقوم كل منهم بإنشاء قلعة أو أكثر في منطقته[١٢٧] . وفي الليلة المقررة لوصول السلطان يخرج الناس لاستئجار الأماكن التي يقضون بها الليل استعداد للفرجة في اليوم التالي ، حتى تبلغ أجرة كل بيت على الشارع أربعة دنانير وكل دكان دينار[١٢٨] . وفي اليوم المعين يخرج الناس لاستقبال السلطان « المسلمون بالختمات واليهود بالتوراة والنصارى بالأناجيل »[١٢٩] ،وعلى رأس هؤلاء جميعا القضاة والأعيان والأمراء . وعند وصول السلطان الى باب النصر يترجل الأمراء كلهم ، ويحمل أحد الأمراء سلاحه ، وآخر القبة والطير على رأسه ، وثالث العصا ، ورابع الدبوس ... ويمشي كل منهم في منزلته[١٣٠] . ثم يخترق الموكب القاهرة حتى باب زويلة ومنها الى القلعة من غير هرج ، وفي « سكون ووقار » . ويكون ذلك على الشقق الحريرية التي فرشها الأمراء كل منهم في منطقته من قلعته الى قلعة غيره « والسلطان كلما رأى قلعة أمسك عن المشي ووقف حتى يعاينها ويعرف

---

(١٢٥) المقريزي : السلوك ج ١ ص ١٣٨ .

(١٢٦) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٤ هـ .

(١٢٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦٥ .

(١٢٨) ابن كثير : البداية ج ٤ ق ٢ ص ٢١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٧ .

(١٢٩) تاريخ ابن الفرات ج ، سنة ٧٩٤ هـ .

(١٣٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦٦ .

ما اشتملت عليه حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك »[١٣١] . أما الأسرى فيمشون بين يدى السلطان مكبلين فى الأصفاد وصناجقهم بأيديهم منكسة وطبولهم مشققة[١٣٢] . وتصطف على الجانبين جموع من أهل مصر والقاهرة فضلا عن أبناء الريف، الذين يحضرون للفرجة[١٣٣] . أما الدكاكين والحوانيت فتضاء كلها بالشموع والقناديل نهارا ، وتجلس بها المغانى تدق بالدفوف[١٣٤] ، وبذلك يختلط صوت الدفوف بزغاريد النساء ودعاء الرجال[١٣٥] . وفى هذه الأثناء يجمع والى القـاهرة سائر أنواع « الجد والهزل » ، وينصب عدة أحواض يملأها بعصـير السكر والليمون ، ويقوم بعض مماليكه بتوزيعها على الناس[١٣٦] . وعندما يصل الموكب الى القلعة يحتفل المماليك باللعب بالرمـاح ، ويخلع السلطان على الأمراء وسائر أرباب الوظائف[١٣٧] .

وفاء النيـل وكسر الخليج :

وهناك احتفال سنوى حرص المصريون بجميـع طوائفهم على إحيائه منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، هو الاحتفال بوفاء النيـل . وقد شهد دومنيكون تريفشان ــ مبعوث البندقية لدى السلطان الغورى سنة ١٥١٢ ــ الاحتفالات الضخمة التى أقامها المصريون فى هـذه السنة عند وفاء النيل ، وعلق على ذلك بقوله : « والواقع أن لهم الحق فى كل ذلك لأننا نستطيع أن نؤكد أن حياة مصر كلها تتوقف على فيضان النيل ، وإليه مرجع الثروة الطائلة التى نشاهدها فى مصر »[١٣٨] .

---

(١٣١) المصدر السابق والجزء ص ١٦٧ .
(١٣٢) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ ؟
(١٣٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٣٨ .
(١٣٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٣٧٦ .
(١٣٥) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٤٩٦ .
(١٣٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ١٦٦ .
(١٣٧) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢١٣ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٧٧ .
(١٣٨) Schefer : Voyage du Magnifique ... pp. 206 — 207.

لذلك حافظ المصريون فى عصر سلاطين المماليك على مراقبة زيادة النيل وحساب ارتفاعه كل يوم بالأصابع . فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة عم الناس القلق ، وارتفع سعر القمح ، وتزاحم الناس على شراء الغلال « وذبح المسكين بغير سكين »[١٣٩] . وعندئذ تفزع الدولة ، فيأمر السلطان القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا الى مقياس الروضة حيث يواصلون تلاوة القرآن والحديث والدعاء بزيادة النيل[١٤٠] . كذلك يطوف المنادون فى شوارع القاهرة يأمرون الناس بالصيام ثلاثة أيام والخروج الى جامع عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر أو الصحراء لصلاة الاستسقاء[١٤١] ، وأحيانا ينزل السلطان ليصلى معهم وهو يبكى وينتحب[١٤٢] ! ويشترك فى هذا الدعاء سائر الناس من رجال الدين والعلم والصوفية والأمراء والعوام نساء ورجالا ، صغارا وكبارا ، حتى أهل الذمة[١٤٣] . أما اذا حدث العكس وارتفع الفيضان الى حد الخطورة ، فعندئذ يأمر السلطان بحفظ الجسور وعدم الغفلة عنها « لئلا تقطعها المياه فتصير البلاد بائرة »[١٤٤] .

وفى زمن الفيضان يقف صاحب المقياس — مقياس الروضة — على مقدار زيادة النيل عصر كل يوم ، وينادى صباح اليوم التالى فى

---

(١٣٩) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ١٢٣ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١١٤ .

(١٤٠) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٤ .

(١٤١) تكون صلاة الاستسقاء اذا غارت الانهار وانقطعت الامطار واشتدت الحاجة الى الماء . (كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ص ٢٠٤) .

(١٤٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٤١٣ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٦ ، ج ٢ سنة ٨٢٣ هـ ، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٤ ص ٢٠٩ .

(١٤٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١٠ .

(١٤٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣٩ .

شوارع القاهرة بمقدار الزيادة فى عدد الأصابع « من غير تصريح بذرع »[١٤٥] • ولكنه يكتب فى كل يوم بيانا الأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، فيذكر زيادة النيل فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقه من القبطى ، ويذكر بعد ذلك ما كانت عليه زيادته فى مثل ذلك اليوم من العام السابق ، والفرق بينهما فى الزيادة أو النقص ، ولا يطلع على ذلك التقرير عامة الناس • فاذا وفى النيل ستة عشر ذراعا ، صرح فى المناداة كل يوم بما زاد ، ويصير ذلك مشاعا عند جميع الناس[١٤٦] ، وعندئذ يعلق على الشباك الكبير الذى بدار المقياس بالروضة ستر أصفر فيكون ذلك علامة الوفاء ، ويقوم متولى الفسطاط بتعليق ذلك الستر • وتعتبر الليلة التى يعلق فيها هذا الستر من ليالى الفرح العظيمة بمصر والروضة ، اذ يوقد الناس الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب بأجور باهظة ، وتزين حراريق الأمراء ويجعل فيها الطبلخانات والنفط وأنواع الزينة ، فى حين يحضر استادار السلطان الكبير ليبيت فى المقياس وصحبته خازن السلطان وبعض الجمدارية • كذلك يحضر بعض المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بالمقياس • أما المغانى فيستمرون فى الغناء لمن يكون حاضرا فى دار المقياس[١٤٧] •

وفى اليوم التالى لوفاء النيل يحتفل بكسر الخليج • وقد جرت العادة فى الدولة المماليكية أن ابن السلطان هو الذى يباشر كسر الخليج ، وأحيانا يباشر السلطان ذلك بنفسه ولكن هذا نادر[١٤٨] •

---

(١٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٧ & Piloti; p. 29
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٧

(١٤٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٧ •

(١٤٧) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ١١٤ — ١١٥ •

(١٤٨) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٩٩ ب ، الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٥ ص ٢٨٢ • وقد جاء فى السلوك فى حوادث سنة ٧٨٥ هـ انه لم يعهد بعد الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج سوى الظاهر برقوق (السلوك جـ ٣ ص ٤٩١ ، تحقيق المؤلف) •

فإذا ركب السلطان اكسر الخليج لا يكون ركوبه بمظلة ولا رقبة فرس ولا غاشية ولا غير ذلك من مظاهر الملك التى توجد فى المواكب الأخرى الخاصة بالأعياد أو ركوب الميدان(١٤٩) وعند وصول السلطان أو نائبه الى مقياس الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة ، حتى اذا تناول الكبراء ما يشتهون يسمح العامة « باختطاف » ما تبقى من أطعمة . ثم يذاب زعفران فى إناء ، ويتناوله صاحب المقياس ، ويسبح فى فسقية المقياس حتى يأتى العمود — والإناء الزعفران بيده — فيخلق العمود ثم جوانب الفسقية . وتكون حراقة السلطان قد زينت بأنواع الزينة ، وكذلك حراريق الأمراء ، وقد فتح شباك المقياس المطل على النيل من جهة الفسطاط وعلق عليه ستر . وعندما يؤتى بحراقة السلطان الى ذلك الشباك ينزل منه ويسبح ، وحراريق الأمراء حوله وقد شحن البحر بمراكب المتفرجين ، يسيرون خلف الحراريق حتى يدخل الى فم الخليج . ويسير السلطان فى حراقته حتى يأتى السد فيقطع بحضوره ثم ينصرف الى القلعة(١٥٠) . وقد حضر هذه العملية رحالة أجنبى هو أنسلم فقال إن كسر الخليج تم أمامه بمعول من الذهب الخالص(١٥١) .

وإذا ناب ابن السلطان عنه فى حضور حفل قطع السد فعندئذ ينعم السلطان على ابنه « بخلعة عظيمة على العادة »(١٥٢) . هذا فضلا عما ينعم به السلطان من الخلع على أربابها ، مثل والى الفسطاط ورئيس الحراقة السلطانية ورؤساء حراريق الأمراء وغيرهم(١٥٣) . أما إذا كسر السد وارتفاع الفيضان دون الستة عشر ذراعا ففى هذه الحالة لا يخلق المقياس « لأن التخليق مرتبط بالوفاء »(١٥٤) .

---

(١٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٧ .
(١٥٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٧ — ٤٨ .
(١٥١) Dopp : Le Caire Vu ...; Tome 26, p. 100
(١٥٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ٣ .
(١٥٣) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ١١٥ .
(١٥٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٤٧٦ .

ويكون يوم كسر الخليج يوما مشهودا فى القاهرة ومصر ، لا سيما جزيرة الروضة حيث « يحشر الناس ويحج فيه الى المقياس »[١٥٥] . ففى ذلك اليوم تغلق جميع الأسواق فى مصر والقاهرة ، ويعم الناس البشر والفرح[١٥٦] ، فيهرعون الى النيل على هيئة مواكب حيث يستأجرون السفن ويملأونها بالطرب والغذاء[١٥٧] . ولم يقتصر الفرح فى ذلك اليوم على أهل القاهرة ومصر ، بل جرت العادة بكتابة البشائر بوفاء النيل الى سائر أعمال الدولة حتى يعم الفرح جميع الناس[١٥٨] .

أعياد النصارى :

لعل أقوى دليل على ارتباط عنصرى الشعب المصرى — من مسلمين وذميين — فى عصر المماليك هو أن المسلمين شاركوا أهل الذمة فى الاحتفال بكثير من أعيادهم الدينية « وهم يعلمون أنها مختصة بأهل الكتاب »[١٥٩] . وقد ضرب ابن الحاج مثلا رائعا للوحدة القومية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، فقال إن المسلمين لم يكتفوا بمشاركة الأقباط فى أفراحهم ، بل زادوا على ذلك أنهم يهادون أهل الكتاب فى أعيادهم ومواسمهم بما يحتاجون إليه من « الخرفان والبطيخ والبلح وغير ذلك . فإذا حلت أعياد المسلمين رد لهم أهل الكتاب الجميل بمثله وهادوهم ببعض ما يفعلونه فى مواسمهم ، فيتقبل المسلمون تلك الهدايا شاكرين »[١٦٠] .

---

(١٥٥) السيوطى : بلبل الروضة .

(١٥٦) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ١١٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص أ ، ب .

(١٥٧) Dopp : L'Egypte ... pp. 20 — 21 & Le Caire Vu ... T. 24, p. 122.

(١٥٨) تاريخ ابن الفرات ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٢٨ .

(١٥٩) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٤٦ .

(١٦٠) نفس المصدر والجزء ص ٤٧ — ٤٨ .

ومن أعياد النصارى الشهيرة عيد النيروز ويكون فى أول توت ، أى رأس السنة القبطية[١٦١] . وحاكى مسلمو مصر فى عصر المماليك إخوانهم الأقباط فى الاحتفال بذلك العيد والتوسعة على أهلهم فيه . فلابد فى ذلك اليوم من عمل بعض أصناف خاصـة من الحـلوى « كالزلابيا والهريسة » بحيث تصنع ليلة النيروز . فإذا أشرقت شمس ذلك اليوم أرسلوا منها لمن يختارون من الأقارب والأصحاب ، ودعوا الأهل والأحباب الى تناول الطعام ، لا سيما البطيخ الأخضر والخوخ والبلح وغير ذلك « مما يلزمه النساء لأزواجهن حتى صار ذلك كأنه فرض عليهن لأنهن اكتسبن ذلك من مجاورة القبط ومخالطتهن بهم » . وإذا امتنع أحدهم عن فعل ذلك « كان ذلك سببا لوقوع التشويش بين الرجل وأهله »[١٦٢] .

أما خارج المنزل فجرت العادة أن يجتمع العامة فى ذلك اليـوم بالطرقات ويلعبون بالتراش بالماء والتصافع بالجلود وغـيرها[١٦٣] . وقد أصبح ذلك من الأشياء العادية ، حتى أن الوالى لا يحكم لأحد ممن ضربوا أو سلبت نقودهم فى ذلك اليوم[١٦٤] . وهكذا اقترن هذا العيد بمجاوزة الحدود الى « الفجور والعهور »[١٦٥] ، فالخمر يشرب جهارا ، والنساء يلعبن فى بيوتهن مختلطين مع الرجال والشبان ، فيرش بعضهم بعضا بالماء دون أن تستحى الجارة من الجار أو من ابن العم أو من الصهر أو من أصدقاء زوجها . واذا ضاقت بهم المنازل خرجوا الى البرك والخلجان وغيرها من أماكن النزهة ، حيث يصل بهم الأمر

---

(١٦١) عيد النيروز فى الأصل أحد الأعياد الفارسية وقصد به الفرس يوم الاعتدال الربيعى . ولكن قبط مصر أخذوا هذه التسمية واطلقوها على راس السنة القبطية (خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٠ — ٣١) .

(١٦٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

(١٦٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢ .

(١٦٤) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٤٩ .

(١٦٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢ .

الى نزع ثيابهم فيصبح أكثرهم عرايا فى حين يقنع المحتشم أو المحتشمة منهم بقميص رقيق[١٦٦] ! .

ومن خصائص يوم النيروز فى عصر سلاطين المماليك عمل « كرنفال » فى شوارع القاهرة وطرقاتها ، فيأخذون انسانا منهم يكون « قوى الطباع » ويسمونه « أمير النيروز » ، ويغيرون صورته وخلقته ويجعلون على رأسه طرطورا طويلا من الخوص ويركبونه حمارا وهو شبه عريان ، ويجعلون حوله الجريد الأخضر « وشماريخ البلح » وبيده شيء يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس ، ثم يطوفون به أزقة المدينة وشوارعها على البيوت والأسواق ، فيقف على باب كل فرد — سواء من الأكابر أو غير الأكابر — ويكتب عليه إيصالا بأموال وأشياء معينة يجب عليه دفعها فورا وإلا أهانوه بصب الماء والتراب عليه ، وظلوا مرابطين أمام داره حتى يأخذوا ما فرضوه عليه . وهم فى كل ذلك يحتمون بالنيروز ويقولون « ليس فيه حرج ولا أحكام تقع ! »[١٦٧] .

واعتاد السلطان فرج بن برقوق أن يحتفل بيوم النيروز احتفالا كبيرا ، فيقضى اليوم مع ندمائه فى معاقرة الشراب والخمر[١٦٨] . وقد حاول بعض سلاطين المماليك أن يضعوا حدا للمفاسد التى تحدث يوم النيروز[١٦٩] ، ولكن جهودهم فى هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح إذ كان المصطلح عليه عند المعاصرين — مسلمين وذميين — أن النيروز

---

(١٦٦) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٥١ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٢ .

(١٦٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٧٨٧ هـ ، ابن الحاج : ج ٢ ص ٥٢ — ٥٣ .

(١٦٨) ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(١٦٩) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٣٥٨ (سنة ٧٨١ هـ) .

عيد قومى يجب أن تتعطل فيه الأسواق عن البيع والشراء[١٧٠] وأن تغلق المدارس أبوابها ليقضى طلبتها يومهم فى اللعب[١٧١] .

ومن الأعياد التى شارك فيها المسلمون إخوانهم الأقباط فى عصر سلاطين المماليك عيد الشهيد ، ويكون فى اليوم الثامن شهر بشنس ، واعتاد النصارى أن يحتفلوا بذلك اليوم بالقاء تابوت فى نهر النيل ، به أحد أصابع أسلافهم من الحواريين ، ويزعمون أنهم اذا لم يفعلوا ذلك فان النيل لن يزيد[١٧٢] . وجرت العادة أن يكون الاحتفال بعيد الشهيد دائما فى ناحية شبرا ، فيرحل الى هناك النصارى من جميع القرى كما « يخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم » ، فينصبون الخيام على شاطىء النيل ويركبون الخيول ويلعبون عليها ، بحيث « لا يبق مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ولا بغى ، ولا محدث ولا ماجن ولا خليع إلا ويخرج لهذا العيد »[١٧٣] . وفى هذا اليوم يغالى كثير من الناس فى شرب الخمور التى قدر ما يباع منها فى عيد الشهيد بمائة ألف درهم[١٧٤] ، حتى قال المقريزى أن اعتماد فلاحى شبرا دائما فى وفاء الخراج على ما يجمعونه من الخمر فى ذلك اليوم[١٧٥] .

وقد حدث سنة ٧٠٢ هـ أن عمد الأمير ركن الدين بيبرس متولى القاهرة الى إبطال ذلك العيد ، فشق ذلك على النصارى وسعوا إليه وخوفوه عاقبة عدم زيادة النيل ، ولكنه لم يلتفت لقولهم[١٧٦] . غير

---

(١٧٠) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣٢ .
(١٧١) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٤٩ .
(١٧٢) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ .
(١٧٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١١٠ .
(١٧٤) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ .
(١٧٥) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١١٠ .
(١٧٦) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ .

أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن أعاد عيد الشهيد سنة ٧٣٨ هـ[١٧٧] • ثم لم يلبث أن أبطل ذلك العيد مرة أخرى سنة ٧٥٥ هـ عندما تعرض الأقباط لموجة عنيفة من الاضطهاد فى تلك السنة[١٧٨] •

أما عن أعياد النصارى الأخرى فكانت أقل بهجة ووضوحا فى عصر سلاطين المماليك • ومع ذلك فمن الثابت أن المسلمين فى ذلك العصر ظلوا يشاركون أهل الذمة فى بعض مظاهر تلك الأعياد وما يتعلق بها من معتقدات ، ففى خميس العهد — وهو من مواسم أهل الكتاب الرئيسية — اعتادت المسلمات أن يخرجن لشراء البخور والخواتم ، حتى يصبح عددهن فى الأسواق أكثر من عدد الرجال • ولابد من البخور فى ذلك اليوم حتى يصرف عنهن « العين والكسل والوعكة من الجسد »[١٧٩] • وفى سبت النور لابد من شراء الريحان وورق الشجر ، فيبيتونه فى إناء به ماء ويغتسلون به ، ثم يأخذون ما اجتمع من غسلهم ويلقونه فى الطريق حتى يذهب عنهم الأمراض والأسقام ، هذا عدا خروجهم الى شاطىء النيل فى ذلك اليوم[١٨٠] • وفى يـوم الغطاس تشبه المسلمون بالأقباط ، فاتخذوا من ذلك اليوم موسما يزيدون فيـه النفقة ، ويدخلون السرور على أولادهم ، بل حرص بعض المسلمين على أن يغطس فى الماء تلك الليلة مثلما يفعل الأقباط[١٨١] • وفى عيـد الزيتون يهرع جمع غفير من المسلمين مع إخوانهم الأقباط الى بئر البلسم بالمطرية حيث يغتسلون[١٨٢] •

---

(١٧٧) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١١١ — ١١٢ •

(١٧٨) نفس المصدر والصفحة •

(١٧٩) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٥٤ — ٥٥ •

(١٨٠) نفس المصدر ص ٥٦ — ٥٨ •

(١٨١) نفس المصدر والجزء ص ٥٩ •

(١٨٢) نفس المصدر والجزء ص ٥٩ — ٦٠ • واهتم معظم من زار مصر من الرحالة الغربيين فى ذلك العصر بوصف هذا البئر لأهميتـه

ولم يقف الأمر عند مشاركة المسلمين النصارى فى أعيادهم ، بل تعداه الى الأخذ بعاداتهم • ويحكى ابن حجر أنه كان هناك سنة ٨٤٠ هـ دير يحج إليه النصـــارى كل سنة ، فحاكاهم المسلمون فى ذلك حتى صار يجتمع عند ذلك الدير فى الموسم المحدد لزيارته ما لا يحصى من المسلمين والنصارى[١٨٣] • وهكذا « كثر التخليط على بعض الناس فى هذا الزمان لمجاورتهم ومخالطتهم لقبط النصارى ، فأنست نفوسهم بعوائد من خالطوه ، ووضعوا تلك العوائد موضع السنن »[١٨٤] •

الدينية عند المسيحيين • كذلك وصفه ابن الوردى وقال ان السر فيه هو أن المسيح عليه السلام اغتسل بمائه (خريدة العجائب ص ٦٤ — ٦٦) • ولا يزال هذا البئر مقصد المسيحيين حتى اليوم •

(١٨٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٣٤ — أ •

(١٨٤) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٦٥ •

الفصل الثامن

الألقاب والخلع والملابس

من الواضح أن المجتمع فى مصر المماليكية كان مجتمعا طبقيا قام على أساس طبقات وعناصر متمايزة ، شجع على التفرقة والفصل بينها النظم المماليكية نفسها • ومن المظاهر الأساسية للفصل بين الفئات المتباينة التى تكون منها المجتمع المصرى فى ذلك العصر الحرص على التفرقة بينها فى الزى ونوع الدابة التى يركبها الفرد وحجم عمامته وغير ذلك[1] • هذا فضلا عن الألقاب التى اعتبرت أساسا هاما لمعرفة مكانة الفرد فى المجتمع والدلالة على حيثيته[2] •

الألقاب :

جرت العادة أن يكون لكل شخص كنية ولقب علاوة على اسمه وهو العلم • أما النظام الذى اتبع فى ترتيب الألقاب والأسماء فهو أن يقدم اللقب على الكنية ، والكنية على العلم ، وبعد ذلك النسبة الى البلد ثم الى الأصل ثم الى المذهب فى الفروع ثم الى المذهب فى الاعتقاد ، على أن يتقدم ذلك كله النسبة الى العلم أو الصناعة أو الخلافة أو السلطنة أو الوزارة أو القضاة أو الامرة أو الحرفة • فيقال مثلا « السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحى التركى الحنفى البندقدارى »[3] ، ويقال أيضا « قاضى القضاة

---

(١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٧٧ ب ، ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ١٧٢ •

(٢) Barbier de Meynard : Surnoms ... p. 173.

(٣) Emile Amar : Prolegomenes a L'Etude ... pp. 476 — 522.

تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين العامرى الحموى الشافعى »[٤] ... وهكذا .

ومن الملاحظ أن سلاطين المماليك بمصر أكثروا من استعمال الألقاب ، ونوعوا الألقاب الرسمية وجعلوها على درجات عديدة من الصعب حصرها ، كما جعلوا هذه الألقاب جزءا أساسيا من قواعد البروتوكول الرسمى ، فحرصوا فى مكاتباتهم الرسمية على أن يخاطب كل فرد بلقبه الذى يتفق والفئة أو الطبقة التى ينتمى اليها ودرجته فى تلك الطبقة . واذا كان العصر المماليكى قد أسرف فى استعمال الألقاب والكنى بوجه عام ، فان الملاحظ أن هذه الألقاب لم تظل على حال واحد طوال ذلك العصر ، وإنما تعرضت لكثير من التغيير والتبديل المستمر بين حين وآخر وذلك « مخالفة لمن تقدمهم » على قول القلقشندى[٥] . وقد عدد القلقشندى الألقاب المستخدمة فى عصر سلاطين المماليك ، ومنها ألقاب أرباب السيوف من الأمراء وهى على تسع مراتب ، وألقاب أرباب الوظائف الديوانية وهى على ست مراتب ومثلهم أرباب الوظائف الدينية ، ثم ألقاب مشايخ الصوفية وهى على خمس مراتب ، وألقاب من يكتب له بولاية من رؤساء العامة والتجار وهى على أربع مراتب ، وأخيرا تأتى ألقاب زعماء أهل الذمة وهى على ثلاث مراتب[٦] .

ويبدو واضحا أن ظاهرة الاعتزاز بالألقاب والتمسك بها سرت عدواها من المماليك الى بقية طبقات الشعب ، فتمسك كل فرد بلقبه وكنيته التى تلازمه ويعرف بها ، مثل « أبى المحاسن » و« تقى الدين » . ولم يختلف أهل الذمة عن المسلمين فى ذلك ، إذ كانت لهم أيضا ألقابهم مثل « الشيخ الشمسى » و« الشيخ الصفى » . فإذا اعتنق

---

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٠٤ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٩ .
(٦) المصدر السابق ج ١١ ص ٧٦ — ٨٤ .

أحدهم الإسلام أسقطت الألف واللام وأضيف إليه لفظ « الدين » ، فيقال « شمس الدين » و « صفى الدين » وهكذا[٧] .

واعتبرت المناداة على شخص باسمه مجردا عن اللقب إهانة تأباها النفس . يدل على ذلك أنه أخذ العهد على الصوفية بمصر فى القرن العاشر الهجرى أن لا يتكدروا إذا ناداهم أحد بأسمائهم مجردة من الألقاب[٨] ، مما يوضح لنا مدى تمسك الناس بألقابهم فى عصر المماليك وغضبهم اذا نودوا بغيرها .

الخلع :

ولم تكن الألقاب وحدها هى الأداة التى استخدمت فى عصر المماليك للتمييز بين طوائف الناس ، وإنما ظهر التمايز واضحا فى الملابس والخلع التى اعتاد السلاطين أن ينعموا بها على أتباعهم ورعاياهم فى الأعياد . على أن الإنعام بالخلع لم يقتصر على الأعياد الدينية والقومية ، وإنما عرفت له أوقات ومناسبات أخرى كثيرة . فعند الخروج الى الميدان للعب الكرة ينعم السلطان على الجوكندارية ونحوهم . وفى مواسم الصيف ينعم على مباشرى الطشت خاناه والفراش خاناه والشراب خاناه . فإذا حدث أثناء الصيد أن أحضر أحد رفقاء السلطان غزالا أو نعامة ، خلع عليه السلطان بما يناسب قدره[٩] . وفى الأفراح السلطانية — من زواج أو ختان أو غيرها — ينعم السلطان بآلاف الخلع على الأمراء وأرباب المناصب فى مصر والشام[١٠] . كذلك إذا أمر السلطان أحد المماليك ألبسه خلعة وشربوشا ، وهو شئ يشبه التاج

(٧) المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٩٠ .

(٨) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٤١ .

(٩) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٧٠ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧١ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٦٥ .

على شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة[١١] . وعند تولية شخص مهام منصب جديد فى الدولة ، فإنه يلبس تشريفا يناسب ولايته التى وليها « حسب ما تقتضيه الرتبة علوا أو هبوطا »[١٢] . فإذا قدم الوالى أو النائب من مقر ولايته التشرف بمقابلة السلطان وأراد السلطان إظهار رضائه عنه وإبقائه فى منصبه ، فإنه يخلع عليه خلعة الاستمرار[١٣] . وإذا طلب أحد الولاة أو النواب إعفاءه من منصبه وهو متمتع برضى السلطان ، فإنه ينعم عليه بخلعة العزل التى تكون أحيانا أعظم من خلعة الولاية[١٤] . أما الرسل والمبعوثون الذين يفدون الى مصر من البلاد الأخرى فيكرمهم السلطان بالإنعام عليهم بالخلع الثمينة[١٥] . وكذلك التاجر الذى يصل الى السلطان ويبيع له ولو رأسا واحدا من الرقيق أو من الخيل تكون له خلعة خلاف الثمن[١٦] . فإذا شفى أحد الأمراء أو رجال الدولة أنعم علية السلطان بخلعة[١٧] . ولم يحرم أهل الذمة من هذه الخلع ، فكان السلطان إذا عين بطرقا جديدا للنصارى أنعم عليه بخلعة[١٨] ، وكذلك إذا أراد السلطان إظهار عفوه عن أهل الذمة فإنه يسمح لهم بفتح كنائسهم ويخلع على بطرقهم[١٩] .

وقد بالغ سلاطين المماليك فى صنع هذه الخلع وأسرفوا فى تكاليفها ، كما جعلوها درجات أو طبقات أعلاها ما هو مختص بالأمراء المقدمين

---

(١١) ابن حبيب : درة الاسلاك جـ ١ ص ١٩٣ ، المقريزى : المواعظ جـ٣ ص ١٦٠ ، السلوك جـ ٢ ص ١١٨ .

(١٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٢ .

(١٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٧٦ .

(١٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١١ .

(١٥) المصدر السابق جـ ٧ ص ١٦٦ .

(١٦) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٧١ .

(١٧) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(١٨) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٦٣ .

(١٩) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٥٧ .

والنواب[٢٠] . فخلع كبار أمراء المئين صنعت من الأطلس المزركش بالذهب والفراء الفاخر والكلوتات المذهبة والشاشات الرفيعة المرقومة بألقاب السلطان . أما المنطقة أو الحزام فتكون محلاة بالزمرد واللؤلؤ ، وأحيانا يكون مع الخلعة سيف محلى بالذهب وفرس من الاسطبل السلطانى . ثم تقل قيمة الخلعة وكلفتها حسب رتبة الأمير المنعم بهما عليه ، ولكنها مع ذلك تظل دائما مضرب الأمثال فى الفخامة والعظمة[٢١] . أما خلعة الوزير أو الكاتب فكانت جبة ثمينة مطرزة بالحرير يصحبها فراء فاخر[٢٢] . وأما خلعة القضاة والعلماء فأجلها ما يكون أبيض تحته أخضر ، ويصحب هذه الخلعة عادة طرحة[٢٣] . هذا بينما تتألف خلع الخطباء من رداء أسود وشاش أسود وطرحة سوداء وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب[٢٤] .

كذلك اعتاد سلاطين المماليك الإنعام على أمرائهم — فضلا عن الخلع — بالخيول مرتين فى السنة ، والحوائص عند الخروج للعب الكرة ، هذا عدا الإنعام بالعقار والأبنية وأنواع المأكول والمشروب[٢٥] .

ملابس الرجـــال :

أما ملابس الأفراد من الرجال فى عصر المماليــك ، فقد تباينت واختلفت حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعى حتى أصـــبح من السهل على أى زائر يمر بالقاهرة أن يحكم على كل شخص يراه ، ويحدد فى سهولة طبقته الاجتماعية ، وحرفته أو عمله ، وديانته إن

---

(٢٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٢ .
(٢١) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٦٩ .
(٢٢) المقريزى : السلوك سنة ٧٨٣ هـ ، المواعظ جـ ٣ ص ٣٧٠ .
(٢٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٢٦ .
(٢٤) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٧٠ .
(٢٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٢ — ٥٦ ، المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٢٥ .

كان مسلما أو ذميا ، وذلك بمجرد النظر الى هيئته العامة وملبسه . ومن هنا اتخذ الكتاب المعاصرون الزى أساسا للتعبير عن مهنة الشخص وعمله فى المجتمع ، فيقال فلان تفقه « ثم ترك ذلك وتزيا بزى الفقراء ، وبعد مدة عاد وتزيا بزى الفقهاء ... »[٢٦] . ويقال إن قاصدا من عند تمرلنك الى السلطان برقوق ، أخذ ينظر الى الناس فى شوارع القاهرة فلقى أقواما وخلقا كثيرا مختلفى الهيئات والملبوس ، فسأل عنهم فسموا له كل طائفة فتعجب من ذلك وقال « نحن فى بلادنا ملبوس السلطان والأمير والخدم والفلاحين هيئة واحدة ! »[٢٧] .

أما ملابس المماليك فاختلفت وتعدلت على مر الأجيال ، وكثيرا ما أدخل السلاطين التغييرات والتحسينات المختلفة على ملابس الجند والأمراء[٢٨] . هذا الى تعدد ملابس المماليك باختلاف المواقف والمناسبات ، فهناك ثياب خاصة بالخدمة السلطانية وأخرى بالسفر وثالثة بالسرحات والصيد وهكذا[٢٩] . ومع ذلك فقد حافظ المماليك على لباس الرأس الذى اتخذوه من أيام بنى أيوب ، وهو كلوتات صفر مضربة بكلبندات[٣٠] بغير عمائم أو شاشات[٣١] ، فى حين يرسلون

---

(٢٦) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٦٠ — ٦١ ترجمة نجم الدين الحسين بن على .

(٢٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٨ .

(٢٨) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ١٦٠ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٣٣٢ .

(٢٩) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٨ .

(٣٠) الكلوتات جمع كلوتة بتشديد اللام وهى طاقية صغيرة من الصوف مضربة بالقطن ، والكلبندات جمع كلبندة وهى لباس الرقبة تربط تحت الذقن لحفظ الكلوتة التى فوق الشعر من الحركة (أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٣٣٠) .

(٣١) الشاشة هى القماش الرقيق الذى يلف حول العمامة .

شعورهم مضفورة خلفهم فى أكياس حريرية ملونة حمر أو صفر[٣٢] . وقد ظل الأمر على ذلك حتى عهد السلطان خليل حين تغير لون الكلوتات من الصفرة الى الحمرة . أما العمائم التى من فوقها فامتازت بالصغر وظلت كذلك حتى عهد السلطان شعبان « فحسنت هيئتها »[٣٣] . على أن لبس المماليك العمائم لم يستمر طويلا ، إذ ذكر المقريزى أن الأمراء والمماليك والأجناد أكثروا فى أيامه من لبس الطواقى بغير عمائم ، ونوعوا هذه الطواقى ما بين أخضر وأحمر وأزرق كما يفعل الصبيان والبنات[٣٤] .

أما ثياب المماليك فمعظمها الأقبية التترية[٣٥] والتكلاوات فوقها[٣٦] ، ثم القباء الإسلامى فوق ذلك ، يشد عليه السيف من جهة اليسار والصولق من جهة اليمين[٣٧] . أما الأمراء والمقدمون وأعيان الجند فلبسوا أقبية قصيرة الأكمام — أقصر من القباء التحتانى — بلا تفاوت كبير فى قصر الكم وطوله ، مع اتساع الأكمام القصيرة وضيق الأكمام الطويلة . وفوق القباء تشد المنطقة أو الحياصة[٣٨] .

---

(٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٠ ، ابن دقماق : الجوهر ص ١٣١ .

(٣٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٩ .

(٣٤) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣٥) القباء ثوب طويل يغلق من مقدمته بزراير ومفتوح حول الرقبة فتحة مستديرة ، وامتاز فى عصر المماليك بالاكمام الضيقة . ويفهم من عبارة « القباء الاسلامى » المذكورة بعد ذلك نوع من الاقبية على الطراز العربى خلاف الأقبية التترية السابق وصفها .

(٣٦) التكلاوات نوع من الملابس كان يلبسه الامراء وغير معروف وصفه بالضبط — انظر Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 99

(٣٧) الصولق مخلاة من جلد يضعها الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى وجمعها صوالق .

(٣٨) أى الحزام ويوضع حول الوسط .

ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب ، وربما جعلت من الذهب ولا ترصع بالجواهر إلا فى الخلع السلطانية لأكابر الأمراء[٣٩] . وفى الصيف يلبس المماليك الملابس البيضاء ، أما فى الشتاء فيلبسون فوقانيات[٤٠] من الصوف الملون النفيس المبطنة بفراء السنجاب الفضى ، فى حين يلبس أكابر الأمراء أنواع السمور الثمين[٤١] . واعتاد الأمراء والمماليك أن يتبعوا سلطانهم فى موعد تغيير الملابس الصيفية والشتوية[٤٢] .

وانتعل المماليك الخفاف البيض صيفا والصفر شتاء مع المهاميز المسقطة بالفضة فى الخاف[٤٣] . واعتاد السلطان والأمراء والجند أن يلبسوا فى أقدامهم فوق الخف الأول خفا ثانيا يسمى سقمان[٤٤] .

هذا ، ويجدر بالذكر أن الأمير من المماليك كان لا يلبس الشاش والكلوته وغيرها من ملابس التشريفة إلا وهو فى إمرته متمتعا برضاء السلطان ، فإذا أصبح بطالا وزال عنه إقطاعه ، أو صار مغضوبا عليه من السلطان ، فإنه فى هذه الحالة لا يتشح بالحرير وإنما يلبس كاملية ويشد وسطه ويتوشح بتصفية ويتعمم بتخفيفة ، وكلها من ملابس الأمراء المغضوب عليهم[٤٥] .

أما ملابس المعممين وأرباب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء ، فاختلفت باختلاف مراتبهم . فالقضاة والعلماء يلبسون العمائم الكبار ،

---

(٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٠ .

(٤٠) رداء يلبس فوق الملابس يشبه العباءة .

(٤١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٠ .

(٤٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ٣٦ ، جـ ٣ ص ٤٤٦ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٧ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤١ .

(٤٤) Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 209

(٤٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٨ ، ١٠٥ .

ومنهم من يجعل طرف عمامته على هيئة ذؤابة طويلة يرسلها بين كتفيه • وقد لحظ ابن بطوطة على بعض قضاة مصر فى القرن الثامن أنهم بالغوا فى تكبير عمائهم[٤٦] ، مما جعلهم مثار سخرية العامة فصنعوا تمثيلية فى خيال الظل أطلقوا عليها « بابة القاضى » ومثلوا فيها القاضى بعمامته الكبيرة وأكمامه وثيابه الطويلة[٤٧] ولبس القاضى فى ذلك العصر دلقا[٤٨] متسع الأكمام طويلها ، مفتوحة فوق كتفيه بلا تفريج ، سابلا على قدميه[٤٩] • أما قاضى القضاة فامتاز بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره بين الكتفين مع ميل الى الكتف اليسرى[٥٠] • وأما الخطيب فاختص بلبس دلق مدور أسود وشاش أسود وطرحة سوداء رمزا للشعار العباسى[٥١] • وقد تمسك العلماء والفقهاء على عصر سلاطين المماليك بزيهم هذا وحرصوا عليه وأصبحوا « يوقرون مجالس الحديث فى اللباس •• حتى جعلت اليوم هذه الثياب للفقيه كأنها فرض عليه وأنه لابد للطالب منها »[٥٢] •

أما الأشراف — وهم سلالة أمير المؤمنين على بن طالب من فاطمة الزهراء[٥٣] — فرسم لهم السلطان شعبان سنة ٧٧٣ هـ أن يجعلوا فى عمامتهم علامة خضراء بارزة للعامة والخاصة ، وذلك « تعظيما لقدرهم وليقابلوا بالقبول والإقبال ويمتازوا عن غيرهم فى هذا المنوال »[٥٤] •

---

(٤٦) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٣٣ •

(٤٧) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ١٤٦ •

(٤٨) الدلق رداء كالعباءة كان يرتديه الفقهاء والمتصوفة •
(Dozy : Dict, Vel, Ar. pp. 133 — 134).

(٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤١ •

(٥٠) السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٢٦ •

(٥١) المصدر السابق والصفحة نفسها •

(٥٢) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ١٣١ •

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٦٢ •

(٥٤) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٧٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢١٦ (كاليفورنيا) •

واعتاد الوزراء وأمثالهم من أرباب الوظائف الديوانية أن يلبسوا الفراجى المضاهية لفراجى العلماء ، وربما لبسوا عليها الجباب المفرجة[٥٥] ، هذا فضلا عما امتاز به الوزراء من لبس للقبع المزركش والعنبرينة[٥٦] . أما التجار وأولوالنعمة من غير أرباب الوظائف فصغروا عمائمهم بدرجة ملحوظة[٥٧] . وجرت العادة فى عصر سلاطين المماليك ألا يلبس الوزراء والقضاة ، وأكابر الفقهاء إلا البياض دائما ، فتكون الفوقانية التى تلبس فوق الثياب بيضاء فى الصيف من القطن وفى الشتاء من الصوف[٥٨] . وظل الأمر على ذلك حتى سنة ٧٩٩ هـ عندما استأذن كاتب السر بدر الدين الكلستانى السلطان برقوق فى لبس الصوف الملون فى الشتاء لجميع المعممين ، فأذن لهم السلطان وصاروا يلبسون الجبب الملونة شتاء[٥٩] .

أما الفقراء والصوفية « فملبسهم الاقتصاد »[٦٠] . وقد أيد كثير من الكتاب الرأى القائل بأن تسمية الصوفية مشتقة من الصوف ، لأنهم مختصون بلبسه لما فيه من التقشف والبعد عن التنعم[٦١] . وامتاز الصوفية فى القرن العاشر الهجرى بلبس المرقعات الملونة من رقع حمر وخضر وصفر وسود ، وأردية من ليف وخوص وحلفاء أو

---

(٥٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٣ .

(٥٦) القبع غطاء للراس يشبه الطاقية ، أما العنبرينة فلم يرد لها شرح فى المصادر المعاصرة .
(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 344)

(٥٧) ابو المحاسن : حوادث الدهور سنة ٨٧٣ هـ .

(٥٨) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٤ .

(٥٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٤١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢١٨ ، ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٢ ص ١٢١ ، تاريخ ابن الفرات ص ٤٦١ .

(٦٠) النويرى : الالمام بالاعلام جـ ٢ ص ٥١٧ .

(٦١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٢٢ ، Massignon : Tasawwuf

(٦٢) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٤٤ .

جلود منزوعة الشعر[٦٢] ، ووضعوا على رءوسهم القحوف والطراطير[٦٣] . وعبر عن الرداء الذى يلبسه الصوفية بالخرقة حتى أصبحت شعارا لهم ، فيقال لبس الخرقة من فلان أى أخذ العهد عليه وأصبح من أتباعه ومريديه[٦٤] . واتخذ بعض الصوفية الخرقة والعمامة من لون معين تمييزا لهم عن غيرهم[٦٥] . وبالغ بعض الصوفية فى التخشن فى ثيابهم ، فكان السيد البدوى — الذى عاش أوائل الدولة المملوكية — إذا لبس ثوبا أو عمامة لا يخلعها لغسل أو لغيره حتى تذوب فيبدلونها له بغيرها[٦٦] . وعلى عكس ذلك الشاذلية الذين خرجوا على مبدأ الصوفية العام فى لبس الصوف والتخشن فى الثياب ليتجملوا فى لباسهم وهيئتهم ، وحجتهم فى ذلك أن السلف الصالح تقشفوا حتى يخالفوا أهل الغفلة الذين انغمسوا فى زخارف الدنيا ، ولكن لما طال الأمد انعكست الآية فاتخذ الغافلون الأطمار البالية الرثة حلية ، فأصبح لزاما على الشاذلية أن يخالفوهم ويتأنقوا فى مظهرهم[٦٧] !! . وامتاز مشايخ الصوفية عن أتباعهم بمحاكاة العلماء فى لبس الدلق ، مع مراعاة أن يكون « غير سابل ولا طويل الكم » ، ويرخون « ذؤابة لطيفة » على الأذن اليسرى لا تكاد تلحق الكتف[٦٨] .

أما ملابس العامة والسوقة فليس عنها بالمصادر سوى إشارات قصيرة متناثرة ، منها قول أبى المحاسن عن أحد الأشخاص « أنه يلبس على رأسه قطعة شاش مثل سوقة العامة »[٦٩] . وفى المصادر المتأخرة

---

(٦٣) الشربينى : هز القحوف ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٦٤) Dozy : Dict. Vet. Ar, p. 153.

(٦٥) ابراهيم نورالدين : السيد البدوى ص ٥٦ .

(٦٦) طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٤٧ .

(٦٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٩ .

(٦٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣ .

(٦٩) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢١٧ .

زمنيا مثل كلوت بك ولين أن رجل الشارع فى مصر يلبس سروالا واسعا مربوطا حول أسفل الساقين ، وعلى صدره صديرى فوقه قفطان أو جلباب ، وعلى رأسه طاقية أو قلنسوة تلف حول العمامة[٧٠] . ولكنه ليس من المأمون تطبيق هذا الوصف على ملابس العامة فى عصر سلاطين المماليك دون حساب للتغييرات والمؤثرات التى استجدت عقب الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ .

أما أهل الذمة من النصارى واليهود ، ففرضت عليهم فى فترات متقطعة من عصر سلاطين المماليك قيود شديدة فى الملبس ، التزموها ولم يتخطوها . من ذلك أنهم حرم عليهم لبس الفراجى والجبب بالأكمام الواسعة « كهيئة قضاة الإسلام »[٧١] . كذلك اشترط فى ثيابهم أن تكون قصيرة وغير طويلة[٧٢] ، وفرض عليهم تصغير العمائم بحيث لا يزيد طول عمامة أحدهم عن عشرة أو سبعة أذرع[٧٣] . مع تلوين العمائم باللون الأزرق للنصارى والأصفر لليهود[٧٤] . كذلك طلب من النصارى أن يشدوا أوساطهم بالزنانير ، وهى نوع من الأحزمة لا يلبسه إلا المسيحيون[٧٥] . ولكن يبدو أن معظم هذه القيود والالتزامات لم تكن ملحوظة بدرجة واضحة ، بدليل ما ذكره الرحالة الغربيون الذين زاروا مصر فى عصر المماليك من أن الفارق الوحيد بين

---

(٧٠) كلوت بك : لمحة عامة ج ١ ص ٥٥٨ — ٥٦٩ ،
Lane : Manners; pp. 28 — 32.

(٧١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٩٨ ، العينى : عقد الجمان سنة ٨٢٠ هـ .

(٧٢) النويرى : الالمام بالاعلام ج ١ ص ٩٤ — ١ .

(٧٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٨٦ .

(٧٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١١ ، العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٠ هـ .

(٧٥) Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 196.

المسلمين وأهل الذمة فى الهيئة والملبس هو لون العمامة فقط[٧٦] . ومهما يكن الأمر فقد حرص أهل الذمة عند خروجهم الى الطريق العام على مراعاة القيود المفروضة عليهم فى الملبس خوفا من بطش الحكام وأذى العامة ، فإذا صار الواحد منهم داخل بيته لبس ما يشتهى من الملابس والثياب الفاخرة[٧٧] .

أما عن ملابس الفلاحين والأعراب فلا يوجد عنها هى الأخرى فى المصادر المعاصرة سوى القليل النادر . ويرجح أن الفلاحين ظلوا كما نراهم اليوم فى ثيابهم الزرقاء واللبد الصوف على رءوسهم[٧٨] . أما العربان فارتدوا « كاملية مفرجة »[٧٩] مع مراعاة اتساع الأكمام وكبرها[٨٠] . وامتاز مشايخ العربان بلبس الحرير الأطلس المزركش « والشاشات المرقومة »[٨١] . وهناك عبارة ذكرها المقريزى عن ثياب العربان فى عصره « وهى كاملية مفرجة وعمامة بلثامين »[٨٢] .

ملابس النســـــاء :

أما عن ملابس النساء فى عصر ســـلاطين المماليك ، فقد اجتمـــع الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر فى ذلك العصر على تشابه ملابس جميع نساء المدن من حيث شكلها العام[٨٣] . ويمكننا تصوير الملابس التى اعتادت أن ترتديها المرأة فى ذاك العصر بقميص واسع طويل

---

(٧٦) Dopp : Le Caire Vu; Tome 23; p. 129.

(٧٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٣ .

(٧٨) كلوت بك : لمحة عامة ج ١ ص ٥٧١ .

(٧٩) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٥٠ (مخطوط) .

(٨٠) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢١٧ .

(٨١) المقريزى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦٠٩ (مطبوع) .

(٨٢) المقريزى : السلوك ج ٢ص ٦٠٩ .

(٨٣) Dopp : Le Caire Vu; Tome 24; p. 134 & Schefer : Voyage du Magnifique ... p. 211.

تصل أطرافه الى الأرض ، له أكمام كبار واسعة[٨٤] ، وفوق ذلك القميص سبلة أو إزار يغطى جميع بدنها ويعلو كل ملابسها[٨٥] . ووصف الرحالة هذه السبلة بأنها بيضاء اللون بالنسبة لجميع المسلمات[٨٦] ، وهذا يخالف ما تطور إليه الوضع بعد ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى عندما أصبح من المراعى فى حبرة أو تزبيرة المرأة المتزوجة أن تكون سوداء اللون ، ولا تلبس السبلة البيضاء سوى الآنسات[٨٧] .

وحرصت النساء عند خروجهن الى الطريق على إخفاء وجوههن بحجاب أو برقع أسود اللون ، تضعه المرأة بطريقة لا تمكن أحدا من رؤية وجهها فى حين تمكنها من رؤية كل ما يحيط بها[٨٨] . كذلك حرصت النساء على غطاء الرأس ، واستعملن لذلك الخرض الشاش ، وهى عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها عند ظهرها[٨٩] . ويكون شكلها العام مثل سنم الجمل ، فيبلغ طولها نحو ذراع وارتفاعها ربع ذراع ، وأحيانا يبالغن فى زخرفتها بالذهب واللؤلؤ[٩٠] . وتردد أيضا فى المصادر المعاصرة اسم المقانع التى تضعها النساء فوق رؤوسهن ، وهى مناديل قد تستعمل كذلك فى تغطية الوجه[٩١] . ومما يسترعى الإلتفات أن النساء فى عصر المماليك عمدن

---

(٨٤) العينى : عقد الجمان سنة ٧٩٣ هـ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٤٠ .

(٨٥) الازار هو الملاءة الكبيرة التى تلتف بها المرأة .

(٨٦) Schefer : Voyage du Magnifique; p. 211.

(٨٧) كلوت بك : لمحة عامة جـ ١ ص ٦١٢ .

(٨٨) Belon : Les Observations; p. 106 & Schefer : op. cit, p. 211.

(٨٩) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٥٤ .

(٩٠) Dozy : Dict, Vet. Ar, p. 239.

(٩١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٣٣ .

أحيانا الى تقليد الرجال فى زى الرأس فلبسن الطواقى وتعممن بالعمائم حتى اضطر السلاطين الى المناداة « بأن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة »[٩٢] . وحاول المقريزى أن يلتمس النساء بعض العذر فى ذلك ، فقال إن الضرورة هى التى فرضت عليهن محاكاة الرجال فى لبس الطواقى السابقة بسبب ما نزل بالناس من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل فى لبس الشاشات الفاخرة . ولكن هذا التبرير لا يتفق مع ما ذكره المقريزى نفسه من أن هؤلاء النسوة اللائى لبسن الطواقى اعتدن أن يزخرفنها بالذهب والحرير ويبالغن فى ذلك[٩٣] . هذا كله عدا « الأخفاف المثمنة » التى اعتادت النساء أن يلبسنها فى أقدامهن[٩٤] .

ووصف الرحالة الأجانب ملابس النساء فى مصر على عصر سلاطين المماليك بأنها « من الأقمشة الرقيقة الفاخرة »[٩٥] . والواقع أن نساء ذلك العصر كثيرا ما بالغن فى ثيابهن سواء من ناحية الهيئة أو القيمة . وقد بلغ الأمر بهن أحيانا أن تفصل الواحدة قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقى الذى عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة قميص المرأة أكثر من ثلاثمائة وعشرين ذراعا مربعا[٩٦] . أما تكاليف مثل ذلك القميص فتجاوزت الألف درهم ، ومثله الإزار الخارجى ، فى حين وصل ثمن خف المرأة الى

---

(٩٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٠٣ ، تاريخ ابن الفرات جـ ١١ ص ٣٧ سنة ٦٦٢ هـ .

(٩٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٩٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٢٧ .

(٩٥) Dop : Le Caire Vu ... Tome 24, p. 134.

(٩٦) العينى : عقد الجمان سنة ٧٩٣ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧٥٠ (تحقيق الباحث) .

ما بين مائة وخمسمائة درهم[٩٧] • ويبدو أن هذا الإسراف من جانب النساء دفع أهل الدولة الى التدخل فى تحديد ملابسهن كما حدث سنة ٧٥١ وسنة ٧٩٣ وسنة ٨٥٠ وسنة ٨٧٦ هـ • وفى هذه الأحوال يطوف المنادون فى الطرقات والشوارع محذرين النســاء من لبس القميص الذى يزيد طوله عن اثنى عشر أو أربعة عشر ذراعا وأن لا تكون الأكمام مفرطة فى الاتساع[٩٨] • كذلك صدرت الأوامر المشددة بمنع النساء من لبس الثياب الثمينة والبرد الحرير « والعصــابات المقنزعة »[٩٩] • وأنشأت رسل المحتسب تطوف بالشوارع ، فإذا وجدوا امرأة خالفت التعليمات السابقة ضربوها وجرسوها[١٠٠] • كذلك نصبت أخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على صورة نساء ، وعليهن القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النســاء وتخويفهن[١٠١] •

على أنه من الممكن التماس بعض العذر لعادة النساء فى مثــل التصرفات السابقة • فالمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك سار وفق النظام الذى نعرفه اليوم ، وهو أن كل طبقة فى المجتمع مولعة دائما أبدا بمحاكاة من تعلوها من الطبقات ، وبعبارة أخــرى فإن المستحدثات (الموضات) تنتقل دائما من أعلى الى أسفل • وقــد شهد المقريزى أكثر من مرة بأن ما فعلته عامة نساء عصره فى الملبس

---

(٩٧) المقريزى : المواعظ جـ ٤ ص ١٢٧ •

(٩٨) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٣ هـ ، العينى : عقد الجمان سنة ٧٩٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٤٠ ، ذيل الاعــلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ١ ص ٦٩ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ق ٢ ص ٧٥ (تحقيق الباحث) •

(٩٩) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ق ٣ ص ٣٥٢ ، ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام جـ ٣ ص ١٢٢ •

(١٠٠) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٣٢ •

(١٠١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٥٠ — تحقيق الباحث •

إنما كان من باب التشبه بما فعلته نساء السلاطين والأمراء . ففى حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقريزى على عوام النساء أنهن تشبهن فى الملبس بنساء الملوك والأعيان[١٠٢] . وفى حوادث سنة ٧٥٠ هـ يصف المقريزى كيف أن نساء السلاطين وجواريهن أحدثن ثيابا طوالا تسحب أذيالها على الأرض ولها أكمام واسعة ، سعة الواحد منها ثلاثة أذرع ، وعرف القميص منها بالهطلة . ثم يعقب المقريزى على ذلك بقوله « وتشبه نساء القاهرة بهن فى ذلك حتى لم تبق امرأة إلا وقميصها كذلك »[١٠٣] .

ونلاحظ أيضا فى ملابس النساء أنها لم تظل فى شكلها على حال واحد ، بل غلب عليها كثرة التغيير والتبديل وظهور المستحدثات (الموضات) ، كعهدنا بملابسهن اليوم . وقد أخذ بعض المعاصرين على النساء أن « لهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإتراف ، وأهمل إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف ، فقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان فى حساب !! »[١٠٤] . ولم تبق ملابس النساء فى ذلك العصر على حال واحد من الطول أو القصر ، والاتساع أو الضيق ، وإنما تعرضت لتغيير مستمر فى فترات متقاربة . فإذا أخذ ابن الحاج على نساء مصر فى القرن الثامن الهجرى « تلك البدعة التى أحدثنها فى ثيابهن من جعلها ضيقة وقصيرة » ، كما دعا معاصريه الى منع النساء من تلك الأكمام القصيرة التى أحدثنها[١٠٥] ، فان المقريزى فى القرن التاسع الهجرى عاب على نساء عصره إفراطهن فى طول الثياب واتساعها ، والإفراط فى اتساع الأكمام وطولها ، حتى أن الواحدة اذا أرخت كمها فإنه يغطى رجلها!![١٠٦] . وفيما عدا التغييرات التى

---

(١٠٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ حوادث سنة ٧٩٣ هـ .
(١٠٣) المصدر السابق حوادث سنة ٨٥٠ هـ (جـ ٢ ص ٨١٠) .
(١٠٤) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٥٧ .
(١٠٥) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣ .
(١٠٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٨٤ .

تعرضت لها أشكال ثياب نساء مصر فى عصر سلاطين المماليك ، دأبت النساء فى ذلك العصر على ابتكار الجديد واستحداث الغريب . من ذلك قول أبى المحاسن « واستجد النساء فى زمانه (الناصر محمد) الطرحة ، كل طرحة بعشرة آلاف دينار وما دون ذلك الى خمسة آلاف دينار ! والفرجيات بمثل ذلك . واستجد النساء فى زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والقباقيب الذهب المرصعة ، والأزر الحرير ، وغير ذلك »(١٠٧) .

وكانت هناك فوارق واضحة بين المرأة المسلمة وأختها الذمية فى عصر سلاطين المماليك . فإذا ارتدت المرأة المسلمة إزارا أبيض — كما رأينا — ، فإن القبطية ألزمت بأن يكون إزارها أزرق اللون ، كما ألزمت اليهودية باللون الأصفر ، وإذا ترك للمسلمة الحرية فى انتقاء الأقمشة الرقيقة الفاخرة لتصنع منها إزارها ، فإن الذمية فرض عليها أن تصنع إزارها من الكتان . هذا علاوة على أن الخف الذى تلبسه الذمية فى قدميها اشترط فيه أن تكون فردتاه من لونين مختلفين(١٠٨) . على أنه من الواضح أن هذه القيود فى الزى لم تفرض على الذميات إلا فى أوقات الأزمات فقط . ولا يوجد فى المصادر المعاصرة ما يثبت إلزامهن بالقيود السابقة فى الملبس فى الأوقات العادية ، بل على العكس هناك ما يشير الى تمتعهن بلبس أفخر الملابس والأزياء دون تفرقة بينهن وبين المسلمات . فابن الأخوة يصف نساء أهل الذمة فى أيامه بأنهن « إذا خرجن من دورهن ومشين فى الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك فى الحمامات . وربما جلست النصرانية فى أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها . ويخرجن الى الأسواق ويجلسن عند التجار ،

---

(١٠٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حوادث سنة ٧١٠ هـ .

(١٠٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٣٤٣ — ٣٨٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٣١٢ ، النويرى : الالمام جـ ١ ص ١٩٤ .

فيكرمونهن بما يشاهدون من حسن زيهن فلا يدرون أنهن أهـــل ذمة .. ! »[١٠٩] .

المظهـر العـام للأفـراد :

وبعـد ، فإنه يبدو انا مما سبق أن الناس اعتنوا فى عصر المماليك بأناقة المظهر فأكثروا من استعمال الذهب فى زينتهم ، لا سيما لبس الخواتم فى أصابع الأيدى[١١٠] ، وصقلوا ملابسهم بالكى حتى حرص بعض الأثرياء على الاحتفـاظ فى بيوتهم بعمال مخصصـين لكى الملابس[١١١] . كذلك اهتم الناس بالدابة التى يمتطيها الفرد منهم ، فاختار المماليك الخيل الجميلة المنظر وزينوها بالكساوى الثمينة ، فى حين ركب عامة الناس الحمير العالية التى إذا ركبت بسرج اختلطت مع البغال[١١٢] ، وأجادوا تطهيمها بصورة استرعت انتباه الرحـالة الأجانب[١١٣] .

واعتنى الناس كذلك فى ذلك العصر بلحاهم وشواربهم . وعرف عن المماليك فى أول عصرهم أنهم اعتادوا إرخاء ذوائب شعورهم فى أكياس من الحرير ، واستمروا على ذلك حتى حان الوقت الذى حلق السلطان الناصر محمد رأسه سنة ٧١٥ هـ . « فلم يبق أحد من الأمراء أو المماليك الناصرية حتى حلق رأسه . ومن يومئذ بطل إرخاء العسكر ذوائب الشعر واستمر ذلك الى اليوم »[١١٤] . ويبدو واضحا أن المصريين

---

(١٠٩) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٤٣ .

(١١٠) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٩٤٨ .

(١١١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ١٢٦ ترجمة أحمد بن محمد بن عبد اللطيف .

(١١٢) عبد اللطيف البغدادى : أخبار مصر ص ٧٠ .

(١١٣) Tafur : Travls, p. 101 & Dopp : Le Caire Vu Tome 24; p. 114.

(١١٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٤٨ .

على اختلاف فئاتهم لم يحاكوا المماليك لا فى إرخاء ذوائب الشعر فى أول الأمر ، ولا فى حلاقة الرأس بعد ذلك . ويدل على ذلك ما ذكره السيوطى من أن معاصريه من المصريين اتبعوا نظام قص شعر الرأس اقتداء بالصحابة ، فلا يحلقونه إلا لمرض أو لعذر[١١٥] . كذلك شبه القلقشندى ذوائب الشعر التى اعتاد المماليك إرخاءها فى أول الأمر « بعرب الحجاز وغيرهم » ولم يشر أبدا الى فئة من فئات سكان مصر[١١٦] .

أما اللحية والشارب فاعتبرت الشعار الواضح المميز للرجولة . فإذا أراد السلطان تحقير شخص والحط من شأنه وكرامته فإنه يأمر « بحلق ذقنه وتشهيره »[١١٧] ولذا نظر المجتمع المماليكى الى الشاب الأمرد نظرة مفعمة بالاحتقار والإزدراء[١١٨] . فإذا رزق شخص بولد أمرد منعه من الخروج إلى السوق إلا ببرقع[١١٩] ، وإذا تزوج رجل بإمرأة لها أخ أمرد كثرت الشناعة عليه[١٢٠] ، وإذا تفقد صاحب وقف صوفية الزاوية التى أنشأها ووجد أحدهم أمردا امتنع عن تقريره فى الزاوية وطرده[١٢١] .

---

(١١٥) السيوطى : منتقى الينبوع — ورقة ٦ .

(١١٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٤١٧ ، جـ ٤ ص ٥ .

(١١٧) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٥٦ ، المقريزى : الملتقى جـ ٣ ص ١ (ب) .

(١١٨) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٧ ص ٢٨ .

(١١٩) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٤٥ .

(١٢٠) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر جـ ١ ص ٣٤٥ .

(١٢١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٩٦ ترجمة محمد بن يوسف بن على .

الفصل التاسع

الأمـراض الاجتماعيـة

لا يستطيع الباحث أن ينكر أن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك امتلأ بكثير من الأمراض الاجتماعية الخبيثة التى انتشرت بين جميع الطبقات حكاما ومحكومين ، من أهل الدنيا والدين • حقيقة إن ذلك العصر يمتاز بمسحة براقة من الصلاح والتقوى والحرص على إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة فى المبالغة فى إحياء شـعائر الدين ، ولكن هذه المسحة الخارجية لا تلبس أن تتضح حقيقتها لمن يتعمق فى البحث ، فتبدو طلاء خادعا يخفى وراءه انحلالا خلقيا بعيد الغور وأمراضا متوطنة خبيثة تثير الاشمئزاز والنفور • ولا يمكن أن يكتمل تصوير المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك بغير إشارة الى هذه الأمراض ومدى انتشارها وخطورة أثرها •

على أنه من العسف القول بأن مصر انفردت دون غيرها من البلاد الإسلامية بالانحلال الاجتماعى فى تلك الحقبة من التاريخ • فابن حجر يذكر عن بلاد « ابن عثمان » فى أوائل القرن التاسع الهجرى أن الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش كان فاشيا بها[1] • وعندما عاب أحد مشايخ مصر على شيخ أندلسى فى القرن السابع الهجرى أن أهل الأندلس يشربون الخمر ويحبون الشباب ، ردا عليه الشيخ الأندلسى قائلا « أما الشباب فما أشك أن أهل مصر أفسق منا ! » فتبسـم الشيخ المصرى وسكت[2] • ويروى ابن دانيال الموصلى أنه عنـد

---

(١) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٦٠٢ •

(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٨ •

حضوره إلى مصر أواخر القرن السابع الهجرى ، وجد « مواطن الأنس غير آنسة » من خمر وحشيش وغيرها ، فساءه ذلك وأثار دهشته مما يدل على أنها « تأخرت » عن البلاد الإسلامية المجاورة فى مضمار الفساد[٣] . كذلك من العسف أن ينسب مولد الفساد الاجتماعى الى أيام سلاطين المماليك وحدهم . فالقاضى الفاضل يذكر فى متجددات سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى بمصر « من البغى ومن المعاصى ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور ... وشرب الخمر ، ما لم يسمع أو يعهد مثله »[٤] وكان ذلك فى أواخر عهد صلاح الدين .

على أن هذا كله لا يخفف المسئولية عن كاهل أمراء المماليك وسلاطينهم ، بسبب ما أسهم به كثير منهم فى حياة الفسق والمجون . فالسلطان برقوق — الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء — لم يتحرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المماليك الحسان لعمل الفاحشة فيهم »[٥] . وهكذا تثبت الدراسة الدقيقة لتاريخ المماليك أنفسهم — من سلاطين وأمراء وأجناد — أنهم كانوا مصابين بمرض ازدواج الشخصية ، فحرصت الغالبية العظمى منهم على إظهار أكبر قدر ممكن من التقوى والورع والتدين فى حياتهم العامة ، فى حين أنهم لم يتحرجوا — فى حياتهم الخاصة — من ارتكاب أشد أنواع المنكر والموبقات . وربما كان للثروة التى تدفقت على مصر فى عصر سلاطين المماليك أثر فى ذلك الفساد ، على قول ابن خلدون[٦] . فإذا وجد الشعب حكامه على هذه الحال ، فإن عامة الناس لا يلبثون أن يحاكوا الحكام فى حياة الفسق والرذيلة ، لأن « الشخص يكون مع زمانه ... ويرقص للقرد فى دولته » على قول مؤلف هز القحوف[٧] .

---

(٣) ابن دانيال الموصلى : طيف الخيال ص ٧ .

(٤) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٢٢ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ .

(٧) الشربينى : هز القحوف فى قصيدة ابى شادوف ص ٤ .

والأمراض الاجتماعية التى فشت فى مصر على عصر سلاطين المماليك نوعان ، أولهما الفساد الخلقى مثل الزنا والشذوذ الجنسى وتعاطى الحشيش والرشوة ، وثانيهما المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد فى قدرة المشايخ والأولياء ، والتطير والتشاؤم ، والحسد والتعاويذ ، وأيام السعد والنحس ، والاعتقاد فى الجن والسحر والتنجيم والكيمياء ..

الزنا :

أما الزنا فانتشر فى الديار المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، حتى اعترفت الدولة بالبغايا ففرضت عليهن ضرائب مقررة[٨] ، وجمعت من هذه الضرائب « جملة مستكثرة »[٩] ، كما جعلت الدولة للبغايا ضامنة تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها[١٠] . وهكذا انتشر البغاء فى مصر المماليكية ، حتى وقفت البغايا بالأسواق تحت أعين المارة[١١] . ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى بل عم بلاد الصعيد والوجه البحرى حيث خصص للبغايا حارات مريبة معينة[١٢] . وقد حاول السلطان بيبرس أن يحد من البغاء فى البلاد ، فأبطل المكوس المقررة على البغايا ، ومنع البغاء فى القاهرة وسائر البلاد ، كما حبس البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزاد فى مهورهن عن أربعمائة درهم يعجل منها مئتان رغبة فى تيسير زواجهن[١٣] .

---

(٨) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٩) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٧ .

(١٠) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٣٥ .

(١١) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٣١٢ .

(١٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٢٧٠ ، ابن قاضى شهبة : الاعلام ج ٥ ص ٢٣٠ .

(١٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٩ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٤ ص ٤٧١ ، ج ٢ ص ١٥٠ ، تاريخ ابن الفرات ج ١٣ ص ٤٣ .

كذلك كان من جملة الضرائب التى ألغاها الناصر محمد عقب الروك الناصرى ضريبة حقوق القينات وهى ما يجمع من « الفــواحش والمنكرات » ، والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة[١٤] .

الشــذوذ الجنسى :

وابتلى المجتمع كذلك فى عصر سلاطين المماليك بتفشى الشذوذ الجنسى . وقد ذكر أبو المحاسن أن هذا الداء انتشر فى الشرق منذ دخول الخراسانية الى العراق سنة ١٣٢ هـ أى منذ أوائل الدولة العباسية[١٥] . وعبر المقريزى تعبيرا صريحا عن انتشار هذا المرض بين المماليك بمصر ، فقال بأنه « فشى فى أهل الدولة محبة الذكران » حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور فى ملبسهم « فتشبه البغــايا لبوارهن بالغلمان » ليستملن قلوب الرجال[١٦] . كذلك وصــف المؤرخون السلطان ططر والسلطان برقوق بمحبة الذكران[١٧] . وبلغ من استفحال هذا المرض أن السلطان حسن عرف بحبه للنساء فقيل فيه أنه « لم يكن له ميل للشباب كعادة الملوك من قبله »[١٨] . ويروى

---

(١٤) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٤٤ .

(١٥) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٢٢ . وقد حكى الجاحــظ (ت ٨٦٨ م) سبب فشو هذه الفاحشة فى الخراسانيين ، وهو خروج الاجناد فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم الا يخرج النساء مع الجند ، خلافا لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار وعند اللباس والتستر — وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخد المراة وردف كردفها وساق كساقها — توالدت هذه الفاحشة .. (انظر آدم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ١٦٠) .

(١٦) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ١٦٩ .

(١٧) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٤٢٢ ، جـ ٦ ص ٥٢٠ .

(١٨) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٥٨ .

ابن حجر أن أحد أبناء السلطان الناصر محمد شغف بغلام « جميل الصورة » وهام به غراما « وتهتك فيه » ، فأمر السلطان بحبس الغلام ، فشق ذلك على ابن السلطان وهدد بالانتحار وامتنع عن الأكل والشرب حتى أفرج عنه[١٩] . كذلك يحكى المقريزى كيف أضرب الناصر أحمد ابن الناصر محمد بن قلاوون عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ « حتى يأتوه بشاب كان يهواه يقال له عثمان ، فأتوه به فأكل عند ذلك ! »[٢٠] . وتفيض المصادر المعاصرة بأخبار المخاصمات والمشاحنات بين أمراء المماليك بسبب تعشق أحدهم لغلام مملوك لآخر[٢١] . بل إن كتبغا خلع من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام[٢٢] .

ثم إن هذا المرض انتشر بين رجال القلم علاوة على رجال السيف ، فاتهم ابن حجر بعض الكتاب والفقراء (الصوفية) بل القضاة بحب الغلمان ومعاشرة الأحداث[٢٣] . ويقال إنه وجد بالشرقية فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى طائفة من الناس أطلق عليهم « المطاوعة » ، أباحوا النظر الى الأمرد الجميل ، فيجلس الواحد منهم « وقد جعل صدر الأمرد على صدره »[٢٤] .

---

(١٩) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٩٤ ترجمة أحمد بن محمد ابن قلاوون .

(٢٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٦١ — ٦٦٢ سنة ٧٤٥ هـ .

(٢١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٩ ص ١١٤ .

(٢٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤ .

(٢٣) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٥٩ ب ؟ انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٠٠ ، ١٠٩ ؟ الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢١٠ ترجمةأحمدبن على بن عبادة ، ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٢ ص ٩٦ .

(٢٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٠٣ — ١٠٤ .

المخـــدرات :

وكان للحشيش شأن كبير فى مصر على عصر سلاطين المماليك . وقد قال المقريزى عن الحشيش فى أيامه « فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا كبيرا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام »[٢٥] . وفرض على الحشيش فى أوائل عصر المماليك ضريبة تمد الدولة « بجملة كافية » حتى ألغيت سنة ٦٦٥ هـ[٢٦] . ولم يقتصر تفشى الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب ، بل تخطاها الى غيرها من الطبقات[٢٧] ، حتى شغف بها كثير من العلماء والقضاة ، بل أفتى بعض القضاة بإباحة أكلها[٢٨] . لذلك نظم كثير من أدباء عصر المماليك أشعارا الغرض منها إيضاح مزايا الحشيش وتفضيله على الخمر[٢٩] . كذلك شغف الصوفية والفقراء بالحشيش شغفا كبيرا ، حتى نسب إليهم فأطلق عليه المعاصرون « حشيشة الفقراء »[٣٠] . وقال بعض المفسدين من المتصوفة أن الحشيشة « لقيمة الذكر والفكر »[٣١] . بل إن أحد صوفية خانقاه

---

(٢٥) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢٦) ابن دقماق : الجوهر ص ١١٨ ، ابن اياس : بدائع الزهـور جـ ١ ص ١٠٤ . وقد ذكر المقريزى أن الظاهر بيبرس « ابطل ضمان الحشيشة وأمر بتاديب من أكلها » فى حوادث سنة ٦٦٤ هـ .

(٢٧) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٢٨) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٤ ترجمة محمد بن محمد ابن الشحنة .

(٢٩) ومن ذلك ما قاله محمد بن دانيال الموصلى (الكتبى ، عيون التواريخ جـ ٥ ص ٢٣١) :

قل للذى ترك الحشيشة جاهـلا   وله بكاســات المدام ولـوع
ان المـدامة لو اردت تطـوعا   لهى المحـرم والحشـيش ربيع

(٣٠) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٣٣٩ ، المواعظ جـ ٢ ص ١٢٦ (بولاق) .

(٣١) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣٢ ص ٧٥ .

« سعيد السعداء » نظم شعرا فى تفضيل الحشيش على الخمر[٣٢] .
وهناك أمثلة أخرى عديدة تدل على انتشار الحشيش بين الصوفية فى عصر سلاطين المماليك[٣٣] ، مما دفع بعض الكتاب الى الربط بين فشو الحشيش وانتشار التصوف ، فقالوا إن الظاهرتين سارتا فى مصر جنبا الى جنب .

واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشـــيش فى ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق[٣٤] . هذا ويلاحظ أن الحشيش لم يكن المخدر الوحيد الذى عرفه المصريون فى عصر سلاطين المماليك ، فهناك من قضاة ذلك العصر من اتهموا بتعاطى الأفيون[٣٥] .

الخمـــــور :

ولم تقل الخمور انتشارا عن الحشيش بين مختلف طبقات الناس فى مصر المماليكية ، فعصرت الخمور فى أنحاء البلاد وبيعت طـول السنة على رءوس الأشهاد ، حتى أن ما عصر منها فى خزانة البنود فى سنة واحدة بلغ اثنين وثلاثين ألف جرة[٣٦] . وذكـر كثـير من الأوربيين الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك أن الخمور متوفرة فى البلاد ، وأنهم لم يلقوا أية صعوبة فى الحصول على نبيذ

---

(٣٢) ذكر العينى (عقد الجمان سنة ٧١٩ هـ) أن أحد هـؤلاء الصوفية قال :

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلهــا ... لهــا وثبــات فى الحشـــا وثبات
تؤجج نارا فى الحشا وهى جنــة ... وتبدى مرير العيش وهى نبات

(٣٣) الجوبرى : المختار فى كشف الاسرار ص ٢٩ .

(٣٤) المقريزى : المواعظ جـ ٣ ص ٢٠٤ — ٢٠٩ .

(٣٥) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٣٠٢ ب .

(٣٦) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ١ ص ٥١ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٨٦ — ٦٨٧ .

فاخر فى أى وقت ، فضلا عن أن كثيرا من أهل البلاد يتظاهرون بشربه(٣٧) .

وعرفت مصر فى ذلك العصر أنواعا عديدة من الخمور ، منها نبيذ القمز ويعمل من لبن الخيل(٣٨) ، والمزر ويعمل من القمح(٣٩) ، والنبيذ التمربغاوى وطريقة صنعه أن يمزج عشرة أرطال من الزبيب الى أربعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج فى جرار تدفن فى زبل الخيل أياما حتى يتخمر(٤٠) ، ومنها الأقسما وتعمل أيضا من الزبيب ، والبوزا وتعمل من الدقيق(٤١) ... وواضح من أسماء بعض هـذه الأنبذة أنها ارتبطت بالمماليك ، مثل التمربغاوى نسبة الى الأمير تمربغا ، والبشتكى نسبة الى الأمير بشتك . والواقع أنهم شغفوا بشرب الخمر وأسرفوا فى تقديمها فى أفراحهم وولائمهم(٤٢) . من ذلك ما قيل عن السلطان فرج أنه عند عودته من الصيد كان يشق شوارع القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر(٤٣) ! كذلك قيل عن أبى بكر بن محمد بن قلاوون (المنصور سيف الدين) أنه عكف فى قصره على الشراب ومعه ندماؤه من الأمراء ، حتى لا يكاد الواحد

---

(٣٧) Tafur : Travels, p. 70 & Schefer : Le Voyage, p. 47.

(٣٨) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٧ حاشية ٢ .

(٣٩) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٥ .

(٤٠) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٨١ .

(٤١) العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٠ هـ ، ابو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٧ ص ٣٧٩ .

(٤٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٢١ ص ٦ — ٧ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٦٠٥ ، ابن دقماق : الجوهر ص ١٤٩ .

(٤٣) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٧ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ٢٥٠ .

منهم يفيق ساعة واحدة[٤٤] ! .

وحاكى أمراء المماليك سلاطينهم فى الشغف بتعاطى الخمور ، وتجاهر بعضهم بشربها أمام الناس[٤٥] ، بل اعتادوا أن يتهادوا بها فى أفراحهم[٤٦] . وقد بلغ ما استهلكه بعض الأمراء من الخمر خمسين رطلا فى اليوم الواحد[٤٧] . فإذا حج أمير يظن الناس أنه سينتهى عن شرب الخمر ، ولكنه لا يتوب[٤٨] . وإذا احتاج أحـــد السلاطين أو الأمراء الى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طارىء . وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل طائفة عددا معينا من الجرار وإذا تأخروا ــ كما حدث سنة ٨١٦ هـ ــ « جبيت منهم بعنف وعسف وضرب ! »[٤٩] .

كذلك شاع شرب الخمر بين عامة المصريين من غير المماليك . فإذا وقع هجوم على كنايس أهل الذمة أو بيوتهم ، أسرع العامة الى نهب ما بها من خمور واحتسائها فى الحال قبل أن ينتزعها منهم منافس[٥٠] . وفى كثير من الحفلات والأفراح الشعبية اعتبرت الخمور متممة للمغانى[٥١] . وقيل أن أحد فقهاء القرن الثامن الهجرى تحدى

---

(٤٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١٠ ص ٤٦٢ ترجمة أبو بكر محمد ابن قلاوون .

(٤٥) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠٠ ترجمة الأمير بهـــادر المنصـــــورى .

(٤٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٤٧) أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٥٢ . والمقصود هنا الأمير سيف الدين ملك تمر الناصرى أحد كبار امراء الناصر محمد وزوج ابنته .

(٤٨) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٢٢ ص ١٠٧ .

(٤٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٢أ ، ٢٠١ .

(٥٠) العينى : عقد الجمان : حوادث سنة ٧٢١ هـ .

(٥١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٢٦ .

أصحابه على أن يشرب الخمر وسط المجلس الدينى وهو على المنبر ، فاتفق مع شخص على ذلك وتظاهر بالسعال واستأذن الحاضرين فى شرب دواء « يصرف البلغم والخلط » ، فأحضر له ذلك الشخص زجاجة الخمر وشرب ما فيها عن آخره[٥٢] . أما مجالس الشراب فعنى المعاصرون بأمرها وإعداد ما ينبغى لها « من منظر جميل وسماع مطرب وتسريح اللحية والرأس وتقليم الأظفار ! » .

وقد لجأ سلاطين المماليك فى أوقات الشدائد الى إراقة الخمور وتحريم تعاطيها فى مختلف أنحاء البلاد إظهارا للتوبة ، كما حدث سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ هـ[٥٣] . ولكن هذه الأوامر لم تستمر إلا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها الى التظاهر بشرب الخمر « ولم ينتهوا عما هم فيه ! »[٥٤] .

الرشـــوة :

ومن أهم مظاهر الانحلال الخلقى فى عصر المماليك تفشى الرشوة (البراطيل) بين الحكام والمحكومين . وقد ذكر المقريزى أن أصل الفساد فى عصره هو تحكم الرشوة فى ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية كالوزارة والقضاء وولاية الاقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال « بحيث لا يمكن التوصل الى شىء منها إلا بالمال الجزيل »[٥٥] . وفى مصادر العصر المماليكى أمثلة كثيرة لقضاة ومدرسين

---

(٥٢) الجوبرى : المختار فى كشف الأسرار ص ٣٥ .

(٥٣) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ٢٤٤ أ ، ٣١٤ ب ، ٢٤٩ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٣ — ٥٤ ، جـ ٣ ص ٣٥٤ ، العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٩ هـ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٥٤ .

(٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٨٥ .

(٥٥) المقريزى : اغاثة الامة ص ٤٣ .

بلغوا مناصبهم عن طريق الرشوة ، فاذا استقروا فى تلك المناصب استمروا فى رشوة أهل الدولة بالأوقاف ، وتأجيرها لهم بأبخس الأثمان حتى يضمنوا بقاءهم فى مناصبهم[٥٦] . ويأسف المقريزى — وهو معاصر — لأن « التظاهر بالبراطيل صار عرفا غير منكر البتة »[٥٧] . وقد حدث سنة ٨٠٩ هـ أن تولى منصب الحسبة فى مصر أربعة فى شهر « لأنهم فرضوا على المنصب مالا مقررا ، فكان من قام فى نفسه أن يليه يزد المبلغ ويخلع عليه ، ثم يقوم آخر فيصرف الذى قبله ... »[٥٨] . وتغاضى بعض أصحاب الحسبة عن الباعة الذين يغشون الناس ويغبنونهم وذلك نظير ضرائب مقررة يجمعها المحتسب لكى « يؤدى منها ما استدانه من المال الذى دفعه رشوة عند ولايته ، ويؤخر البقية لمهاداة أتباع السلطان ليكونوا أعوانا له على بقائه »[٥٩] . وأدرك عامة الناس هذا الطريق لقضاء حوائجهم فإذا سمعوا أن شخصا له مكانة ووجاهة عند السلطان أسرعوا إليه يقدمون الرشاوى ويساومونه على قضاء مطالبهم[٦٠] . ثم تطور الأمر الى بيع الوظائف الدينية نفسها ، فينزل الفقيه عن وظيفته فى وقف من الأوقاف أو فى الدروس أو فى الخوانق أو القراءة أو المباشرة ، وذلك مقابل مبلغ يدفعه له طالب الوظيفة . وهكذا يلى الوظائف غير أهلها « فصارت الوظائف مثل الأموال المملوكة ، يبيعها صاحبها إذا شاء ، ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى فى التداريس الجليلة وفى نظر الجوامع والمدارس ومشيخة التصوف . فيا نفس جدى إن دهرك هازل !! »[٦١] .

---

(٥٦) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ١٧٧ ، السخاوى : الذيل على رفع الاصر ص ٣٩٧ .

(٥٧) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٦١٨ (تحقيق المؤلف) .

(٥٨) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٧٢٩ .

(٥٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ سنة ٨٢٠ هـ .

(٦٠) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٦١) المقريزى : السلوك جـ ٤ سنة ٨٢٠ هـ .

ومن الواضح أن الرشوة فشت بين كبار موظفي الدولة فشوا خطيرا في أواخر عصر سلاطين المماليك — في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلاد — وذلك على أيام المقريزي الذي اعتبر هذه الظاهرة من أشد أنواع الظلم وأخطر أسباب تدهور الدولة .

وضرب المقريزي أمثلة لهذه الظاهرة الخطيرة بما كان يفعله « الحكام بالقاهرة وأعمالها ما بين محتسب ووال وحجاب وقضاة ... وغيرهم » .

فالمحتسب الذي كان مفروضا فيه أن يمنع بيع البضائع المغشوشة في الأسواق ويعاقب أصحابها ، صار يلي وظيفته عن طريق دفع الرشوة للمسئولين ، فإذا باشر عمله تقاضى أموالا من التجار على ما يبيعونه من بضائع مغشوشة ليسد قيمة الرشوة التي استدانها « ويؤخر ما تبقى لمهاداة أتباع السلطان ليكونوا عونا له في بقائه » . أما القضاة ، فإن نوابهم « ما منهم إلا من لا يحتشم من أخذ الرشوة على الحكم » . وأما الولاة « فإن جميع ما يسرق من الناس يأخذونه من السراق » ، فإن لم تكن المسروقات مع السارق « ألزموه مالا ويتركوه لسبيله » . وأما الحجاب ، فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا لأخذ الأموال بغير حق من كل شاك إليهم « فما من أحد من الحجاب إلا وفي بابه رجل يقال له رأس نوبة ، يضمن له في كل يوم قدرا معلوما من المال يقوم له به ... » . وهكذا « اختل اقليم مصر خللا شنيعا » على قول المقريزي .

وفي موضع آخر يأخذ المقريزي على المجتمع « تجاهر الناس بالبراطيل . فلا يكاد أن يلي أحد وظيفة ولا عملا إلا بمال . فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية الأراذل وفسد بذلك كثير من الأحوال »[٦٢] .

---

(٦٢) المقريزي : السلوك : ج ٤ ق ١ ص ٣٨٨ — ٣٩٤ ، و ج ٣ ق ٢ ، ص ٦١٨ (تحقيق الباحث) .

الاعتقـــاد فى الأولياء والمشايخ :

ومن الأمراض الاجتماعية التى فشت فى عصر سلاطين المماليك مبالغة كثير من طبقات المجتمع فى التوسل بالأولياء والمشايخ لتحقيق المآرب والغايات . وقد أمعن الناس فى ذلك العصر فى الاعتقاد فى هؤلاء الأولياء ، حتى نسبوا إليهم خرافات كثيرة خارقة للعادة ، أسموها « كرامات » . وذكر السخاوى أن من جملة كرامات الأولياء انقلاب الأعيان ، فيدعو للفقير فيصبح غنيا ، ويقول للطبق النحاس « صر ذهبا » فيصير ذهبا . وكذلك المشى على الماء ، والكشف عن حال الموتى ، وسماع كلامهم بل إحيائهم ! ، والكلام عن المستقبل والماضى[٦٣] .. كذلك حكى الشعرانى بعض كرامات الأولياء التى اعتقد فيها معاصروه ، فهذا شيخ يجتذب الحلفاء من الصـــحراء فتخرج قلقاسا، وهذه امرأة تشتهى جوز الهند ولا يجدونه بمصر فتذهب الى الشيخ فإذا بشجرة تنبت فجأة فى خلوته تأخذ منها المرأة ما تشتهيه ثم تختفى الشجرة بعد ذلك ! وهذا رجل يحتاج الى المال لضرورة فيأمره الشيخ بالذهاب الى ساقية معينة ليغترف منها ما يشاء من ذهب وفضة . ومن الأولياء من يضع التراب على الرصـــاص فيصبح ذهبا ، ومنهم من يسخر التماسيح فى عبور النيل ، ومنهم من يطير فى الهواء من غير أجنحة ، ومنهم من يأمر عصاه أن تكون إنسانا فتصبح إنسانا ...[٦٤] . الى غير ذلك من الكرامات والاعتقادات التى هى أقرب الى الكفر والجهل منها الى الدين والعلم . ويبدو أن الفقراء والصوفية عملوا على نشر أخبار هذه الكرامات وأشباهها بين الناس حتى « يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم »[٦٥] .

---

(٦٣) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٣٣٣ .

(٦٤) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٤٢ — ١٩٢ .

(٦٥) زكى مبارك : التصوف ج ٢ ص ٢٨٣ .

واعتقد الناس كذلك فى المجاذيب الذين يأتون أفعالا شاذة أو غريبة . وقد بلغ من اعتقاد المعاصرين فيهم أن قصدوهم « فوجا فوجا ما بين قاض وعالم وأمير ورئيس ..»[٦٦] . ومن العجيب أن الفقيه الكبير ابن حجر قال عن نفسه أنه ما زال يعيش فى بركة أحد أولئك المجاذيب[٦٧] . وعلل الناس أفعال المجاذيب بأن روحانيتهم اللطيفة عرجت الى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها[٦٨] .

وقصد الناس على اختلاف طبقاتهم مزارات الأولياء والمشايخ[٦٩] ، وبخاصة ذوو العاهات والأمراض الذين تزاحموا أمام أبوابهم طلبا للشفاء[٧٠] . فإذا دخل أحد أولئك الأولياء الحمام وحلق رأسه « تقاتل الناس على شعره يتبركون به ويجعلونه ذخيرة عندهم »[٧١] . وربما كانت من هؤلاء الأولياء امرأة ، فيهرع إليها الناس طالبين البركة والدعاء[٧٢] . ولم يكن أمراء المماليك وسلاطينهم أقل اعتقادا فى أولئك المجاذيب والأولياء من عامة الشعب ، إذ كثيرا ما اجتمع بهم السلاطين والأمراء طالبين البركة[٧٣] . وقد حدث سنة ٩٢٢ هـ أن السلطان الغورى حرص عند خروجه لحرب العثمانيين على أن يصطحب معه خليفة السيد البدوى وخليفة السيد الرفاعى ، ومن تعلل منهما

---

(٦٦) ابو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٢٩ ، ٣٧٦ .

(٦٧) ابن حجر : انباء الغمر سنة ٧٧٧ هـ

(٦٨) كلوت بك : لمحة عامة جـ ٢ ص ٨١ .

(٦٩) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٢ ص ٨٢ — ٨٣ ، جـ ٥ ص ٢٥٥ .

(٧٠) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٢ .

(٧١) طبقات الشعرانى جـ ٢ ص ١٢٩ .

(٧٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٥٧ .

(٧٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٣٩٩ .

بالمرض ألزمه السلطان بالسفر طلبا للبركة[٧٤] . بل إن السلطان الظاهربرقوق أوصى أن يدفن عند وفاته تحت قدمى أحد المجاذيب ، وكان للسلطان فيه اعتقاد كبير[٧٥] . فإذا توفى أحد أولئك الأولياء أو المجاذيب ، احتفل احتفالا كبيرا بتشييعه ودفنه ، وأحيانا يتولى تجهيزه ودفنه أحد كبار الأمراء ، وربما دفن فى تربة بعض السلاطين[٧٦] . ويتنافس الأمراء وأهل الزوايا وعامة الناس فى شراء ثياب الولى المتوفى ، للاحتفاظ بها على سبيل البركة[٧٧] . وبعد دفنه يواظب الناس على زيارة قبره للتبرك به ، حتى أصبحت زيارة قبور الأولياء أحد الأركان الأساسية التى قامت عليها الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر سلاطين المماليك[٧٨] . وقد حاول ابن الزيات والسخاوى وغيرهما من المعاصرين وضع مؤلفات مستقلة لحصر قبور الأولياء وشرح النظام الذى يجب أن يتبع فى زيارتها[٧٩] . كذلك حرص الناقد الاجتماعى الكبير ابن الحاج على توصية زملائه العلماء والفقهاء بضرورة زيارة الأولياء والصالحين أحياءا وأمواتا « لاغتنام بركتهم ولأنه برؤيتهم تنشرح الصدور »[٨٠] .

واستتبع ذلك الاعتقاد الكبير فى الأولياء عناية فائقة بإحياء الموالد السنوية فى الجهة أو البلدة التى بها قبر الولى ، كمولد السيد أحمد

---

(٧٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٢ .
(٧٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٢٤ (طبعة كاليفورنيا) .
(٧٦) ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٢ ص ١٦٧ .
(٧٧) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٨ هـ .
(٧٨) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٣٨٠ — ٣٨٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢١٧ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٤ ص ٧٥٨ .
(٧٩) ابن الزيات : الكواكب السيارة ، السخاوى : تحفة الأحباب .
(٨٠) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٣٩ .

البدوى فى طنطا مثلا ومولد السيد عماد الدين اسماعيل بن يوسف الإنبابى فى جهة إنبابة قرب الجيزة . وكان الغرض الأساسى من إقامة هذه الموالد هو تكريم أصحابها وإحياء ذكراهم ، بصرف النظر عن رعاية اليوم الذى ولد فيه صاحب المولد بالضبط ، لأن أغلب هؤلاء الأولياء لم يعرف تاريخ ميلادهم بالدقة ، بل لم يعرف عنهم شىء فى صباهم وطفولتهم . هذا إلى أنه كان لبعض أولئك الأولياء أكثر من مولد فى السنة كالسيد البدوى الذى يحتفل بمولده ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات مختلفة فى العام الواحد . وقام سلاطين المماليك — مثل السلطان قايتباى — برعاية بعض هذه الموالد ، فأمر بعملها ودعوة الخليفة والقضاة والأعيان إليها[٨١] . أما عامة الناس ، فبلغ من اهتمامهم بأمر هذه الموالد المحلية والحرص على حضورها أنهم كانوا يقولون فى بعض الأحيان « جاء الحجاج هذه السنة لسيدى أحمد البدوى من الشام وحلب ومكة أكثر من حجاج الحرمين ! »[٨٢] .

وتعتبر إقامة هذه الموالد مما ابتلى به المصريون ، نظرا لما يحدث فيها من مظالم وتهتك وفضائح خلقية . ذلك أن القائمين على أمرها فى عصر سلاطين المماليك اعتادوا جمع الأموال اللازمة لها من الأغنياء وفرضها عليهم فرضا ، حتى ضاق الأغنياء ذرعا بذلك الوضع فقال أحدهم « لقد سئمت نفوسنا من كثرة سؤال هؤلاء المشايخ الذين يعملون لهم الموالد ، فلم يتركوا عندنا عسلا ولا أرزا ولا عدسا ولا بسلة . وأيش قام على هؤلاء أن يشحذوا ويعملوا لهم موالد ؟ ! »[٨٣] . ثم إن هذه الموالد أصبحت مهرجانات عظيمة يجتمع فيها ما لا يحصى من النساء والصبيان والفساق[٨٤] ، فتنصب لهم

---

(٨١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢١ .

(٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٦ .

(٨٣) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦٤ .

(٨٤) ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ١ ص ٣٣ .

الخيام الكثيرة حيث يدتسون الخمر ويرتكبون مختلف أنواع المنكر . وقد عثر مرة صبيحة مولد الشيخ الإنبابى على أكثر من مائة وخمسين جرة خمر متناثرة فى المزارع المجاورة بعد أن شرب ما بها ليلة المولد ، هذا خلاف « ما كان فى تلك الليلة من الفساد والزنا واللواط والتجاهر بذلك !! »[٨٥] .

وهكذا أصبحت الموالد عند المعاصرين « من جملة النزه يتواعدون عليه من قبل عمله بأيام ويتوجهون إليه أفواجا ، ومنهم من له سنون على ذلك وهو لا يعرف باب الزاوية ! »[٨٦] ، حتى أقاصى الصعيد — وهى الجهات المعروفة بطابع المحافظة الشديدة — لم يكن أهلها بمنجاة من عبث الموالد ، فنسمع عن أهل الأقصر فى عصر المماليك أنهم اعتادوا أن يقيموا بعض الموالد لمشايخهم ؛ فتأتى الناس من كل مكان « ويبذل فيه العزيز الغالى وتحضر أصحاب الشنوف والشبابات والدفوف وتختلط الرجال بالنسوان »[٨٧] .

على أنه مهما يكن لهذه الموالد من آثار اجتماعية سيئة ، فإنه يجب الاعتراف بأنها ملأت فراغا كبيرا فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية . ذلك أن الموالد كانت دائما بمثابة مواسم يكثر فيها الواردون من مختلف أنحاد البلاد ، فيتعارف الناس بعضــهم ببعض ، وينتعش الفقراء وخدم الأضرحة الذين تنهال عليهم النذور والصدقات[٨٨] . هذا فضلا عما يترتب على اجتماع الناس من نشاط حركة التجارة

---

(٨٥) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٨٧ .

(٨٦) ابو المحاسن : النجــوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٤٣ (طبعــة كاليفورنيا) .

(٨٧) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٤١٦ — ٤١٨ .

(٨٨) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٩٢ .

فتتحول هذه الموالد الى أسواق جامعة تروج فيها البضائع وتنشط حركة البيع والشراء[٨٩] .

المعتقــدات الباطلة :

وتمسك المصريون فى عصر سلاطين المماليك بكثير من المعتقــدات والأوهام الباطلة ، حتى غدت عندهم بمثابة السنن الثابتة . ومن هذه تمسكهم بعدم زيارة المريض يوم السبت ، وعدم دخول الحمام أو شراء الصابون أو غسل الملابس أو شراء السمك أو أكله فى ذلك اليوم بالذات[٩٠] . ومنها الحرص على شراء البخور واستعماله فى أيام معينة معروفة ، واستعمال الكحــل وشرب الدواء فى أيام أخــرى محددة[٩١] . وكذلك عدم إخراج نار أو ماعون أو إناء من المنــزل بعد العشاء[٩٢] . والاعتقاد فى أن المرأة التى لا يعيش لها ولد يجب أن تصنع له حلقة من فضة وتضعها فى أذنه حتى يعيش[٩٣] . أو أن الشخص إذا دخل الحمام أربعين أربعاء متتالية « فإنه يفتــح عليه بالدنيا »[٩٤] .

وكثر التشاؤم والتطير ، فإذا سافر أحد أفراد الأسرة تجنبوا تنظيف المنزل وكنسه عقب سفره ، ويتشاءمون بعدم عودته إذا هم فعلوا ذلك[٩٥] . وإذا دخل ميت من أحد أبواب القاهرة تشاءم الناس وتوجسوا سوءاً للبلاد[٩٦] . وإذا ضربت فلوس جديدة وجعل اسم

---

(٨٩) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٨٩ .

(٩٠) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٣٧ ، ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٩١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٤ — ٥٧ .

(٩٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٩٣) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٦ .

(٩٤) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٨٢ .

(٩٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٧ .

(٩٦) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٥٣٤ .

السلطان عليها فى دائرة ، تطير الناس بذلك وقالوا هذا يؤذن بأن السلطان تدور عليه الدوائر ، فتسرع الدولة إلى إبطال هـــذه الفلوس[٩٧] . فإذا صادف وبدأ عيد الأضحى أو الفطر يوم جمعة خاف الناس على السلطان الأن إلقاء خطبتين فى يوم واحد فى المساجد يؤذن بزوال الملك[٩٨] ، حتى بلغ الأمر فى بعض الأحيان أن يرى الناس هلال رمضان فينكرونه حتى لا يستهل شوال يوم جمعة فتقع الكارثة[٩٩] .

واعتاد كثير من الناس قبل الإقدام على عمل من الأعمـــال أن يفتحوا المصحف وينظروا فى أول سطر يخرج لهم . فإذا صادفوا آية تنطوى على العذاب والوعيد تخوفوا وتشاءموا[١٠٠] . وحـــكى عـــن أحد فقهاء القرن التاسع الهجرى أنه عين فى قضاء الديار المصرية ، فلما فتح المصحف خرجت له الآية الكريمة « قال رب السجن أحب الى مما تدعوننى إليه » ، فخاف الفقيه واختفى أياما حتى عين غيره فى ذلك المنصب ، وعندئذ ظهر للعيان[١٠١] . وقد احتل التنجيم مكانة كبيرة فى الحياة الاجتماعية فى عصر المماليك ، حتى أن بعض المعاصرين اهتموا بتأليف كتب فى « علم التنجيم » و « علم الرمل وفروعه »[١٠٢]. وعرف الناس فى ذلك العصر عدة طرق للتنجيم ومعرفة الطالع ، منها مراقبة النجوم وأبراجها ، وفتح المندل ، وضرب الرمل .. وغـــير

---

(٩٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٧٦ .

(٩٨) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٤ ، ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ٤٣٥ ، ٥١٠ .

(٩٩) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٠١ — ١٠٢ .

(١٠٠) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٧٨ .

(١٠١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ١٧٢ ترجمة ابراهيم بن موسى الأبناسى .

(١٠٢) الجوبرى : المختار فى كشف الأسرار .

ذلك[١٠٣] . وحكى عن السلطان بيبرس شدة ولعه بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم[١٠٤] . أما السلطان برقوق فحرص على ألا يخرج إلى الأسفار إلا بعد أن يأخذ له منجمه الطالع[١٠٥] . وكذلك اعتاد ابنه السلطان فرج ألا يتعدى فى أسفاره الوقت الذى يعينـه له المنجم[١٠٦] . أما أمراء المماليك فاعتادوا دائما الإلتجاء الى المنجمين ليطلعوا على النجوم أو يضربوا الرمل ويخبروهم من سيلى السلطنة بعد السلطان القائم بالأمر[١٠٧] . ومن النادر أن نسمع عن أحـد سلاطين المماليك أنه خالف معاصريه فى الإعتقاد بالتنجيم ، كما حدث سنة ٧٣٣ هـ عندما أمر السلطان الناصر محمد بمنع المنجمين والقبض عليهم وضربهم وذلك « لافسادهم حال النساء »[١٠٨] . وتدلنا العبارة الأخيرة على أن النساء بوجه خاص أكثرن من التردد على المنجمين فى عصر المماليك مما جعل بعض الكتاب المعاصرين يوجهون نقداً مراً الى المنجمين « فإن معظم من يجلس عندهم النسوان وقد صار فى هـذا الزمان يجلس عند هؤلاء الكتاب والمنجمين من له حاجة عندهم من الشباب وغيرهم ؛ وليس لهم قصد سوى حضور امرأة تكشف نجمها

---

(١٠٣) سيرة الظاهر بيبرس جـ ٧ ص ٥٥ ، وابن دانيال الموصلى : طيف الخيال (بابة عجيب وغريب) ص ٨٥ ، ٨٧ .

(١٠٤) ابو المحاسن : النجوم جـ ٧ ص ١٧٨ ، طبعة كاليفورنيا .

(١٠٥) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٥٠ .

(١٠٦) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ١٣٠ ترجمة ابراهيم بن محمد بن رفاعة .

(١٠٧) الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٣٣ ، ابو المحاسـن : النجوم جـ ٧ ص ٢٦ .

(١٠٨) تاريخ الجزرى جـ ٢ ص ١٩٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ق ٢ ص ٢٩٧ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٢ ، ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ص ١٢٨ ب .

أو تكتب رسالة أو حاجة لها فيشاكلها ويتمكن من الحديث معها ، بسبب جلوسه وجلوسها ، ويؤدى ذلك الى أشياء لا يليق ذكرها ...!! »[١٠٩] .

كذلك اعتقد المصريون اعتقادا راسخا فى الحسد والعين ، واتقوا شر ذلك باستعمال البخور ، « ويتكلم من يرقى البخـور بكـلام لا يعرف »[١١٠] . وكثيرا ما عنوا بكتابة الحفائظ فى أوقات معينة — مثل آخر جمعة من رمضان والإمام يخطب لصلاة الجمعة — ويقولون أن تلك الحفائظ إذا وضعت فى بيت منعت عنه الحريق والسرقة ، وإذا وضعت فى مركب منعت عنه الغرق وغير ذلك[١١١] .

أما السحر والإلتجاء إليه فأعظم ميادينه كان الحريم السلطانى ، حيث تعددت زوجات السلطان وأخذت كل منهن تسعى لتكيد لغيرها وتظهر عليها . فإذا مات ابن للسلطان اتهمت أمه إحدى ضرائرها بأنها سحرت له[١١٢] . وإذا توفيت خوند الأولى إتهم السلطان خوند الثانية بأنها سحرت لها[١١٣] . وإذا اعترى السلطان مرض قامت أمه لتتهم إحدى زوجاته بأنها سحرته فتوقع الحوطة على موجودها وتضرب جواريها ليعترفن[١١٤] . أما عامة الناس فى ذلك العصر فحاولوا إتقاء شر السحر بكثير من العادات والأفعال المتنوعة التى يعملها النساء فى بيوتهن ، من اطلاق البخور وإحراق الأشياء والصور يوم الجمعـة ساعة الصلاة[١١٥] .

---

(١٠٩) ابن الاخوة : معالم القربة ص ١٨٣ .

(١١٠) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٥٥ — ٥٦ .

(١١١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١٨ .

(١١٢) المصدر السابق سنة ٨٤٧هـ .

(١١٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ٣١ .

(١١٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٦٨ (مخطوط) .

(١١٥) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٥٦ .

ولم يكن اعتقاد الناس فى الجان أقل من اعتقادهم فى السحر ، حتى بلغ الأمر أن أحد قضاة عصر المماليك — وهو بدر الدين الشبلى (ت ٧٦٩ هـ) — ألف كتابا يحوى مائة وأربعين بابا فى أخبار الجان[١١٦] . وذكر السخاوى أن أحد معاصريه « تعقبته تابعة من الجان عجز الأكابر عن خلاصه منها » فاستعان عليها بأحد ذوى الكرامات[١١٧] . كذلك يروى الشعرانى أن أحد معاصريه من فضلاء المشايخ استخدم الجان ، فقاموا على خدمته وترضيته وغير ذلك[١١٨] . بل إن الشعرانى يروى عن نفسه أن فى بيته امرأة من الجان إذا اقتربت منه قامت كل شعره فى جسده ![١١٩] ويذكر ابن الحاج كثيرا من الأعمال التى درجت النساء فى عصره على فعلها « لئلا يصيبها شىء من الجان » .

واشتغل بعض الناس فى ذاك العصر بالكيمياء ، بوصفه العلم الذى يشمل الأصول والقواعد التى يمكن بها تحويل مختلف المواد الى ذهب وفضة[١٢٠] . وفى سبيل الوصول الى هذه الغاية ، وجد كثير من الناس فى عصر المماليك اشتغلوا بالكيمياء فأفنوا فيها أموالهم وأموال غيرهم ، وتحول بعض المشتغلين بالكيمياء الى الشعوذة ، يخدعون النـــاس ويسلبون أموالهم باسم الحصول على كميات وفيرة من الذهب . وقد صور الجوبرى أهل الكيمياء فى ذلك العصر بأنهم طائفة من أعظم الطوائف تسلطا على أكل أموال الناس بالباطل ، وأنهم يتحايلون على

---

(١١٦) بدر الدين الشبلى : آكام المرجان فى أحكام الجان .

(١١٧) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ١١٣ ترجمة ابراهيم عمر الاتكاوى .

(١١٨) الشعرانى : ذيل لواقح الأنوار ص ٤٢ ب .

(١١٩) زكى مبارك : التصوف جـ ١ ص ٣٤٨ .

(١٢٠) أبو يحيى زكريا محمد : اللؤلؤ النظيم ص ١٤ ، مقـــدمة ابن خلدون ص ٥٩٢ وما بعدها .

أخذ أموال الناس بطرق شتى[١٢١] . وحدث سنة ٨٥٢ هـ أن وقع السلطان جقمق فريسة لشخص احتال عليه باسم الكيمياء ، ولم يزل ذلك الشخص حتى أتلف على جقمق مالا كثيرا فأمر أخيرا بسجنه[١٢٢] . هذا ، وقد أدرك بعض الناس أن الكيمياء غش وخداع ، وأنها عمل الكسالى الذين يطلبون المال دون تعب والهناء دون عناء . ودليل ذلك ما جاء فى إحدى تمثيليات خيال الظل « ولما حال الحال ، ومال المال ، وذهب الذهب ، تركنا العمل ، وملنا الى الراحة والكسل ، وأدعيت الأباطيل ، فطورا أدعى معرفة الكيمياء ... »[١٢٣] .

---

(١٢١) الجوبرى : المختار فى كشف الاسرار ص ٦١ .

(١٢٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١١ — ٢١٢ .

(١٢٣) ابن دانيال : طيف الخيال ص ٧١ .

المصادر والمراجع

أولا ـ حجج شرعية ووثائق

ـ حجة وقف السلطان بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٧ هـ (٢٣ ـ أرشيف المحكمة الشرعية)

ـ حجة وقف السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٢٧ هـ (٣٣٩٠ ـ تاريخ دار الكتب المصرية)

ـ حجة وقف الجمالى يوسف الاستادار سنة ٨٥٢ هـ (١٠٦ ـ أرشيف المحكمة الشرعية)

ـ حجة وقف السلطان الغورى سنة ٩١١ هـ (٨٨٣ ـ أرشيف وزارة الأوقاف) وقد نشر هذه الحجة الأخيرة مع دراسة علمية دقيقة للوثائق المعاصرة الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على .

ثانيـا — مصادر عربية مخطـوطة

١ — الأسـدى (شمس الدين محمد ، معاصر للسلطان الغورى)
التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٨٦)

٢ — البـلوى المغربى (خالد بن عيسى بن أحمد بن ابراهيم ، القرن الثامن الهجرى) :
تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، وهى المعروفة برحلة البلوى (مخطوط فى مجلد بالخط المغـربى — دار الكتب المصرية ، رقم ٤٠٠ جغرافيا)

٣ — بيبرس الدوادار (الأمير ركن الدين) ت ٧٢٥ هـ :
زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — الجزء التاسع (مخطـوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨) — حققته أخيرا زبيدة محمد عطا مع دراسة علمية وافية .

٤ — الجزرى (شمس الدين أبو عبد الله محمد) ت ٧٣٩ هـ :
تاريخ مخطوط فى ثلاث مجلدات (دار الكتب المصـرية رقم ٥٤٢٢)

٥ — ابن جهضم (نور الدين أبو الحسن الشطنوفى) ت ٧١٣ هـ :
بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى مناقب السادة الأخيـار من المشايخ الأبرار (مخطوط فى مجلدين — دار الكتب المصرية رقم ٤٥٠٦)

٦ — ابن حبيب (شهاب الدين الحلبى الشافعى) ت ٧٧٩ هـ :
درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط مصور من ثلاثة أجزاء — دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠)

٧ — ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبو العباس أحمد)
ت ٨٥٢ هـ :

اتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا (مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٢٧٦) .

٨ — إنباء الغمر بأنباء العمر .

(جزءان — دار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦)
نشرته أخيرا دائرة المعارف العثمانية — حيدر أباد بالهند .

٩ — التعرف فى الأصلين والتصوف .

(مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٥٠٩٧) .

١٠ — رفع الأصر عن قضاة مصر .

(مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية — رقم ١٠٥ تاريخ)

١١ — الحسينى (حسين بن محمد) معاصر للسلطان الغورى .

نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية .
(مخطوط مصور فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٤١٧) .

١٢ — الخازنى (القاضى أمين الدين أبو محمد عبد الوهاب)
ت ٧٦٨ هـ .

أحاسن الأخبار فى محاسن السبعة الأخيار (مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية — رقم ٢٩٤٧) .

١٣ — ابن دانيال الموصلى (شمس الدين محمد) .

طيف الخيال (مخطوط فى مجلد — دار الكتب — الخزانة التيمورية ١٦ ألعاب) .

١٤ — ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد) ت ٨٠٩ هـ .
الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين (مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ١٥٣٢) .
حققته أخيرا المؤلف مع دراسة علمية وافية .

١٥ — الذهبى (شمس الدين محمد) ت ٧٤٨ هـ .

تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام (مجلدات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ — دار الكتب المصرية رقم ٤٢) .

١٦ — أبو زكريا يحيى بن ابراهيم الحكيم .

كتاب فى الشطرنج (مخطوط مصور — دار الكتب المصرية رقم ٤٩٧) .

١٧ — السـيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) ت ٩١١ هـ .
منتقى من الينبـوع فيما زاد على الروضة من الفـروع (دار الكتب المصرية رقم ٥٢١ مجاميع) .

١٨ — آكام العقيان فى أحكام الخصيان .

(دار الكتب المصرية رقم ٥٢١ مجاميع) .

١٩ — بلبـل الروضـة .

(دار الكتب المصرية رقم ٢٠ م) .

٢٠ — كوكب الروضـة .

(دار الكتب المصرية رقم ٥٠٢٧) .

٢١ — ابن شاكر الكتبى (صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٧٦٤ هـ .

عيوان التواريخ . (توجد منه خمسة مجلدات مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧) .

٢٢ — الشـبلى (بدر الدين أبوعبدالله محمد) ت ٧٦٩ هـ •

آكام المرجان فى أحكام الجان • (مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٢٤١٢) •

٢٣ — الشـعرانى (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على) ت ٩٧٣ هـ •

ذيل لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية •
(دار الكتب المصرية — رقم ٤٩٣ تاريخ) •

٢٤ — طبيغا الجركلمشى الثمارتمرى (القرن الثامن الهجرى) •
الفلاحة المنتخبة • (مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٢٢ زراعة) •

٢٥ — ابن ظهيرة (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين) القرن العاشر الهجرى •

الفضـائل الباهرة فى محاسن مصر والقـاهرة •

(مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ١٤٦٠) •

٢٦ — ابن العراقى (ولى الدين أحمد أبو زرعة بن الحـافظ أبو الفضـل) ت ٨٢٦ هـ :

الذيـل •

(مخطوط مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٥٦١٥ تاريخ) •

٢٧— العـينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥ هـ •

السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شـيخ •

(مخطوط مصور فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٣٣٥٤) •
حققه أخيرا فهيم محمد شلتوت •

٢٨ — عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .

(مخطوط مصور — ٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدا ، يبدأ الجزء ١٨ بسنة ٦٢١ هـ — دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤) .

يقوم بتحقيقه حاليا محمد محمد أمين وصدرت منه خمسة أجـزاء .

٢٩ — ابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ) .

تاريخ الدول والملوك ، المعـروف بتاريخ ابن الفـرات .

(مخطوط مصور فى ١٨ مجلدا — دار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧) .

٣٠ — القاشانى (كمال الدين عبد الرازق) ت ٧٢٠ هـ .

شرح اصطلاح القوم (وهو شرح اصطلاح الصـوفية) .
(دار الكتب المصرية رقم ٢٠١ — تصوف) .

٣١ — ابن قاضى شهبة (أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر) ت ٨٥١ هـ .
الاعلام بتاريخ أهـل الاسلام .

(مخطوط مصور فى سبعة مجلدات — دار الكتب المصرية رقم ٣٩٢) .

٣٢ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

المقفى . (مخطوط مصور فى أربعة مجلدات — دار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢) .

٣٣ — ابن ممـاتى .

الفاشوش فى أحكام قراقوش .

(دار الكتب المصرية رقم ١٩٤ مجاميع) .

(والكتاب ينسب خطأ الى السيوطى) .

٣٤ — ابن النقاش (أبو امامة بن على بن عبد الواحد بن يحيى بن عبد الرحيم الدكالى المصرى) ت ٧٧٣ هـ •

المذمة فى استخدام أهل الذمة •

(مخطوط مصور فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٤٣١٥) •

٣٥ — النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ •

نهاية الأرب فى فنون الأدب •

(مخطوط مصور فى ٣٢ جزءا — دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف) • تم تحقيقه أخيرا بمركز التراث بدار الكتب المصرية •

٣٦ — النويرى (محمد بن قاسم بن محمد) ت ٧٧٥ هـ •

الإلمام بالاعلام فيما جرت الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية •

(جزءان فى مجلدين — دار الكتب المصرية)

الجزء الأول رجعت للنسخة رقم ٣٩٤٢ •

الجزء الثانى رجعت للنسخة رقم ٤١٩٣ •

نشرته أخيرا دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد بالهند •

٣٧ — الهـروى (أبو الحسن بن أبى بكر بن على) ت ٦١١ هـ •

رحلة الهروى ، وفيها أخبـار زيارته لمصـر •

(مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٣ م جغرافيا) •

٣٨ — الكوكب الدرى فى مسائل الغورى •

(مخطوط مصور — دار الكتب المصرية رقم ٢٥٨ تفسير) •

٣٩ — الوصلة الى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب •

(مخطوط فى مجلد يرجع الى القرن الثامن الهجرى ، دار الكتب المصرية رقم ٧٤ صناعات) •

ثالثا — مصادر ومراجع عربية مطبوعة

١ — ابراهيم أحمد نور الدين :

حياة السيد البدوى (القاهرة ١٩٤٨) .

٢ — ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ، ت ٧٢٩ هـ) :

معالم القربة فى أحكام الحسبة ؛ نشره روبن ليوى (كمبردج ١٩٣٧) — حققه محمد محمد شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعى وصدر بالقاهرة سنة ١٩٧٦ .

٣ — الأدفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب ، ت ٧٤٨ هـ) :

الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد (القاهرة ١٩١٤) .

٤ — ألف ليلة — أربعة أجزاء — طبعة الحلبى .

٥ — ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠ هـ) :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور المشهور بتاريخ مصر . ثلاثة أجزاء فى مجلدين (بولاق ١٨٨٦) .

٦ — باول كالا :

منارة الاسكندرية القديمة فى خيال الظل المصرى . (شتوتجارت ١٩٣٠) .

٧ — برنارد لويس :

النقابات الاسلامية — ترجمه الى العربية عبد العزيز الدورى (مجلة الرسالة أعداد ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ سنة ١٩٤٠) .

٨ — ابن بطوطة :

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

جزءان (باريس ١٨٨٠) .

٩ — البغـــدادى (موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف ، ت ٦٢٩ هـ) .

أخبار مصر (ليدن ١٨٠٠) .

١٠ — توفيق الطويل :

التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى (القاهرة ١٩٤٦) .

١١ — ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) :

رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) .

١٢ — الجـــزرى (شمس الدين أبو الخير محمد ، ت ٨٣٣ هـ) .

غاية النهاية فى طبقات القراء .

جزءان فى مجلدين (القاهرة ١٩٣٢) .

١٣ — جورج يعقوب :

طيف الخيال لابن دانيال الموصلى

ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، ٢ طبع أرلانجن ١٩١٠ م ، ج ٣ طبع برلين ١٩١٢ م .

١٤ — الجوبرى (عبد الرحيم الشهير بعبد الرحمن بن أبى بكر) :

المختار فى كشف الأسرار (دمشق ١٨٨٤) .

١٥ — ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن المقر ، معاصر للسلطان قلاوون) .

التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية (بولاق ١٨٩٨) .

١٦ — ابن الحاج (أبو عبـــد الله محمـــد بن محمـــد العبدرى ، ت ٣٨٧ هـ) :

المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب

أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٩) .

١٧ — حسن السندوبى :

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى (القاهرة ١٩٤٨) .

١٨ — الحسينى (الحافظ أبو المحاسن ، ت ٧٦٥ هـ) :

ذيل تذكرة الحفاظ للذهبى (دمشق ١٩٢٨) .

١٩ — ابن حجر (شهاب الدين بن على ، ت ٨٥٣ هـ) :

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة

أربعة أجزاء فى أربعة مجلات (الهنـــد ١٩٢٩)

٢٠ — الحسن بن عبد الله (القرن الثامن الهجرى) :

آثار الأول فى ترتيب الدول (بولاق ١٨٧٨) .

٢١ — ابن خلدون (عبد الرحمن) :

المقدمة (من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)

(القاهرة ١٩٠٩) .

٢٢ — ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ، ت ٦٨١ هـ) :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة ١٨٩٢) .

٢٣ — ابن أبى الفضائل (المفضل ، ت ٦٧ هـ) :

كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(باريس ١٩٢٠) .

٢٤ — ابن دقماق (ابراهيم محمد المصرى ، ت ٨٠٩ هـ) :

الانتصار لواسطة عقد الأمصار (بولاق ١٨٩٣)

٢٥ ــ زامبــاور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى

ترجمه الى العربية زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود •
جزءان (القاهرة ١٩٥١) •

٢٦ ــ زكى مبــارك :

التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ــ جزءان

(القاهرة ١٩٣٨) •

٢٧ ــ زيادة (محمد مصطفى) :

بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر

مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ــ المجــلد الرابع ــ
الجزء الأول (مايو ١٩٣٦) •

٢٨ ــ ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله محمد ، القــرن
التاسع الهجرى) :

الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الصغرى
والكبرى (بولاق ١٩٠٧) •

٢٩ ــ زكى محمد حسن :

فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨) •

٣٠ ــ زيتر شــتين :

تاريخ سلاطين المماليك من سنة ٦٩٠ هـ حتى سنة ٧٤١ هـ •

لم يعلم مؤلفه ويفهم من كتابته أنه معاصر للناصر محمــد
(ليــدن ١٩١٩) •

٣١ — السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ، ت ٧٧١ هـ) :
معيد النعم ومبيد النقم (لندن ١٩٠٨) .

٣٢ — السخاوى (أبو الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر) :
تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات
نشره محمود ربيع وحسن قاسم (القاهرة ١٩٣٧) .

٣٣ — السخاوى (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢ هـ) :
التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق ١٨٩٦) .

٣٤ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . ١٢ جزء فى ١٢ مجلد (القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦) .

٣٥ — سهير القلماوى :
ألف ليلة وليلة (القاهرة ١٩٤٣) .

٣٦ — سيرة الظاهر بيبرس (٥٠ جزءا) (القاهرة ١٩٢٦) .

٣٧ — السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، ت ٩١١ هـ) :
اتمام الدراية لقراء النقاية (الهند ١٨٩١) .

٣٨ — الايضاح فى علم النكاح (القاهرة ١٨٨٩) .

٣٩ — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (دمشق ١٩٣٢) .

٤٠ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٨٨١) .

٤١ — ذيل طبقات الحفاظ للذهبى (دمشق ١٩٢٨) .

ـ الكنز المدفون والفلك المشحون (طبعة بولاق) .

ـ ابن شاكر (فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى ، ت ٧٦٤) :
فوات الوفيات ـ جزءان (بولاق ١٨٩١) .

ـ الشربينى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر) .
هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف (بولاق ١٨٩٠) .

ـ الشعرانى (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الانصارى ، ت ٩٧٣ هـ) :
لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار ـ جزءان
(القاهرة ١٨٨١) .

ـ عاشـور (سعيد عبد الفتاح) :
انظر المقريزى ـ كتاب السلوك .

ـ أبو العباس الدمشقى (أحمد بن يوسف القرمانى ، ت ١٠١٩ هـ)
أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٨٦٥) .

٣ ـ عبد الطيف ابراهيم على :
دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك
(رسالة لم تطبع . انظر المخطوطات) .

٤ ـ عبد الله بن عبد الظاهر الكاتب :
الألطاف الخفية فى السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية
(ليبسك ١٩٠٢) .

٥ ـ عبد الوهاب عـزام :
مجالس السلطان الغورى (القاهرة ١٩٤١) .

٥١ — على باشا مبارك :

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة

عشرون جزءا (بولاق ١٨٨٨) .

٥٢ — العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٢ هـ) :

التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢ هـ) .

٥٣ — مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — الجزء الأول

(القاهرة ١٩٢٤) .

٥٤ — العيدروسى (محيى الدين عبد القادر بن عبد الله الهندى) .

النور السافر عن أخبار القرن العاشر .

(بغــداد ١٩٣٤) .

٥٥ — غرس الدين (خليل بن شاهين الظاهرى ، ت ٨٧٣ هـ) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

نشرة بولس راوييس (باريس ١٨٩٤) .

٥٦ — أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى ، ت ٧٧٤ هـ) :

الاجتهادات فى طلب الجهاد (طبعة القاهرة) .

٥٧ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علـى المصرى ، ت ٨٠٧ هـ) :

تاريخ الدول والملوك ، المعروف بتاريخ ابن الفرات المطبوع منه — جزءان من سنة ٧٨٩ هـ الى سنة ٧٩٩ هـ ويقابل هذان الجزءان جـ ١٧ ، ١٨ من النسخة المخطوطة (بيروت ١٩٣٦) .

٥٨ — فؤاد حسنين :

محمد بن دانيال

ثلاثة أبحاث نشرت فى مجلة الثقافة أعداد ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ (١٩٤٢ — ١٩٤٣) .

٥٩ — ابن فهد (الحافظ أبو الفضل تقى الدين محمد ، ت ٨٧١ هـ) :

لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (دمشق ١٩٢٨) .

٦٠ — القلقشندى (أبو العباس أحمد ، ت ٨٣٢ هـ) :

صبح الاعشى فى صناعة الأنشا

(القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩) .

٦١ — ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) :

البداية والنهاية

جزء ١٣ مطبوع وينتهى بسنة ٦٩٨ هـ ، بقية الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١١٠ .

٦٢ — كلوت بك :

لمحة عامة الى مصر — جزءان .

نقله الى العربية محمد مسعود (القاهرة ١٩٢٤) .

٦٣ — أبو المحاسن (جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى ، ت ٨٧٤ هـ) :

منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور .

أربعة أجزاء فى أربعة مجلدات — نشرها وليم ببر

(كاليفورنيا ١٩٣١) .

٦٤ — مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة

نشره كارليــل (كامبردج ١٧٩٢) •

٦٥ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

رجعت الى طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء التاسع أى حتى سنة ٧٤١ هـ • وبعد ذلك رجعت فى بقية الكتاب الى طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم ببر ١٩٠٩ •

وقد تم تحقيق الكتاب ونشره أخيرا بدار الكتب المصرية •

٦٦ — محمد على أحمد ، وأحمد على محمد :

تاريخ السيد البدوى

٦٧ — محمد غنيمى هلال :

الأدب المقــارن (القاهرة ١٩٦٢٣) •

٦٨ — محمد كامل حسين :

التشيع فى الشعر المصرى فى عصر الايوبيين والمماليك •

مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة — المجلد الخامس عشر — الجزء الأول (سنة ١٩٥٣) •

٦٩ — محمد مصطفى :

صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور تأليف محمد بن أحمد ابن اياس — من سنة ٨٥٧ الى ٨٧٢ هـ (القاهرة ١٩٥١) •

٧٠ — وســتنفلد :

أخبار قبط مصر — لم يعلم جامعها ، وهى مأخوذة من كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزى (جوتنجن ١٨٤٥) •

٧١ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ) :
إغاثة الأمة بكشف الغمة
نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال (القاهرة ١٩٤٠) •

٧٢ — البيان والأعراب عما بأرض مصر من الاعراب
نشره وستنفلد (جوتنجن ١٨٤٧) •

٧٣ — ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية
نشره وتزر (سولزباك ١٨٢٨) •

٧٤ — السلوك لمعرفة دول الملوك
حققه محمد مصطفى زيادة حتى سنة ٧٧٥ هـ فى ستة مجلدات وبقية الكتاب قام بتحقيقه سعيد عبد الفتاح عاشور فى ستة مجلدات أخرى •

٧٥ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — ٤ أجزاء •
(القاهرة ١٩٠٧ م) وكذلك طبعة بولاق فى مجلدين ١٢٧٠ هـ •

٧٦ — النابلسى (فخر الدين عثمان بن ابراهيم ، القرن السابع الهجرى) :
تاريخ الفيوم المسمى إظهار صنعة الحى القيوم فى ترتيب بلاد الفيوم (بولاق ١٨٩٨) •

٧٧ — النويرى (شهاب أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب •
طبعة دار الكتب فى ٣٢ جزءا (١٩٢٨ — ١٩٩٢) •

٧٨ — ابن الوردى (زين الدين أبو حفص ، ت ٧٤٩ هـ) :

خريدة العجائب وفريدة الغرائب (ليدن ١٨٢٣) .

٧٩ — ولفرد جوزف دلفى :

العمارة العربية بمصر (القرنان ١٤ ، ١٥)

ترجمة محمود أحمد (بولاق ١٩٢٣) .

٨٠ — أبو يحيى زكريا بن محمد (ت ٩٢٦ هـ) :

اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم (القاهرة ١٩٠٩) .

رابعا — مراجع أوربية

1 — Barbier de Meynard (M. A. C.) :

Surmoms et Sobriquets dans la Litterature Arabe.

(J. A. 2 Serie — Tome IX, X — Paris, 1907).

2 — Belin (M.) :

Du Regime des fiefs militaires dans l'islamisme.

(J. A, 6 Serie, Tome 15, Paris, 1870).

3 — Belin (M.) :

Fetoua relatif á la Condition des Zimmis, et Particuliera-ment des chretiens en pays musulmans, depuis l'etablis.ement de l'islamisme, Jusqu' au milieu du 8 siecle de l'hegire.

(J. A. 4 Serie, Tome 18, 1851 & Tome 19, 1852).

4 — Belon (Pierre) :

Les Observations de Plusieurs Singularitez et Choses memorables trouves en Grace, Asie, Judée, Egypte, Arabei, et autres payes estranges. (Paris, 1553).

5 — Carré (Jean - Marie) :

Vayageurs et Ecrivains Francais en Egypte.

(Le Caire, 1932).

6 — Charles de la Roncière :

La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age, (Momaoires de la Sociète Royale de Geographie d'Egypte. Tome 6 — Le Caire, 1925).

7 — Clerget (Marcel) :

Le Caire — 2 vols. (Le Caire, 1934).

8 — Dopp (P. H.) :

Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age. (Bulletin de la Societe Royale de Geographie d'Egypte — Tome 23, 1950; Tome 24, 1951; Tome 26, 1953).

9 — Dopp (P. H.) :

L'Egypte au Commencement ue Ouinzieme Siecle; d'apres la traité d'Emmanuel Piloti de Crete. (Le Caire, 1950).

10 — Dozy (R. P. A.) :

Dictionnaire Detaillè des Noms des Vetements chez les Arabes. (Amesterdam, 1845).

11 — Emile Amar (M.) :

Prelegomenes a l'etude des historiens Arabes par Khalil Ibn Aibak Assafadi. (J. A. 2m. Serie — Tome 17, 1911).

12 — Giddings (F. H.) :

The Principles of Sociology. (London, 1924).

13 — Gillin (J. L.) & Blackman (F. W.) :

Outlines of Sociology. (New York, 1930).

14 — Guyard (M. St.) :

Le Fetwa d'Ibn Taimiyyah sur les Nosairis.

(J. A. — 6m. Sèrie — Tome 18 — Paris, 1871).

15 — Heyd (W.) :

Histoire du Commerce du Levant du Moyen Age (2 Vols.)

(Leipzig, 1923).

16 — Ibrahim Salama :

L'Enseignement Islamaque En Egypte.

(Le Caire, 1939).

17 — Kahle (Paul) :

The Arabic Shadow Play in Egypt.

(J. R. A. S. London, 1949).

18 — Kammerer (A. Albert) :

Le Régime et le Status des Etrangers En Egypte.

(Memoires de la Sociète Royale de Geographie d'Egypte —

Tome 15 — Le Caire, 1929).

19 — Lane (E. W.) :

An Account of the Manners and Customs of the Modern

Egyptians. (London, 1860).

20 — Lane — Poole (S.) :

A Hist. of Egypt in the Middle Ages. (London, 1936).

21 — Lane - Poole (S.) :

Cairo. (London, 1892).

22 — Lane - Poole (S.) :

Social Life in Egypt. (London, 1883).

23 — Larrivaz (F.) :

Le Saintes Peregrination de Bernard de Breydenbach.

(Le Caire, 1904).

24 — Laurent d'Arvieux :

Memoires dn Chevalier d'Arvieux, (Paris, 1985).

25 — Levi — Provencal (E) :

Zawiya, (En. Isl vol. 4).

26 — Marcais (G.) :

Ribat. (En. /sl. vol. 3).

27 — Massignon (L.) :

Tasawuf (En. Isi, vol, 4).

28 — Muir (W.) :

The Mamluke or Slave Dynasty of Egypte.

(London, 1896).

29 — Poliak (A. N.).

Feudalism in Egypt, Syria, Palestine.

(London, 1939).

30 — Poliak (A. N.) :

Les Revoltes Populaires en Egypte a l'Epoque des Mameloucks et Leurs Causes Economiques,

(R. E. vol. 8, 1934).

31 — Poliak (A. N.) :

Some Notes on the Feudal System of the Mamlukes.

(J. R. A. S. London, 1937).

32 — Quatremère (E.) :

Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 vols.

(Paris, 1837).

33 — Reinaud (M.) :

Traites de Commerce entre la republique de Venise et les derniers Sultans Mameloucs d'Egypte.

(J. A 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829).

34 — Schefer (C.) :

Le Voyage d'Outermer de Jean Thenaud.

(Paris, 1864).

35 — Schefer (C.) :

Voyage du Magnifique et tres illustre Chevalier Domenico Trevisan. (Paris, 1864).

36 — Sobernheim (M.) :

Mamluks. (Enc. Isl. vol. 3).

37 — Spiller (G.) :

Towards An Agreed Basis in Sociology. (London, 1933).

38 — Tafur (Pero) :

Travels and Adventures (London, 1920).

39 — Vansleb (P.) :

Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage en Egypte. (Paris, 1682).

40 — Vollers (K.) :

Ahmed al-Badawi. (Enc. Isl. vol. 1).

41 — Wiet (G.) :

Les Biographies du Manhal Safi. (Memoires a l'institut d'Egypte — Le Caire, 1932).

42 — Wiet (G.) :

L'Egypte Arabe. (Paris, 1937).

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

« تـــم بحمـــــد اللـــه »

رقم الايداع بدار الكتب
٤٦٤٧ / ١٩٩٢
I. S. B. N
977 — 04 — 0837 — 9

المطبعـة الاسلامية الحديثة
٤٢ (أ) شارع دار السعادة ـــ الزيتون
القاهرة ـــ ت ٢٤٦٦٩٣٨